الإمارات
THE EMIRATES

مَرَاوِد

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 53 – أبريل، 2023، السنة السابعة

ملف العدد :
رمضان في الذاكرة الشعبية

عبدالله بن سالم القاسمي يشهد انطلاق «أيام الشارقة التراثية»

عبدالعزيز المسلّم رجل التراث العربي لعام 2023

خورفكان أفضل مدينة سياحية عربية لعام 2023

العدد 53 – أبريل 2023، السنة السابعة

MARAWED Issue, 53, (APR 2023), The seventh year

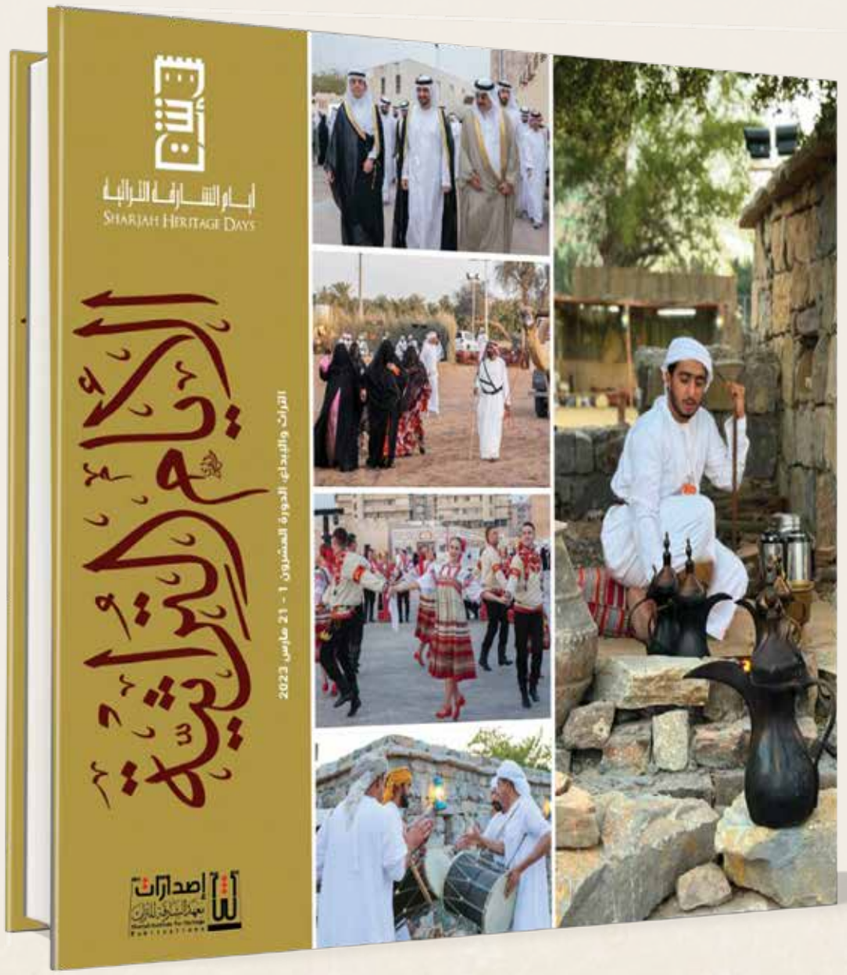

صدر حديثاً

إدارة المحتوى والنشر
Content and Publishing Department
unesco
Centre
Under the auspices
of UNESCO
معهد الشارقة للتراث
SHARJAH INSTITUTE
FOR HERITAGE

مُرَاوِد

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

يشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجِدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: **marawed@sih.gov.ae**

للتواصل مع إدارة التحرير:

0097165014898

marawed@sih.gov.ae

الافتتاحية

د. عبدالعزيز المسلّم

رئيس معهد الشارقة للتراث

رئيس التحرير

رمضان في الذاكرة الشعبية

الصيام مظهر من المظاهر التي عرفتها البشرية منذ القدم، وإن اختلفت في تمثله بحسب الداعي والسبب والغرض والكيفية، وارتبط بالكثير من الطقوس والعادات التي كانت تعبّر عن استيعاب الأمم الغابرة والشعوب الماضية لمفهوم الصيام، وإدراكها كنهه وتشكيله في ثقافتها ووعيها الجمعي والفردي، وسلوكها الروحي. وقد عرفت الحضارات القديمة والثقافات العريقة والديانات السابقة مظاهر مختلفة وممارسات متنوّعة للصيام، كانت تتشابه حيناً، وتتباين أحياناً أخرى، فعرف عند الهيلينيين، والكولومبيين، والهنود الحمر، واليابانيين، والهندوسيين والبوذيين، والمصريين القدماء، وأقرّته الأديان السماوية بصنوف مختلفة وأنماط متماثلة.

وحسب اختلاف الغاية والهدف من الصيام، اختلفت كيفيته،وتباينت طرائقه في ثقافة الشعوب والأمم الماضية، حيث كان بعضها ينزع إلى ممارسات معينة، كالصوم عن الكلام، وآخر عن الطعام ساعات في اليوم، أو في أيام معلومة في أشهر معلومة، وقد اختلف الصيام في الإسلام جوهرياً عن الثقافات الأخرى، حيث مزج بين معنييه الظاهري والباطني، واللغوي والشرعي، لما في ذلك من تربية للنفس وترويض لها على ما يخالف هواها، كما يحمل الصيام مقاصد سامية،وقيماً راقية، تحثّ على التأمل والتفكر والتدبر، وليس مجرد الإمساك عن المفطرات ومفسدات الصيام فحسب.

ويأتي شهر رمضان كل عام ليبعث في النفوس الحنين إلى تلك الأجواء الروحانية، ومظاهرها الإيمانية التي تذكي تلك القيم العليا في النفوس، وتحدوها إلى الارتقاء في مدارك الصفاء والكمال، في الخلوات والجلوات، كما يحيي رمضان في الذاكرة ذكريات ماضية في أزمنة خالية، تكشف صورة احتفاء مجتمعاتنا بحلول الشهر الفضيل، وما يواكب ذلك من مظاهر ثقافية واجتماعية وترفيهية يتم استحضارها كل عام.

في هذا العدد ترصد «مراود» صوراً مختلفة من تقاليد رمضان في الموروث الشعبي الإماراتي، التي تعكس كيفية الاحتفاء بالشهر الكريم، ومظاهر الاحتفال، وما يصاحبها ويواكبها من طقوس وعادات وتقاليد عريقة، درج عليها الإماراتيون منذ آمادٍ بعيدة، وهي تختلف باختلاف المكان والزمان.

المحتويات

العدد 53 – أبريل 2023

مُراود

الغلاف

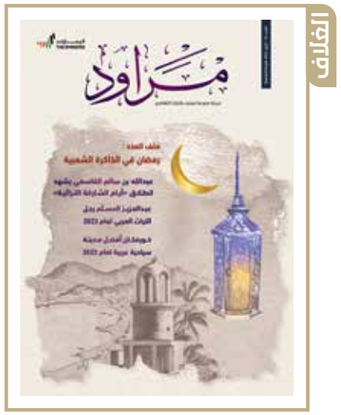

14
ملف العدد
رمضان في الذاكرة الشعبية

10
برامج وفعاليات
عبدالله بن سالم القاسمي يشهد انطلاق فعاليات الدورة الـ 20 من «أيام الشارقة التراثية»

60
موسيقا الشعوب
مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ من القرن الثاني حتى الحادي عشر الهجريّ

64
فنون شعبية
فن العازي

66
دراسة
ذياب بن عيسى قائد من الصحراء

68
خواطر
الكويت في الأرشيف العثماني

72
تنبيهات
علقمة وشميسة

80
سوالف الهامور
«الجار قبل الدار»

74
التراث الشعبي العربي
النبات في تراثنا الشعبي

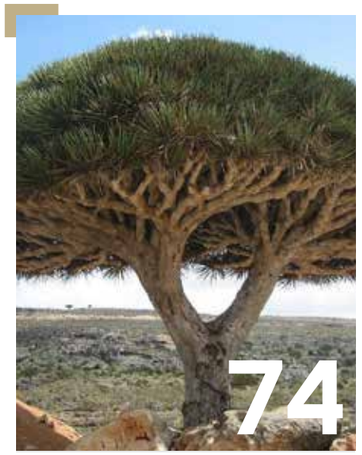

84
التراث الشعبي
الألعاب الشعبية بمصر في العصر الإسلامي

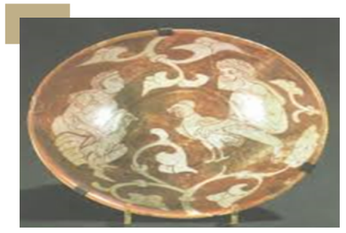

90
إضاءة
مجموعة إزنزارن: بين الفن الملتزم والكلمة المتزنة

94
ذاكرة تراثية
العمارة الإسلامية في عهد الدولة الأموية
مسجد بني أمية بدمشق أنموذجا

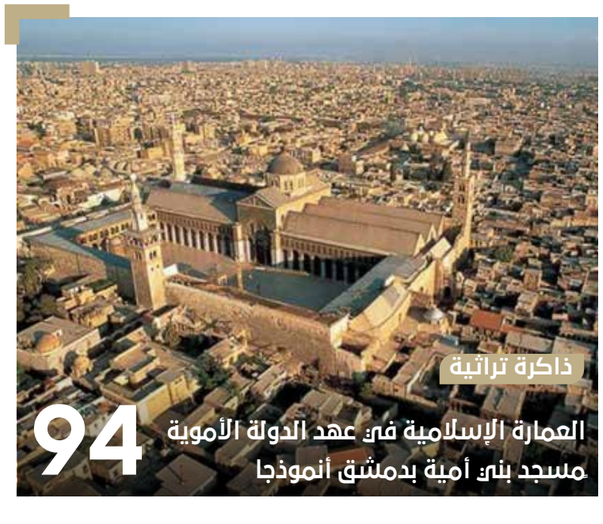

88
زاوية
مهنة الخياطة بين الماضي والحاضر

76
قراءة أدبية
«ليالي سردينيا» رواية «يوم أن كانت الجزائر كلّها زَبُّوجة»

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
كاتب وخبير ثقافي

مدير التحرير
د. منّى بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

هيئة التحرير
أ. علي العبدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي
أ. سارة إبراهيم

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

حوار العدد

114 د. موزة غباش: «كتاب التراث الشعبي لمجتمع الإمارات »

الآراء الواردة في المقالات، والتحقيقات، والمقابلات، تُعبر عن رأي أصحابها ومواقفهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه المجلة، ويتحمل أصحابها المسؤولية الأدبية أمام الرأي العام، والقانونية أمام الجهات المختصة.

800TURATH
+971 6 5092666
marawed_sih
www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

حرف تراثية

98 حِرف تشكيل الأخشاب

103 قراءة في كتاب
أساطير قرطاجنّة في عيون المؤرخين العرب

إضاءة

106 ساحة حصن الشارقة في كتاب «سرد الذات »

أماكن تراثية

110 ظاهرة تبادل الهبات لدى هنود أمريكا

ضوء

118 الفنون الاستعراضية تتألق في «اليونسكو»

من وحي التراث

122 في علم الحرف وسر الحرفة

أماكن ومعالم

132 «القصر » مدينة ذات تراث تاريخي وحضاري

فنون تاريخية

126 فن تشكيل الزجاج المنفوخ

عبدالله بن سالم القاسمي يشهد انطلاق
فعاليات الدورة الـ20 من «أيام الشارقة التراثية»

شهد سمو الشيخ عبدالله بن سالم بن سلطان القاسمي، نائب حاكم الشارقة، انطلاق فعاليات الدورة الـ20 من «أيام الشارقة التراثية»، تحت شعار «التراث والإبداع»، وذلك في منطقة ساحة التراث في قلب الشارقة، والتي ينظمها معهد الشارقة للتراث في 11 مدينة بإمارة الشارقة، على مدى الفترة من 1 إلى 21 من شهر مارس الماضي ، بمشاركة 42 دولة عربية وأجنبية، و40 جهة حكومية.

واستُقبل سموه لدى وصوله بعزف فن العيالة الإماراتي، وكان في استقباله كل من الشيخ خالد بن عبدالله القاسمي، رئيس هيئة الشارقة للموانئ والجمارك والمناطق الحرة، والشيخ سالم بن عبدالرحمن القاسمي، رئيس مكتب سمو الحاكم، والشيخ فاهم بن سلطان القاسمي، رئيس دائرة العلاقات الحكومية، والشيخ ماجد بن سلطان القاسمي، رئيس دائرة شؤون الضواحي والقرى، وعدد من كبار المسؤولين ورؤساء ومديري الجهات الحكومية الاتحادية والمحلية، ومسؤولي المنظمات الدولية والإقليمية المعنية بالتراث والثقافة، والضيوف الرسميين المشاركين في «الأيام» ومجموعة من الخبراء والمهتمين بالشأن التراثي.

أيام الشارقة التراثية تستقطب 400 ألف زائر

اختتم معهد الشارقة للتراث فعاليات الدورة العشرين من أيام الشارقة التراثية التي جرت في مختلف مدن ومناطق الشارقة تحت شعار (التراث والإبداع) خلال الفترة من 1 إلى 21 مارس الماضي، وبمشاركة 42 دولة عربية وأجنبية.

وفي هذا الإطار، قال سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلم رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة العليا المنظمة لأيام الشارقة التراثية: كعادتها، نجحت الأيام في الوفاء بوعودها تجاه التراث، وفي إدهاش جمهورها بكل مبتكر ومبدع، وفي تأكيد أن التراث سيبقى القيمة الحقيقية التي لا تزول مهما مرت الأعوام، حيث تميزت الدورة العشرون بإقبال لافت يبعث على السعادة ويدفعنا للمزيد من الجهد والبحث عن كل جديد يسهم في المحافظة على التراث وصون الهوية وربط المجتمع بعاداته وتقاليده وقيمه الأصيلة».

إطلاق كتاب «التراث والإبداع.. مقاربات ورؤى»

شهد سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلم رئيس معهد الشارقة للتراث حفل توقيع كتاب (التراث والإبداع.. مقاربات ورؤى) والذي أقامه المقهى الثقافي في متحف بيت النابودة وبحضور نخبة إماراتية وعربية من الباحثين والمختصين والخبراء في شؤون التراث والموروث الشعبي، والذين شاركوا في رفد الكتاب وإثراء مادته بمقارباتهم القيمة ورؤاهم المعمقة حول مفهومي التراث والإبداع والعلاقة بينهما تأثرًا وتأثيرًا باعتبارهما ثنائيتين متلازمتين وصنوين لا يفترقان.

وقام المسلم والمشاركون في إعداد الكتاب بإهداء الحضور نسخًا منه مموهة بتوقيعهم، وحول الكتاب قال المسلم: «إن إطلاقنا لهذا الكتاب يأتي جريًا على التقليد الذي بدأناه العام الماضي في إفراد عمل جماعي كل عام، لمناقشة شعار الدورة وما يرمز إليه أو يحيل إليه من غنى وتنوع، وذلك بمشاركة نخبة من الخبراء والأكاديميين والباحثين، حيث يضم الإصدار مقاربات ورؤى ونتائج 19 من الباحثين والخبراء في هذا الشأن، ويحيط بموضوعات شتى حول التراث والإبداع».

خورفكان أفضل مدينة سياحية عربية لعام 2023

حصـدت مدينـة (خورفـكان) بإمـارة الشـارقة في دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة جائـزة أفضـل مدينـة سـياحية عربيـة، ضمـن جوائـز الإعـلام السـياحي العـربي، وهـي أكـبر جوائـز عربيـة لتكريـم الشـخصيات والمؤسسـات الحكوميـة والخاصـة المتميـزة، وتـم إعـلان الجائـزة في معـرض (ITB) بورصـة برلـين السـياحية بالعاصمـة الألمانيـة بحضـور لفيـف مـن المسـؤولين عـن السـياحة في الوطـن العـربي، ومنظمـة السـياحة العالميـة.

وكان معهـد الشـارقة للـتراث، قـد تقـدم بملـف ترشـيح مدينـة خورفـكان للاتحـاد العـربي للإعـلام السـياحي، بعـد الطفـرة العمرانيـة والسـياحية التـي شـهدتها المدينـة في الآونـة الأخـيرة، بفضـل المشروعـات التنمويـة الكـبرى التـي أطلقهـا صاحـب السـموّ الشـيخ الدكتـور سـلطان بـن محمـد القاسـمي، عضـو المجلـس الأعـلى حاكـم

الشـارقة، والتـي تمثلـت في ترميـم وإعـادة تأهيـل المعـالم التراثيـة والتاريخيـة، ممثلـة في المنطقـة التراثيـة بخورفـكان، سـوق شرق، حـارة السـدرة، بالإضافـة إلى المشروعـات السـياحية التـي حولـت المدينـة إلى واجهـة للجـذب السـياحي.

عبد العزيز المسلّم رجل التراث العربي لعام 2023

منـح «الاتحـاد العـربي للإعـلام السـياحي» سـعادة الدكتـور عبـد العزيـز المسـلّم، رئيـس معهـد الشـارقة للـتراث، جائـزة «رجـل الـتراث العـربي لعـام 2023»، وجـاء ذلـك خـلال حفـل كبـير نظمـه الاتحـاد في العاصمـة الألمانيـة برلـين، ببورصـة السـياحة (ITB)، بحضـور عـدد مـن أصحـاب المعـالي وزراء السـياحة العـرب، ومسـؤولي المنظمـة العالميـة للسـياحة، والاتحـاد العـربي للإعـلام السـياحي.

وأعـرب الدكتـور المسـلّم في تصريـح لـه بهـذه المناسـب، عـن سـعادته الغامـرة بهـذه الجائـزة، التـي تـأتي تتويجـاً لسـنوات مـن العمـل المتواصـل في مجـال الـتراث الثقافي، الـذي أسـهم في المحافظـة عـلى الذاكـرة المكانيـة والمرويـات الشـعبية مـن الضيـاع والاندثـار، بفضـل دعـم وتشـجيع صاحـب السـموّ الشـيخ الدكتـور سـلطان بـن محمـد القاسـمي، عضـو المجلـس الأعـلى للاتحـاد حاكـم الشـارقة، حفظـه اللـه ورعـاه، حامـي الـتراث، وحافـظ الهويـة.

وأكـد الدكتـور المسـلّم أن هـذه الجائـزة تعـدّ ذات وقـع

وأثـر كبيريـن، لمـا لهـا مـن مكانـة وأهميـة على المسـتوى العـربي، حيـث تعـدّ مـن أرفـع الجوائـز التـي تمنـح لقامـات علميـة عاليـة؛ تقديـراً لمنجزهـا الـتراثي، ومسـيرة العطـاء، وهـي سـانحة طيبـة لإسـداء الشـكر والعرفـان للقائمـين عـلى هـذه الجائـزة، وجهودهـم الرائـدة في الاحتفـاء بالشـخصيات والقامـات العربيـة الناهضـة بالـتراث.

عبد العزيز المسلّم يتسلم تكريم الاتحاد العربي للإعلام السياحي

شـهدت قاعـة الدانـة بفنـدق هوليـداي انترناشـيونال في الشـارقة تكريـم سـعادة الدكتـور عبـد العزيـز المسـلم رئيـس معهـد الشـارقة للـتراث بلقـب «رجـل الـتراث العـربي»، وجـاء هـذا التكريـم في أعقـاب اختيـار سـعادته خـلال مراسـم الإعـلان عـن المؤسسـات والأفـراد الفائزيـن بجوائـز الاتحـاد العـربي للإعـلام السـياحي 2023 التـي أقيمـت ضمـن فعاليـات بورصـة برلـين للسـياحة في جمهوريـة ألمانيـا مؤخـراً، والتـي فـازت فيهـا مدينـة خورفـكان بلقـب عاصمـة السـياحة العربيـة للعـام 2023.

وكـرم الدكتـور سـلطان اليحيـائي رئيـس الإتحـاد العـربي للإعـلام السـياحي سـعادة الدكتـور عبـد العزيـز المسـلم مثمنـاً باسـم الاتحـاد مـا قـام بـه مـن أدوار مهمـة لرفعـة شـعأن الـتراث الشـعبي الإماراتي العـربي، وجهـوده اللافتـة في التوثيـق وتعزيـز الحضـور الـتراثي في المجـالات كافـة.

«الشارقة للتراث» يستقبل وفد الاتحاد العربي للسياحة

اسـتقبل سـعادة الدكتـور عبدالعزيـز المسـلم رئيـس معهـد الشـارقة للـتراث، وفـداً مـن أعضـاء لجنـة التقييـم بالاتحـاد العـربي للإعـلام السـياحي برئاسـة الأسـتاذ مصطفـى عبدالمنعـم الأمـين العـام للاتحـاد، وعضويـة كل مـن الدكتـورة لمياء محمـود عضـو مجلـس إدارة الاتحـاد، ورئيـس شـبكة صـوت العـرب السـابق الأسـتاذ خالـد خليـل عضـو مجلـس إدارة الاتحـاد. وخـلال اللقـاء هنـأ أعضـاء لجنـة التقييـم الدكتـور عبدالعزيـز المسـلم عـلى حصولـه جائـزة رجـل الـتراث العـربي للعـام 2023، وكذلـك فـوز مدينـة خورفـكان بلقـب أفضـل مدينـة سـياحية عربيـة للعـام 2023، ضمـن جوائـز الاتحـاد العـربي للإعـلام السـياحي، والمقامـة في فعاليـات بورصـة برلـين للسـياحة، كـما أثنـى الوفـد الزائـر عـلى جهـود المعهـد المبذولـة في سـبيل نجـاح الملفـين.

تضمنـت الزيـارة إجـراء جولـة تفقديـة لأعضـاء الوفـد ترافقهـم الأسـتاذة فاطمـة المرزوقـي مديـرة المكتـب التنفيـذي للمعهـد، حيـث تـم الاطـلاع عـلى إمكانيـات المعهـد ومرافقـه والمراكـز التابعـة لـه، وشـملت الإدارة الأكاديميـة، ومكتبـة المـوروث، وقسـم ترميـم المخطوطـات، ومركـز المنظـمات الدوليـة للـتراث الثقافي، ومركـز الـتراث العـربي، والمعـارض، والأسـتوديو الفنـي.

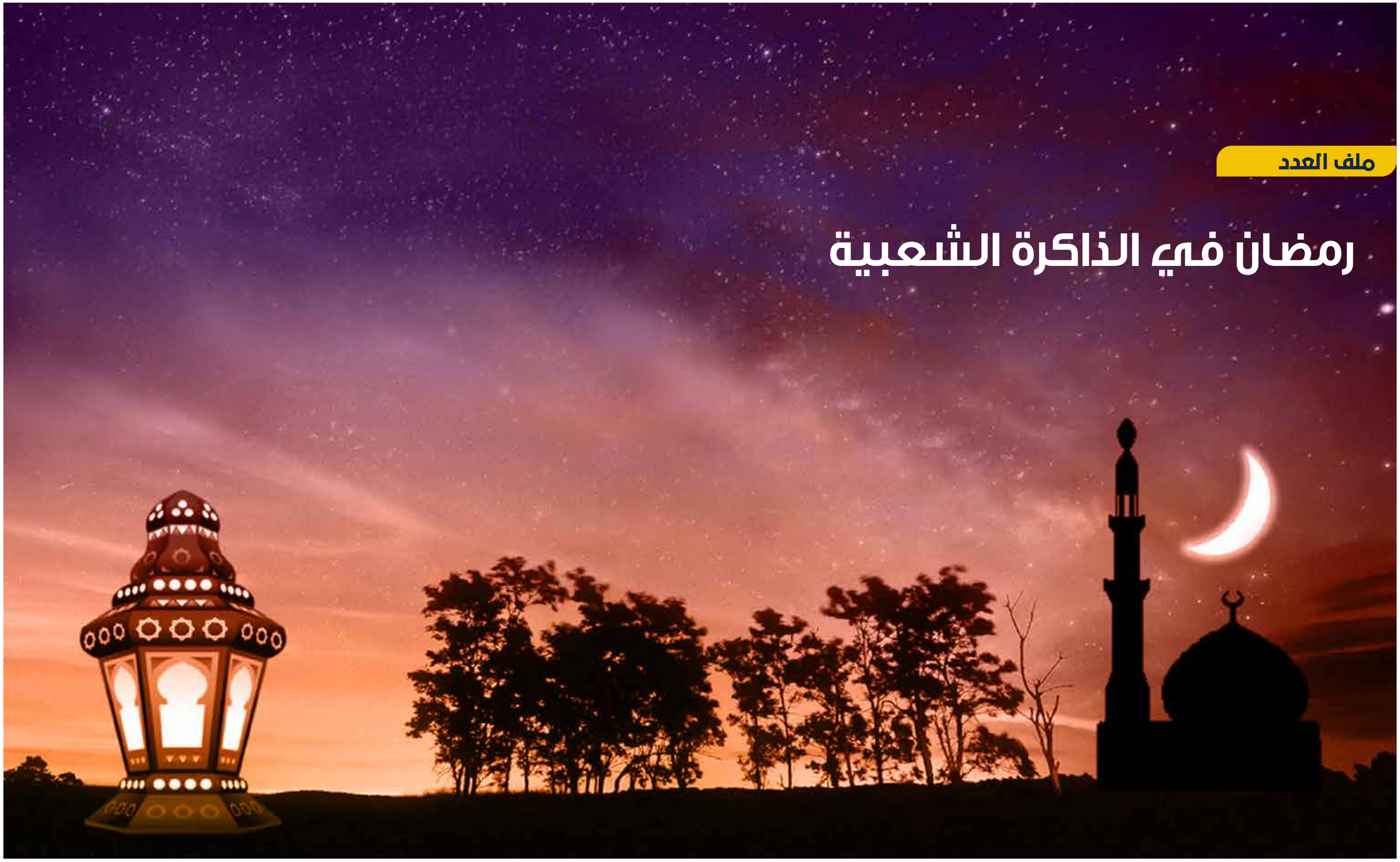

ملف العدد

رمضان في الذاكرة الشعبية

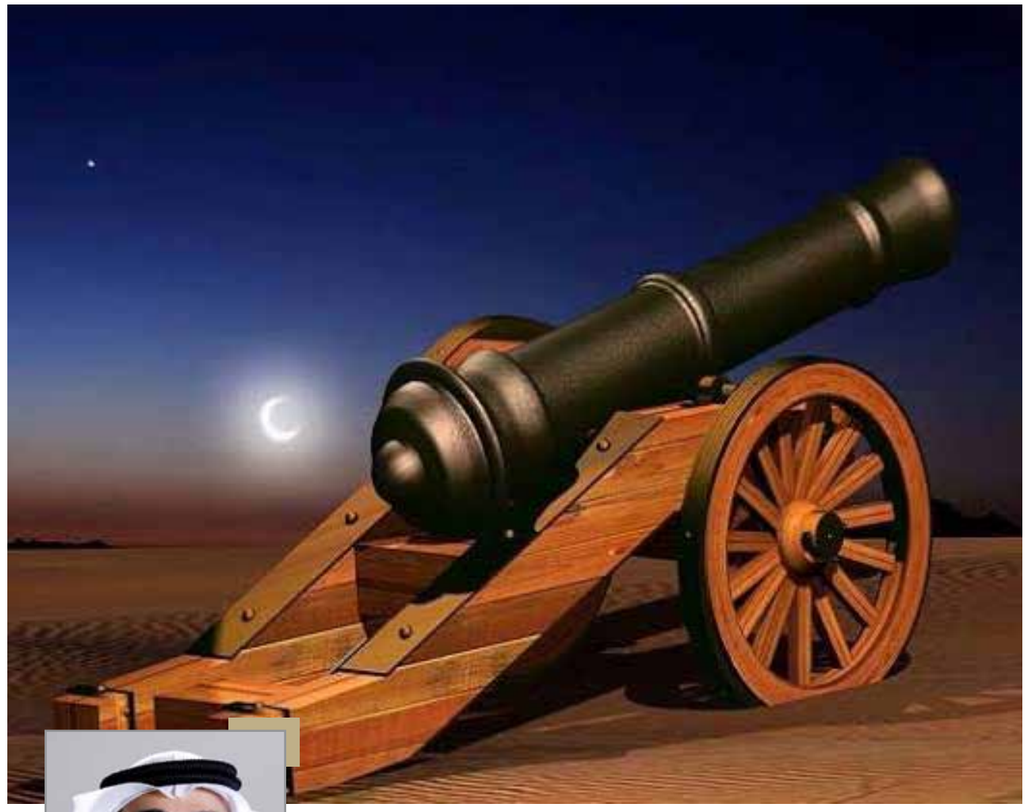

رمضان أول
في الذاكرة الشعبيّة الإماراتيّة

د. عبدالعزيز المسلّم
رئيس معهد الشارقة للتراث

«مبارك عليكم الشهر»...
«اللـه يعـوده علينـا وعليكـم بالخـير والعافيـة وطولـت العمـر»...
«اللـه يعـوده علينا وعليكـم كل سـنة وكل حـول، سـالمين وغانمـين لا فاقديـن ولا مفقوديـن»...
هـذه العبـارات التـي يتداولهـا أهـل الإمـارات في شـهر رمضـان الفضيـل، شـهر الطاعـة والمغفـرة والـكلام الطيّـب، شـهر النفحـات الإيمانيـة الطيبـة، شـهر الأنـس والطمأنينـة والصحـة، شـهر الخـير كل الخـير، شـهر الدعـاء والاستغفار،شـهر قيـام الليـل والقنـوت، شـهر لا يضاهيـه شـهر آخـر عنـد المسـلمين.. فيـه أُنـزل القـرآن، وفيـه ليلـة خـير مـن ألـف شـهر، هـي ليلـة القـدر، هـذه الليلـة التـي تكـون حديـث النـاس وشـغلهم الشـاغل منـذ شـهر شـعبان، فالـكل يسـتعد للظفـر برؤيتها،والفـوز ببركاتهـا. عـن ليلـة القـدر في الذاكـرة الشـعبية مئـات القصـص والحكايـات التـي تصـوّر شـكل هـذه الليلـة، والكرامـات التـي ينالهـا مـن يفـوز برؤيتهـا، كتلـك التـي فـازت بطـول العمـر، وذاك الـذي حـاز بركـة شـفاء النـاس، وذاك الـذي رزق المـال الوفير،وغيرهـم الكثـير..
غـير أن السـمة البـارزة لشـهر رمضـان في الإمـارات قديمـاً كانـت تميـل إلى البسـاطة أكـثر، وإلى عـدم التكلـف، خلافـاً لما نـراه اليـوم من مظاهـر البهرجـة والزخـرف واللهـو، ففـي المـاضي كان رمضـان شـهر عبـادة وروحانيـة أكـثر منـه شـهر تسـلية ولهـو!
ورمضـان الأمـس كان يتصـف بصفـات مميـزة مـن بدايتـه إلى نهايتـه، فبـشراه رؤيـة الهـلال، وطلقـات المدافـع والأعـيرة الناريـة، تليهـا مسـيرات العبـادة والفـرح، بـدءاً مـن ألعـاب الأطفـال الشـعبية، وانتهـاء بصلـوات قيـام الليـل وقـراءة القـرآن الكريـم، ومحـاولات ختمـه مـراراً وتكـراراً.

الأطفال في رمضان

للأطفـال جوّهـم الخـاص في رمضـان، فهـو الشـهر الوحيـد في أشـهر السـنة القمريـة الـذي يُسـمح فيـه لهـم بالخـروج مـن البيـت واللعـب بعـد صـلاة المغـرب؛ فالشـياطين مكبلـة، والـكل في سـكينة ودعـة، ولرمضـان ألعابـه الخاصـة.

1- لعبة اعظيم سرى:

أو كـما تسـمى عنـد البعـض (اعظيـم لـوّاح)، وهـي لعبـة رياضيـة جميلـة، تعتمـد عـلى عظـم يابـس لشـاة أو عجـل، ومسـمى اللعبـة تصغـير لكلمـة عظـم، فقيـل عُظيـم، ينقسـم اللاعبـون إلى فريقـين، ثـم يرمـى العظـم إلى بعيـد في الظـلام، ويزعـق الرامـي «اعظيـم سرى.. حـد درى.. وحـد مـا درى..». ويتسـابق الأطفـال باحثـين عـن العظـم، ومـن يجـده يرميـه إلى زميلـه في الفريـق نفسـه، محاولـين إبعـاده عـن الفريـق الخصـم وهكـذا.

2- لعبة المدفع:

وهي مستلهمة من مدفع رمضان، حيث يقوم الأطفال بتصنيع المدفع بأيديهم، بدءاً من صنع العربة الخشبية ذات العجلات، ثم يصنعون فوهة المدفع، وهي عبارة عن ماسورة مياه، يثقبونها من الثلث الأخير لوضع الفتيل،ويدهنونها بألوان، حسب رغباتهم.

ومنهم من يبحث عن مفتاح قديم ذي فتحة من الأمام، فيملؤه بالبارود، ويضع فيه مسماراً، ويضربه في الجدار أو بحجر،فيحدث دوياً كأنه مدفع.

3- لعبة عمبر:

وتلفظ أحياناً (عنبر)، وتعتمد على كرة صغيرة ككرة التنس الأرضي، وعلب صغيرة بحجم قبضة اليد فارغة، عددها ست علب، وقد تزيد أو تنقص، ترصّ العلب فوق بعضها، بعد أن ينقسم اللاعبون إلى فريقين بالقرعة، يحاول أحد أعضاء الفريق المختار أن يوقع العلب من مسافة بعيدة بالكرة، فإذا وقعت زعق بأعلى صوته (عمباااااار)، فيهرب الفريق الآخر، ويلحق هو وفريقه بهم، عن طريق رمي الكرة من لاعب لآخر، فإذا ظفروا بلاعب من الخصم ضربوه بالكرة، وقالوا مات (أي خسر)، والآخرون من الفريق الخصم يحاولون صف العلب فوق بعضها، فإذا أتموا ذلك،فازوا، وإذا (ماتوا) جميعاً، أعيدت لهم اللعبة من البداية،حتى يتصالحوا من الألم والإجهاد.

4- لعبة يوريد:

بطريقة الاقتراع بالعدّ يقع الاختيار على أحد الأولاد ليكون الصياد الذي يقف في مكان يسمى «الهول» – وهو عبارة عن دائرة مرسومة في الرمل – ويهرب المتبقون، فيصيح هو بهم «يوريد»، ويردون عليه «بعدنا»، ويكررها إلى أن يردوا عليه برد آخر هو «لحقنا»، فينطلق وراءهم، ومن يمسك به يحل محله،وتعاد الكرة مرة أخرى بالصياد الجديد، أما الذي يفلت فإنه يقفز في دائرة الرمل، ويزعق «يووووويد»، وقد تسمى هذه اللعبة عند البعض «صايح».

5- لعبة الهول:

تحتاج هذه اللعبة إلى فريقين يلعبان في موقع معين، تحده حواجز من الطرفين كالجدران مثلاً،ويلزم كل فريق جانباً، ويتنافس كل فريق في اختراق الفريق الآخر، ولمس حائطه، فإذا لمسه صاح بأعلى صوته «هووووول»، وكأنه يقول: «هدف»، وهكذا كل فريق يذب عن حماه.

6- لعبة لمسلسل:

اشتقّت هذه التسمية من السلسلة،وهي تعني المقيد، وهم يقومون بتقييد أحد اللاعبين بحبل أو غترة قديمة، أو قد يترك دون تقييد، ويتحلق حوله اللاعبون متراصين، كأنهم بنيان مرصوص، ليشكلوا حدوداً منيعة، فيحاول هو اختراق هذه الحدود للخروج من الدائرة، فيُصد بكل قوة من الأولاد وهم يهتفون بنظم إنشادي جميل:

تراثيات رمضان

في الذاكرة الشعبيّة الإماراتيّة

فهد علي المعمري
باحث - الإمارات

إذا بدأنا الحديث عن شهر رمضان المبارك، فإنّنا نتحدّث عن ضيف زائر لا يشبهه ضيفٌ في مثل زيارته، وليس في مثل تقديسه وإجلاله، إن ذلك الزائر الذي يزورنا في كل عام مرة واحدة، ولكنها تستمر شهراً كاملاً، هو الزائر العزيز على القلوب ينتظره الصغير قبل الكبير، ومن أجل ذلك الحب والإجلال له أخذ له مكاناً في تراث مجتمع الإمارات، وأصبح شهر رمضان المبارك من التراثيّات الإماراتية التي تتمثّل في العادات والتقاليد والطقوس والسنع والألعاب الشعبية والأزياء والملابس، كل هذه التراثيّات أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تراث شهر رمضان في مجتمع الإمارات.

نبدأ أولاً بالشوّاف، ونتساءل من الشوّاف؟ هو ذلك الرجل الذي يمتلك الرؤية البصريّة الحادّة، التي تميّزه عن غيره، بأنه يستطيع رؤية الأماكن البعيدة أو الصغير جداً، وهذا الشّاف يُرتمَز عليه في رؤية هلال شهر رمضان المبارك، وما أن يراه ذلك الشوّاف، فإنه يخبر أصحاب الاختصاص بأنه رأى هلال شهر رمضان، وعلى إثر ذلك تبدأ عمليّة إخبار الناس بأنه تمت رؤية الهلال، وأن يوم غدٍ هو غرة رمضان المبارك، ويتم ذلك عبر إطلاق صوت المدفع، وكذلك عبر إشعال النار من منطقة عالية الارتفاع كالجبال الشاهقة ليرى هذه النار سكان تلك المنطقة وما جاورها.

بعد إعلان شهر رمضان المبارك، يبدأ الجميع كباراً وصغاراً، ذكوراً وإناثاً، باستقبال طقوس وأجواء رمضان، في لهفة من الجميع للتعبّد وصلة الأرحام، والإكثار من عمليّة التواصل الإنساني بين الأهل والأقارب والجيران والجميع خلال الشهر الفضيل. وهذه اللفة تبدأ قبل شهر رمضان، فمنذ بداية شهر شعبان، والذي يطلق عليه القصير؛ لأنه شهر يمر بسرعة كبيرة، وتنقضي أيامه كأنها قصرت عن الثلاثين يوماً، وذلك لتعلق الجميع بشهر رمضان، وأنه لم يبقَ له سوى شهر شعبان الذي يمر عليهم بسرعة البرق، ولذا أطلقوا عليه القصير.

وإذا ما أدلفنا الحديث عن العادات الدينيّة في ذلك الشهر الفضيل، فكان الناس فيما مضى ولا يزالون يولون هذا الاحترام الكبير مثل النوافل والسنن وصلة الأرحام، ومن هذه العبادات صلاة التراويح التي تُشعر المصلين بشهر رمضان، ولصلاة التراويح عادات وطقوس يؤديها أفراد المجتمع، مثل تعطير المسجد بالعود، حيث لا يخلو مسجد من المساجد إلّا وفيه مدخن أو أكثر من قبل صلاة العشاء وحتى انقضاء صلاة التراويح، أما قبل صلاة المغرب فمن العادات التي أصبحت تراثاً في شهر رمضان، هو إرسال الطعام من كل البيوت القريبة من المسجد، ووضعها في مائدة كبيرة في فناء المسجد؛ ليأكل منها المساكين والفقراء وعابري السبيل، أمّا في بقية أوقات النهار فيتم في تلك المساجد قراءة القرآن الكريم، واجتهاد البعض ختم القرآن مرة أو أكثر خلال هذا الشهر الفضيل.

أمّا الحديث عن مطبخ رمضان، فهو حديث مملوء بعبق التراث، ذلك أن الأطعمة في شهر رمضان تختلف عن بقية أيام السنة، ومن بين التحضيرات التي تقوم بها النسوة قبل شهر رمضان طحن حب الهريس، حيث يتم الطحن مع بداية دخول شهر شعبان، وذلك استعداداً لصنع الأطباق الإماراتيّة المفضّلة، بالإضافة إلى شراء المؤن، فهناك المأكولات الشعبية مثل الأرز والثريد والهريس والعرسيّة والمضروبة والمرق، بجانب الحلويات مثل الفرني والساقوا والخبيص، ثم فيما بعد منذ بداية السبعينيات المشروبات الباردة، وتعرف محلياً بـ«الشربت» مثل شربت الفيمتو، وكل بيت يقوم بإرسال وجباته التي قام بطبخها إلى منازل الجيران، ويستقبل منهم وجباتهم، وهذه الممارسة، وإن هي تتم في كل

أيـام السـنة وبشـكل مغايـر، إلّا أنهـا في رمضـان أصبحـت مـن العـادات والتقاليـد المقدّسـة التـي لا يتنـازل عنهـا أي بيـت، وتـرى السـكك قديمـاً، وهـي الممـرات التـي بين البيـوت مزدحمة بالأطفـال الغـار، وهـم يحملـون تلـك الصحـون المختلفـة بأنـوع الطعـام إلى منـازل الجـيران.

كـما كان عـالم الطفولـة هـو الآخـر يسـير في رحـاب رمضان، بمـا هـو متـاح ومتـوارث مـن الألعـاب، في جـوّ مفعـم باللعـب، حيـث كانـت ألعـاب الأطفـال حـاضرة بعـد صـلاة العشـاء والتراويـح، وهنـاك ألعـاب الأولاد الخاصـة بهـم، وهنـاك ألعـاب البنـات الخاصـة بهـم، وهـذه الألعـاب اليـوم تعـد مـن الموروثـات الشـعبيّة، وتعـرف بالألعـاب الشـعبيّة، مثـل لعبـة التبّـة والطـرّة وقبّـة ومسـطاع والهـول وعظيـم لـوّاح، أمّـا ألعـاب البنـات فمثـل خوصـة بوصـة والمريحانـة.

أما بعـد منتصـف الليـل، فلـم نعـد نسـمع اليـوم عنـد وقـت السـحور ذلـك الرجـل حامـل الطبلـة الـذي ينشـد قصائـد تحفّـز النـاس عـلى النهـوض لتنـاول السـحور، وبعدهـا أداء صـلاة الفجـر، وسـط أصـوات المؤذنـين التـي تعلـو المسـاجد، ولم تعـد عـادات تنـاول السـحور كـما كانـت، لاسـيما مـع تنـوع أصنـاف المأكـولات والأطعمـة، بعـد أن كان السـحور في المـاضي مقتـصراً عـلى اللـبن والتمـر، وربمـا هنـاك مـن يخلـط خبـز الرقـاق باللـبن أو الأرز باللـبن مـع قليـل مـن المـاء والتمـر كذلـك.

ولكـن يبقـى وقـت الليـل بعـد صـلاة العشـاء والتراويـح هـو الوقـت الأكـثر حبـاً في شـهر رمضـان، لاسـيما إذا تكلمنـا عـن بدايـة العقـد السـابع مـن القـرن العشريـن، حيـث أصبحـت الألعـاب هـي غـير تلـك الألعـاب القديمـة الشـعبيّة، وحـل محلهـا الألعـاب الجماعيّـة الأخـرى، مثـل كـرة الطائـرة وكـرة القـدم والتـي تبـدأ بعـد منتصـف الليـل، كـما أن السـهر أصبـح عـادة في شـهر رمضـان منـذ ذلـك الوقـت الـذي ذكرنـاه قبـل قليـل، حيـث أصبـح السـواد الأعظـم يحـرص عـلى البقـاء مسـتيقظاً إلى أذان الفجـر ليصـلّي ثـم ينـام بعـد ذلـك.

وقبـل أن تختـم الحديـث عـن العـادات والتقاليـد والطقـوس التـي تكـون حـاضرة في شـهر رمضـان المبـارك، هـو الاسـتعداد ليـوم الفرحـة الكـبرى، هـو فرحـة يـوم العيـد، وذلـك واقـعٌ في شـهر رمضـان، حيـث إن الاسـتعداد لـه يكـون في رمضـان، فقديمـاً لم تكـن الحيـاة الاجتماعيـة بهـذه الرفاهيـة، فكانـت الملابـس الرجاليـة قليلـة، ويصعـب عـلى الجميـع شـراء عـدد مـن الملابـس التـي نسـميها الكنادير، ولكـن ليـوم العيـد خصوصيتـه وأهميتـه؛ لـذا لابـد مـن الملابـس الجديـدة، وعليـه يتـم عمليـة تلويـن الكندورة القديمـة مـن البيـاض إلى لـون آخـر، وأكـثر مـا يكـون هـو لـون الـورس وهـو اللـون الأصفـر القريـب مـن البرتقـالي، وأمـا زينـة المـرأة والبنـات الصغـار فهـي الحنّـاء، أمّـا مـع بدايـة السـبعينيات فبـدأت مرحلـة أخـرى مـن التجهيـزات، وهـي خياطـة الكنادير الجديـدة، وشراء الأحذيـة الجديـدة، وكانـت هـذه المشـتريات تمثـل فرحـة كبـيرة، ولا توصـف لـدى الأولاد الصغـار، حيـث يكونـون في لهفـة وشـوق دائـم، والنظـر إلى تلـك الكنادير، وإلى ذلـك الحـذاء ليلبسـوا الجديـد، ويسـتمتعوا بـه.

رمضان في الإمارات

ذاكرة محمّلة بالعبادات والعادات

فاطمة سلطان المزروعي
رئيس قسم الأرشيف الوطني

يرتبط شهر رمضان الفضيل بكثير من العادات والتقاليد التي يمارسها المسلمون على اختلاف ثقافاتهم، والاحتفاء به، فقد كانت الاستعدادات لرمضان تبدأ قبل دخول شهر شعبان، تقوم الأسر الإماراتية بشراء (المير)، وهي المواد التموينية اللازمة لوجبات الإفطار والسحور، وكانت متوافرة في تلك الفترة في أسواق دبي والبريمي وصار والباطنة، وكان يستغرق الوصول إليها طويلاً، قد يتجاوز اليومين إلى أسبوع أو أكثر.

ويتم في هذه الرحلات شراء الملابس والأطعمة الجافة، مثل الطحين والأرز والملح والقهوة، وبيع التمور والجلود المدبوغة والمخاريف والحابول وغيرها، أما البدو فيأخذون السدو والجلود المدبوغة وغيرها من المعدات الخاصة بالعناية بالجمال والحيوانات وأنواع السروج والشداد، وكان الارتحال والسفر إلى هذه الأسواق من الممارسات التي يقوم بها الرجال دون النساء، وكان من لا يرغب أو لا يستطيع السفر أو عدم توافر وسيلة انتقال أو لأي سبب من الأسباب، يقوم بتكليف بعض الرجال المسافرين شراء مستلزماته، ولا يحتاج إلى شهود أو عقود، كما أن المكلف الشراء لا يتقاضى أي أتعاب لعمله.

لقد اعتاد رجال القبيلة الاجتماع معاً لتناول وجبات الإفطار، وأحياناً السحور فكانوا يجتمعون عند مسجد القرية، يتوسطهم شيخ القبيلة، وكل أسرة كانت تسهم في هذه المائدة بطبق، فتنوع الأطعمة مثل الهريس والأرز واللحم والثريد والدجاج، وهناك خبز الرقاق والبلاليط واللقيمات والقهوة، ويبدأ تناول الإفطار ببعض التمرات واللبن والقهوة بعد رفع الأذان، ثم يؤدي الجميع الصلاة بإمامة المطوع، وبعد ذلك يعودون لاستكمال إفطارهم على المائدة التي يترأسها شيخ القبيلة، وعلى يمينها المطوع وكبار القوم، بينما يجلس الصغار في طرف المجلس، ويتم تكليف الصغار ممن هم فوق عشر سنوات بصب القهوة على الجميع.

وخلال الجلسات تتنوع الأنشطة المجتمعية، وتمتد الأحاديث بشأن الحياة والمشكلات العائلية والخلافات، مثل مشكلات الزراعة والري والسفر إلى الهند وحكايات البحر والقصص التي كان البعض يحكيها عن سفراته.

أما النساء في رمضان، فقد كنّ يعانين التعب والمشقة والمسؤوليات، وتتنوع بين الاهتمام بالأطفال والمنزل ورعاية الزوج، وتفقد العائلة والزيارات الاجتماعية ورعاية الحيوانات وحلبها وتنظيفها، والقيام بأعمال الحياكة والسدو، كذلك القيام بمهام إعداد الطعام وتجهيزات الفطور والسحور وغيرها، فالنساء كن يطبخن الهريس والثريد والبلاليط واللقيمات والخبز المدقوق والخبيص والثريد والمدقوق والبثيثة وغيرها من الأطعمة الشعبية التي كانت تسد رمقهم، وتقوي عظامهم، حتى يستطيعوا القيام بأعمالهم اليومية.

كان الأطفال يحظون بكثير من التشجيع لصيام رمضان، وبالأخص الصوم لأول مرة، فيحضرونه لتناول الإفطار معهم، والإشادة به وبإنجازاته، وكان الأطفال يتسابقون على الصيام، وتحمل الجوع والعطش والحرارة الشديدة في رمضان، ليتمكنوا من صوم الأيام، والحصول على التكريم المشرّف، حيث يقوم الرجال في المجلس

بالتحدث إلى الطفل والافتخار بصيامه، وحثه على أداء واجباته الدينية، كما يتم منحه كوباً من اللبن، وحبة رطب عند أول صيام له، يكمله لكي يكون أول من يفطر من الرجال عند الأذان إكراماً له، وهذا ما يترك الأثر الجميل على النفس طوال الحياة، ويحرص الرجال على اصطحاب أبنائهم إلى المجلس لتناول الإفطار، وتدريبهم عملياً على العادات والتقاليد العربية الأصيلة في الضيافة وطرق التعامل مع الضيوف، وصب القهوة، كما يحتك الطفل بكبار السن، ويتعلم منهم الكثير، حتى يساعده ذلك على تحمل اختبارات الحياة والصبر، فكان رمضان فرصة لتعليم الأطفال العادات والتقاليد، كما الألعاب الشعبية حاضرة لدى الأطفال في رمضان، وخاصة بعد صلاة التراويح، ومن أهمها «الهول»، وينقسم الأطفال إلى فريقين، ويقوم كل فريق بثبيت راية وسط الملعب، ويحاول كل فريق حماية رايته، فإذا ما لمسها أحد أعضاء الفريق الآخر يحقق الفوز المنشود، وكذلك يلعبون لعبة «عظيم لواح»، التي تعتمد على عظمة تربط من وسطها بحبل

طويل، ويلوح بها اللاعب، ويقذفها إلى أعلى ويتراكض اللاعبون للإمساك بها مرددين «عظيم لواح» وغيرها من الألعاب.

كما أن هناك آداباً معينة على المائدة في رمضان، فعندما يؤذن المؤذن للصلاة، يسمح فقط للصبية الصغار بشرب قليل من الماء، ولكن الجميع ينتظرون الشيخ أن يكون أول المفطرين، وبذلك يسمح للبقية أن تفطر بشرب اللبن والقهوة، وقليل من الرطب، وعندما يقوم الشيخ للصلاة، يقوم الجميع لذلك، فيصطفون لتأدية الصلاة خلفه أو خلف الإمام الذي يقدمه الشيخ، ثم يعود الجميع لمائدة الإفطار لاستكمال إفطارهم، ويتبادلون التهاني والتبريكات بحلول الشهر والدعوات الصالحات، ثم ينصرفون إلى أسرهم، وعند صلاة العشاء يتجمعون مرة أخرى، حيث تجلب القهوة العربية من كل بيت والرطب وبعض الحلويات مثل العصيدة والبثيثة وغيرها.

يقوم الناس بإحياء ليالي رمضان في المساجد، فكان المطوع يتلو القرآن الكريم، ويقرأ في السنة النبوية المطهرة والأحاديث الشريفة وسير الصحابة والتابعين، وقصص الزير سالم وعنترة بن شداد وغيرها.

وتعدّ ليلة النصف من رمضان من الليالي الحزينة في التراث المحلي، فهي أذان بانتصاف الشهر وقرب انقضائه، فيحييها الناس بكثير من الحزن على فراق الشهر الفضيل، وذلك بالتزاور وصلة الأرحام والأذكار والتهجد، كما كان المسحراتي يتجول في الطرقات ويدق بطبله، وهو يردد بصوت مسموع:

اصحَ يا نايم

واذكر ربك الدايم

المسحر هو أحد مظاهر شهر رمضان في الإمارات قبل التطور الذي شهده المجتمع، حيث كان شريكاً رئيساً في مجالس أيام أول، سواء على مستوى الحضور الشخصي أو على مستوى تزامن عمله مع فترة إحياء تلك المجالس التي كانت تمتد أحياناً إلى فترة السحور، وكانوا يرددون المدائح النبوية والأناشيد الخاصة بفترة السحور، لقد كان المسحراتي من أهم طقوس رمضان، وتفاصيله الجميلة المتبقية في الذكرى، فقد كان يضرب على طبلته ليصل إلى أوسع مجال في الفريج، وقد تغير الحال وازداد حجم المدن، وغابت مهنته في زحمة الحياة، بعد قدوم الساعات والهواتف المتنقلة وغيرها.

وتكثر القصص والحكايات والذكريات، فقد كانت المجالس الإماراتية في رمضان مفتوحة الأبواب، وتبقى مشرعة حتى طلوع الفجر، وتبقى مكاناً يتناول الحضور فيه الأحاديث، وتقدم لهم القهوة ا لعربية والهريس وغيرها من الأطباق.

هذه روحانية رمضان في المجالس التي تجدد أواصر التعاون والتآلف، وكأنها تعيد روح المجالس العربية القديمة.

تعدّ أيام رمضان فرصة لمراجعة النفس ومحاولة تجنب الأخطاء، وبوساطته نعيد ضبط ساعتنا الحياتية التي تشمل صلة الرحم والتواصل مع الناس بالرفق والمودة وأيضاً في منح كل محتاج بقدر الاستطاعة، بحق فإن رمضان ليس شهر عبادة وأداء مناسك تعبدية، وإنما هو شهر يعيد للإنسان توازنه، ويكشف له ما مضى، وكأنه يرشده للطريق الصواب. فليكن شهر رمضان فرصة فعلاً لنتغير إيجابياً في كل الجوانب الحياتية، في طعامنا واهتماماتنا وزياراتنا وعلاقاتنا الإنسانية، ليكن رمضان فرصة لننهل من القراءة من سيرة رسولنا الحبيب وصحابته الأخيار.

طقوس شهر رمضان

من الذاكرة.. ما بين لمّة وعبادة

مريم سلطان المزروعي
كاتبة - الإمارات

إن العادات والتقاليد الإماراتية نابعة من أصالة أبناء دولة الإمارات وتعاونهم وتآلفهم، وهذه العادات نجدها في كثير من العلاقات الاجتماعية، فتناقلتها الأجيال من جيل إلى آخر، متشابهة ومتنوّعة في جميع أنحاء الدولة، مع اختلافات بسيطة، لكن المنبع يبقى واحداً، وتبقى العادات والتقاليد والآداب محتفظة برونقها وجمالها.

عندما يحل شهر رمضان الفضيل علينا كل سنة، تكون له نكهة خاصة، فهو ينبض بالحياة بأيامه التي تتقارب إلى الثلاثين يوماً أو تقل بيوم واحد، تضح فيه الحركة، وتنبض بالحياة، وتفرش السجاد، وتتبدل الزوالي (مفردها زُولِيَّة وتعني السجاد، الحصير وما يُفرَش على الأرض)، ويغسل البيت وينظف، وتؤخذ أغراض المطبخ؛ من أوانٍ وأكواب، وتتزين البيوت بزينة شهر رمضان من الفوانيس الدافئة، يتفاعل معها الأطفال والكبار، شهر رمضان الفضيل له طقوس خاصة، فأبوابه تفتح للجميع إلى ما بعد تناول السحور، إلّا أن هذه العادة قد قلّت كثيراً في الوقت الحالي عن الماضي، فالمجالس تتبارك بكثرة الحضور وترابطهم، وتآلفهم، والخيام الرمضانية تنصب لعابري السبيل والزوّار من أجل تناول وجبة الفطور وقراءة القرآن الكريم، ويرحب بقدوم شهر رمضان بتباشير:

مرحبا مرحبا يا رمضان شهر الدين والغفران
من صامه بلا نيّه صيامه يندري سية
ومن صامه ولا صلى طاح النار يتقلى

التقيت الوالد سلطان سعيد المزروعي من مدينة أبوظبي، الذي ما أن فتحت معه ذكريات الماضي حتى أخذت الذكريات تمر أمام عينيه، فأصبح يسردها بشوق ولهفة، فشعرت بما يشعر به، يقول: «الحياة قديماً كانت مختلفة، الجار يشعر بجاره، لا يأكل لقمة ولا يضعها في فمه قبل فم جاره، والمناسبات الدينية لها قدسية خاصة، وطقوس معيّنة، نشعر بروحانية شهر رمضان الكريم، وذكر الله، ففي مدينة أبوظبي كان يقام المالد، وأذكر عند قبيلة الخوري منهم أحمد درويش خوري، وكذلك بعض الأسر من قبيلة الرميثات والقبيسات، وكان المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، من أكثر الناس حباً لذكر الله وذكر النبي محمد، عليه الصلاة والسلام، كان للنساء البدويات قديماً دور كبير ومتعدد، فهي تقوم بواجباتها وأعمالها ومسؤولياتها، تستيقظ في الصباح الباكر، وتخم؛ أي تنظف المنزل، وتجلب الماء، وتخيط ملابس زوجها وأبنائها، وقبل صلاة المغرب بفترة تبدأ بإعداد الطعام من خبز رقاق، والودام (الوجبة الرئيسة سواء لحم أو دجاج أو سمك)، وتجهز الجامي، وكنا نشرب المرقة، لم نكن نعرف ما الشوربة، وأعمالها لا تقف هنا، بل تقوم بجمع الحطب، ورعي البوش (الإبل)، وحلب الغنم، وإعداد القهوة، كما كنَّ يستعنّ بجاراتهنّ في كل شيء، وعلى الرغم من كل ذلك فهي تكون صائمة لا تتذمر ولا تشتكي، والرجال يكدون ويسعون بحثاً عن الرزق، لكنهم يجتمعون قبل أذان المغرب بدقائق، وكنا كل يوم نجتمع عند واحد منا، وبعدها نتسامر ونشرب القهوة، والأطفال منذ صغرهم نبدأ بتعليمهم على الصيام بالتدريج، حتى يتعودوا صيام شهر رمضان الفضيل، ووقت السحور لابد أن نشرب حليب

الإبل، لما له من فوائد كثيرة، فهو يمد جسم الإنسان بالطاقة طوال اليوم، ويقلل من العطش». اللقاءات كثيرة، والحوارات جميلة، والحديث مع كبار المواطنين له نكهة خاصة، لا يشعر بها إلا الذي افتقدها، جدتي شمسة بنت حميد المزروعي، طيّب الله ثراها، كانت كثيراً ما تحدثني عن العديد من القصص والحكايات التي كان لها التأثير الكبير في حياتي، ومن بين الذكريات حكايات شهر رمضان الكريم، تقول: «كنا لا نمتلك الكثير من المعيشة والمؤن، كيس أو كيسين من الأرز أو الذرة أو الدخن، نصنع الخبز منه، ونفطر مع الجيران، ونتشارك في كل شيء، جميعاً نتعاون في إعداد وجبة الإفطار، وكنا نذبح الذبيحة، وتقسّم إلى أجزاء، وتتوزع على الكل بالتساوي، كما كنا لا نرمي العظام، بل نصنع منها المرقة التي فيها كثير من الفوائد، منها أنها تقوي عظامنا، وتروي عروقنا بعد صيام طويل، خاصة في فترات الصيف والشمس الحارقة التي كانت تسلخ أجسامنا وتحرقها من شدتها، فكنا نبلل ملابسنا حتى نخفف من شدة الحرارة، ولكن هذا كان لا يمنعنا من مواصلة الصيام، شهر رمضان شهر الرحمة والكرم والتعاطف، كما أن رمضان كان بالشوف، والعيد بالحساب». ويذكر السيد حويرب المنهالي في أحد لقاءاته: «إن شهر رمضان من الأشهر التي لها قدسية خاصة، فقد كنا نتبع الهلال حتى نتيقن من وجوده، وإذا رأى أحدنا الهلال أطلق طلقات عدة في الهواء (ينقعون بالتفق) حتى نسمع الصوت، لكن المشكلة إذا كانت هناك ظروف جوية، زادت من صعوبة رؤية الهلال مثل تأثيرات الجو في السماء، سواء ملبدة بالغيوم أو الرطوبة، وبهذا أُعلن بداية شهر رمضان الكريم، النساء كنا يقمن بإعداد طعام الإفطار، ونحن نقوم بأعمالنا الخاصة، من رعي واهتمام بالهوش والبوش (الأغنام والإبل)، فقد كان حليب الإبل ولحومها من أهم المواد الغذائية التي توضع على مائدة الفطور في رمضان، وهما عنصران مهمان وأساسيان، فنحن نفطر بحليب الإبل مع التمر، لما له من فائدة كبيرة للصائم، وهذه تعتبر وجبة أساسية لدى البدوي، وبعدها نصلي صلاة المغرب، ونرجع نكمل إفطارنا، وبعدها ننصرف إلى صلاة التراويح، كما كنا نجتمع في مجلس واحد، ويكون ملتقى اجتماعياً غير عادي، تجمعه أجواء الصحبة والصداقة، وكذلك النساء، فالتعاون والتكاتف موجود إلى اليوم، لكن الاختلاف أصبح هناك تنوع في المأكولات والمشروبات، فأصبحنا لا نعرف ماذا نريد أن نأكل من كثرة الأصناف واختلاف ألوانها، لكن حليب الإبل هو الأساس والأطباق الشعبية، وتجمُّع الأهل سر جمال ورونق رمضان الإمارات». وقد ذكر شهر رمضان في العديد من المواضع في الشعر، وتغنّى به الشعراء، يقول صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي:

أهدي سلامي لكل صايم مبروك شهر هل شريف
لو كان حظ السعد لايم لكانت الدنيا على الكيف

ويقول سالم الجمري في قصيدة «صافي النحر»:

يشبه على البان عوده ميّال بين الشجر
بالطيب تنفح ردونه من فايجات العطر
لو كان يسم بوصله باصوملله شهر

تمظهر العادات الرمضانية وتحولاتها

د. فهد حسين
أكاديمي وناقد - البحرين

لم تُخلق الشعوب ومعها عاداتها وتقاليدها، بل تكونت هذه العادات وتمظهرت وانتشرت، وأصبحت عادة يمارسها أفراد المجتمع، من خلال شخص واحد أو عدد من الأفراد، وقيامهم بفعل ما، أو موقف ما، أو قول ما؛ لذلك ما وصلنا لنا عبر تعاقب الأجيال، وتداخل ثقافاتهم وتواصل المجتمعات بعضها بعضاً، باتت عاداتنا وتقاليدنا التي نتمسك بها الآن، ونحاول غرسها في أذهان أبنائنا وأحفادنا، لتكون ممارسة من جهة، وفي الذاكرة الجمعية من جهة أخرى.

وقد وعى المجتمع إلى تلك العادات التي اكتسبها، وإلى الأعراف التي كانت تستند إلى بعض القوانين والمراسيم الاجتماعية عبر الزمن، كل هذا جعل المجتمعات الإنسانية تحول إرثاً كبيراً متنوعاً، بين ما هو قول شفاهي، وما هو نص مكتوب، وما هو ممارسة يومية، وآخر ممارسة مناسباتية، هكذا حاول ولايزال هذا المجتمع أو ذاك في غرس العديد من المبادئ والقيم والمثل التي تمثلتها عاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا.

ومع كثرة الأعراف في المجتمع، وضخامة العادات التي تمارس بين أفراد المجتمع، فإننا نؤمن بأحقية المجتمعات في أخذ ما يناسبها ويمثلها من هذا المخزون الإنساني، من هنا فإن عاداتنا التي نمارسها في بلد ما قد تختلف ممارستها أو ربما عدم وجودها في بلد آخر، لما للمجتمعات من ملامح وخصائص وتطلعات تختلف فيما بينها حضوراً أو استقبالاً أو تفاعلاً أو ترجمة على أرض الواقع؛ لذلك لا استغراب إن تباينت العادات أو توافقت في وجودها أو ممارستها. وكما هناك تباين في عادات المجتمعات العربية تحديداً في طقوس الزواج أو الختان أو ختم القرآن أو الفطام، أو في طبيعة ليالي الأفراح وأيام الأتراح، هناك تباين في طقوس وعادات تعلو درجتها في شهر رمضان.

مع وجود كثير من العادات والتقاليد التي يمارسها معظم الشعوب العربية والإسلامية، هناك عادات تنفرد بها دولة عن الأخرى، بل مكان عن مكان آخر في البلد الواحد، وهذا أمر طبيعي يحرص بشكل غير إرادي، لما يتصف به من فطرية الممارسة لدى الإنسان بعد تلبس هذه العادة والتعود عليها، من هنا قد يستغرب البعض ممارسة عادات ربما تتداخل فيها حالة الاستغراب والمفاجأة، ومن تلك الممارسات الغريبة تجدها في المناسبات العامة، مثل مناسبة شهر رمضان الذي يتفنن فيه المسلمون، وبالأخص النساء ربات البيوت في صنع الأكلات المتنوعة، والهدايا التي يقدمنها قبل رمضان، وفي أثنائه ومع عيده، لهذا وإن داخلنا الاستغراب نفسه، فإن ممارسة العادة هنا أو هناك هو أمر طبيعي، الذي يتوافق مع الثقافة الشعبية، وبعض الموروثات التي توارثتها الأجيال.

إن لشهر رمضان مكانة مميزة بين الشعوب العربية

والإسلامية، ليس في أداء الواجبات والفرائض والمستحبات التي أكدها الدين الإسلامي، وإنما القصد تلك العادات التي أخذناها بالتواتر أباً عن جد حتى وصلت لنا، وهي في حلة قشيبة مزدانة بألوان الجمال الرمضاني، بل بدأت بعض الدول العربية وتحديداً في الخليج، تتأثر بما هو موجود في بعض الدول العربية عامة، وتحديداً مصر التي تصبح في شهر رمضان مكاناً مختلفاً، إذ تتغير طبيعة الحياة في الحارات والأمكنة القديمة، تزدان شوارعها وحاراتها ومقاهيها، وأمكنتها، تعيش مصر شهراً كأنه عرس بلد، واحتفالات جماعية اجتماعية، هذا الطقس انتقل لنا نحن في الخليج، بل هناك كثير من العادات والممارسات التي لم تكن موجودة قبل ثلاثة عقود مثلاً، ولكن باتت اليوم من الضروريات التي تمارسها العائلات الخليجية.

ولن نستطرد كثيراً في توصيف ما نمارسه نحن أبناء منطقة الخليج العربي، وإنما نحاول طرق بعضها والوقوف على ممارستها في ضوء التحولات المجتمعية القارة، فمن تلك العادات القديمة: قراءة القرآن الكريم سواء في المساجد ودور العبادة أو في البيوت، وبخاصة هناك فئات من الشعب الخليجي تفتح مجالسها بعد صلاة العشاء والتراويح لاستقبال الجيران والأصدقاء القريبين والبعيدين، وهنا يكون اللقاء في دائرة التواصل الاجتماعي، وتأكيد صلة الأرحام، كما التلاحق اللامحدود في التنقل بين أمكنة الخياطة، وتفصيل الثياب قبل رمضان وفي أثنائه استعداداً لاستقبال العيد، ومن تلك العادات ما يشكل فرحة الأطفال بنين وبنات ليلة النصف من رمضان، حيث تكمن الفرحة لهم بالذهاب إلى البيوت وطرق الأبواب منتظرين ما تجود به أيدي أصحاب المنازل من عطاء الذي كان في السابق بعض الملبس والسنبل والحبوب التي تخصهم، لكن في وقتنا هذا زاد العطاء، وتشكل بأشكال متعددة، فهناك من يضع المكسرات الحلويات، والبعض يضيف القطع النقدية المعدنية أو الورقية، وآخر يعد كل هذا في أكياس أو مغلفات على شكل سلة صغيرة تقدم إلى الطفل.

ومن تلك العادات التي كانت منتشرة بصورة لافتة، ثم بدأت في الخفوت تدريجياً حتى بات حضورها نادراً في عصرنا الحالي، على الأقل في بعض المناطق الخليجية، وهي توزيع بعض الأكلات الرمضانية عصراً، إذ نرى ونحن صغار خروج النساء أو الفتيات من بيوتهن واضعات على رؤوسهن أطباقاً متعددة الأشكال والأصناف والطعوم، ليقدّمنها إلى بيوت الجيران، وهكذا طوال شهر رمضان، لكن للأسف في وقت ضمور هذا الطقس الذي يوحي بالجمال والتكافل الاجتماعي والتواصل بين أفراد المجتمع، ظهرت لنا عادة جديدة، وباتت في انتشار كبير وسريع، وهي ما تسمى بـ«النقصة»؛ أي تقديم بعض الأكلات أو ما يمكن استخدامه في رمضان، لكن لم يكن توزيعاً على الجيران، وإنما على الصديقات والعائلة القريبة جداً، وفي كل عام ترى التباهي والتفاخر والبروز بين النساء في كيفية تقديم هذه «النقصة» التي قد تكون مجموعة من علب الهال والزعفران، وقناني من ماء الورد، وزيت الزيتون، أو تقديم التمور الفاخرة، أو بعض الأواني التي عادة ما تسعى ربة المنزل إلى شرائها كل عام قبل رمضان. وأعتقد أن هذه الظاهرة التي أصبحت عادة في المنطقة برزت بناء على التحولات الاجتماعية والاقتصادية، والسعي إلى مسايرة الوضع العام بين النساء.

إن عادات الشعوب الإسلامية في شهر رمضان تعبير عن علاقة الإنسان بهذا الشعر، وبكيفية استقباله، ومدى تعامله مع شعائره اليومية، وأهمية تطبيق ما تؤكده الشرائع في المزيد من تقوية العلاقات الاجتماعية والعائلية المنبثقة من صلة الأرحام والتكافل الاجتماعي، والتكامل الاقتصادي بين أبناء المنطقة الواحدة، فكلما زاد هذا التواصل بينهم ظهرت ملامح الفرح والابتهاج والسعادة على وجوههم، وتبرعمت داخل نفوسهم وتسطرت حروفاً وأفكاراً في عقولهم، فعلامات الفرح حين إعلان خبر ثبوت رؤية الهلال الذي كانت سابقاً تكون عن طريق العلماء في المساجد، ونقل الخبر بالشكل التقليدي، لكن في عصرنا هذا يأتي الإعلان عبر وسائل الإعلام الحديثة، وبوساطة الوسائط التكنولوجية، ومنصات التواصل الاجتماعي، الأمر الذي يفرض المزيد من الاستعدادات التي تزين بها المناطق والشوارع والحارات والمقاهي، وكل أمكنة هي في الأساس أمكنة تجمع عفوي بشري، وإعداد الأمكنة التي تقام للإفطار الجماعي أو أمكنة إفطار صائم، أو إقامة السرادق والخيام خارج المساجد ودور العبادة، أو في إحدى زواياها لتقديم الإفطار للمحتاجين والفقراء والجاليات المسلمة والمهمشين من أبناء المجتمع

الذين يعيشون في قاع المجتمع، وهناك من يقوم بترتيب المنازل وإعدادها وتجديدها من الطلاء والأثاث والتزيين، وتوزيع الشموع والمصابيح والفوانيس المزركشة التي تعطي المكان طابعاً مختلفاً عن الأشهر الأخرى، والأيام العادية التي نعيشها.

ومن تلك العادات الرائعة التي توارثها المصريون وبعض الدول العربية، ما يشكل الشهر لهم، إذ قسوا الشهر إلى ثلاثة أقسام، كما هي عند بعض الدول الإسلامية الأخرى، فكل قسم يتكون من عشرة أيام، فالعشرة الأولى أطلقوا عليها أيام المرق، وتدل على ما يؤكل ويشرب، وتعنى بتجهيز ما يتطلبه الشهر من حاجات وضرورات تتعلق بالطعام والشراب، وبإعدادها وإقامة الولائم، وسمي القسم الثاني بالحق؛ أي الحلقات، وهنا تتمظهر الجوانب الاجتماعية التي تعنى باللقاءات والزيارات والسهرات، وإقامة «الغبقات»، أي السحور الجماعي، وفي القسم الثالث الذي يسمى بالخلق، أي استعداد الناس إلى التسوق وشراء ملابس العيد وحاجاته المطلوبة، ولو رجعنا إلى عادات منطقة الخليج، فسنرى أنها تمارس كما هي، وإن لم تكن بهذا التوزيع والتفصيل، إنما يبدأ الإنسان في التأقلم على الصيام والسهر والجوع، ومتابعة شؤون البيت من طلبات وخلافه، ثم يأتي السهر والأكلات والتنقل من مكان لآخر، ثم الاعتكاف عند كثير من الناس المسلمين، وهي العشرة الأواخر بما فيها ليلة القدر.

ومن أجمل العادات التي تمثلها فرحة الأطفال بنين وبنات، وهم يخرجون من بيوتهم بعد صلاة العشاء متنقلين بين بيت وآخر، يطرقون الأبواب طالبين بعض الحلويات والمكسرات والسنبل، وتكون في ليلة الخامس عشر من الشهر، وتسمى هذه العادة في المجتمع الخليجي بـ«القرقاعون أو قوقاشون أو القرقيعان أو قرقطو»، ولها أهازيج وأشعار تقال على ألسنة الأطفال بنغم وموسيقى لحنية تترجم معاني المناسبة والعادة. ومهما تعددت الأسماء فإن ماهيتها واحدة، ولأهمية هذا الطقس الجميل ولفرحة الأطفال قامت بعض المحطات المتلفزة بإعداد أفلام تسجيلية ووثائقية تخص هذه المناسبة.

ولا شك في أن هناك عادات قد لا يقبلها المجتمع، أو لا يشارك العامة في ممارستها، وهناك كثير من العادات التي كانت ولاتزال تمارس إلى يومنا هذا، وهي محببة بين أفراد المجتمع المسلم، مثل: فرحة استقبال الشهر، الاهتمام الكبير بقراءة القرآن وختمه، ومساعدة المحتاجين، والجلسات الرمضانية في المجالس والحوارات الاجتماعية الليلية، والمسحر، وطقوسه وأهازيجه ومناداته التي كانت منتشرة في القرى والمدن، ولكنها تقلصت بصورة كبيرة بعد التغيرات الاجتماعية والتحولات الاقتصادية، والثورة المعلوماتية والتكنولوجية، فضلاً عن نوع الأكلات الخاصة بالشهر، واللباس وممارسة الأطفال ليلة النصف من رمضان، وحالة الاعتكاف في العشرة الأواخر من الشهر الذي هو شهر العبادة بأنواعها العملية وممارساتها الفعلية.

إن كل الممارسات التي تحدث في شهر رمضان، وتختلف عما قبله وبعده، هي مظاهر اجتماعية باتت في وجدان الإنسان المسلم، وفي ذاكرته الاجتماعية الجمعية، وفي كيانه وثقافته، حتى لو لم يمارسها أو لم يقتنع بوجودها، فإن حضورها في المجتمع أصبح قاراً بما تحمله هذه الممارسات من مظاهر وملامح وعلامات، وما تشكله من رمزية دينية واجتماعية وتعبدية، وما تقدمه لنا من دلالات متعددة التي يتمثل بعضها في العبادة وقراءة القرآن، وفي التهجد والفرحة بليلة القدر التي ميزت هذا الشهر عن بقية الشهور الأخرى.

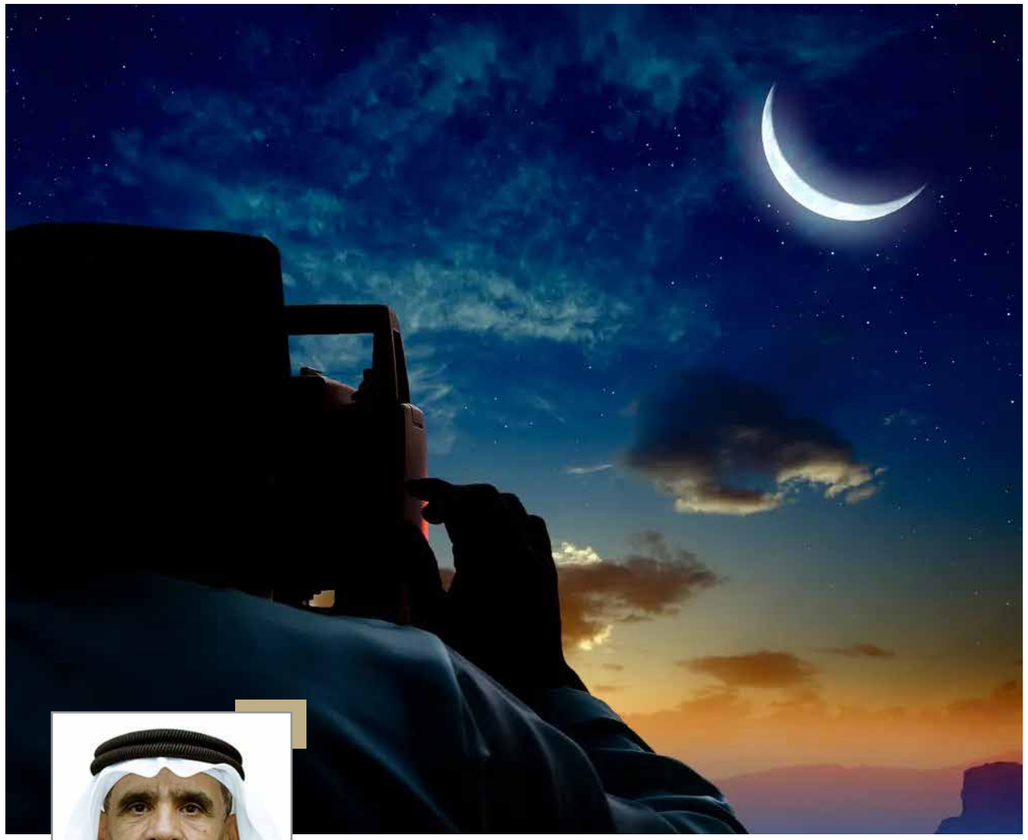

الموروث الثقافي والديني للبلاد العربية في شهر رمضان

د. عادل الكسادي
باحث ومحاضر
بمعهد الشارقة للتراث

يهلّ هلال شهر رمضان كل عام، ويحلّ بين أحضان قلوب الآباء والأجداد، وليغمر المشاعر بقوى الإيمان والتقوى. وشهر رمضان يتميز بخصوصيات ومزايا تنعكس على الحياة الدينية والاجتماعية للمسلمين في بقاع الأرض؛ لارتباطه بالعديد من الممارسات والأفعال والعادات والتقاليد.

ويحتلّ شهر رمضان مكانة خاصة ومتميزة في قلوب المسلمين على اختلاف ثقافاتهم ومناطقهم، حيث تتداخل فيها الممارسات الدينية بالموروثات الشعبية، ويتميز شهر رمضان في البلاد العربية بعادات وتقاليد وممارسات كثيرة ومتنوّعة، وهي عبارة عن مأثورات ثقافية توارثتها تلك الشعوب عبر أربعة عشر قرناً من الزمان.

وفي بلادنا العربية تتشابه الطقوس والعادات وخاصة الدينية منها وأعمال الخير والبر، وكذلك تغيير أوقات الإفطار والسحور، وأوقات صلاة التراويح والمجالس الرمضانية في المساجد وبيوت الأعيان، والأنشطة الثقافية والرياضية والبرامج التلفزيونية والإذاعية التي تعلنها المؤسسات الرسمية والشعبية.

ويسبق شهر رمضان شهر شعبان الذي يطلق عليه أهل الخليج وحضرموت شهر «قصيّر» بتشديد الياء، وسمي بهذا الاسم تصغيراً للفظ «قصير»، بمعنى أن هذا الشهر هو أقصر شهور السنة، وهي الأيام القليلة التي تسبق شهر رمضان الفضيل، وتمر أيامه بسرعة؛ لشدة ما ينشغل الناس فيه بالتحضير لاستقبال الشهر الكريم.

ففي شهر «قصيّر» ينشغل أفراد المجتمع بالإعداد لاستقبال رمضان، وقد ارتفعت طاقاتهم الإيجابية بفضل تعدد المشاغل، ومشاعر الفرح التي تلف مشاعر الناس بفضل رب غفور كريم. فيهرع الشباب والأطفال وأمهاتهم لتنظيف بيوتهم وصبغها، وتغيير بعض أثاثها أو تنظيفها، وكذا تنظيف فناء البيوت والساحات العامة، وتوفير كل مستلزمات دخول الشهر من المير الرمضاني وشراء بعض الأواني الجديدة، وذلك لتعدد أطباق وجبات الإفطار والضيوف في رمضان.

تحري الهلال:

ينتظر الناس في كل البلاد العربية، خاصة في الأيام الأخيرة من شهر شعبان الإعلان عن تحري الهلال، ودخول المجتمع في لحظات الانتظار الصعبة للإعلان عن إثبات الرؤيا، ووصول بشارة إعلان يوم الصيام. فالمؤسسات الشرعية تبدأ بتحري الهلال وتنتظر أصحاب الخبرة والثقاة من الناس للإدلاء بشهاداتهم. وفي كل منطقة أو بلد كانت هناك مناطق مخصصة وأماكن مرتفعة في الغالب يتحرّون فيها الهلال. وبتوجيهات من الحكام أو الحكومات يجتمع رجال المدينة أو القرى بعد صلاة المغرب عند مغيب التاسع والعشرين من شعبان، وأحياناً قبله بيوم، لتحري الهلال من قبل أعرف الناس بأمور النجوم والأفلاك، وإذا ثبتت رؤية الشهر، واعتمد من قبل الجهات الرسمية يتم الإعلان عنه من

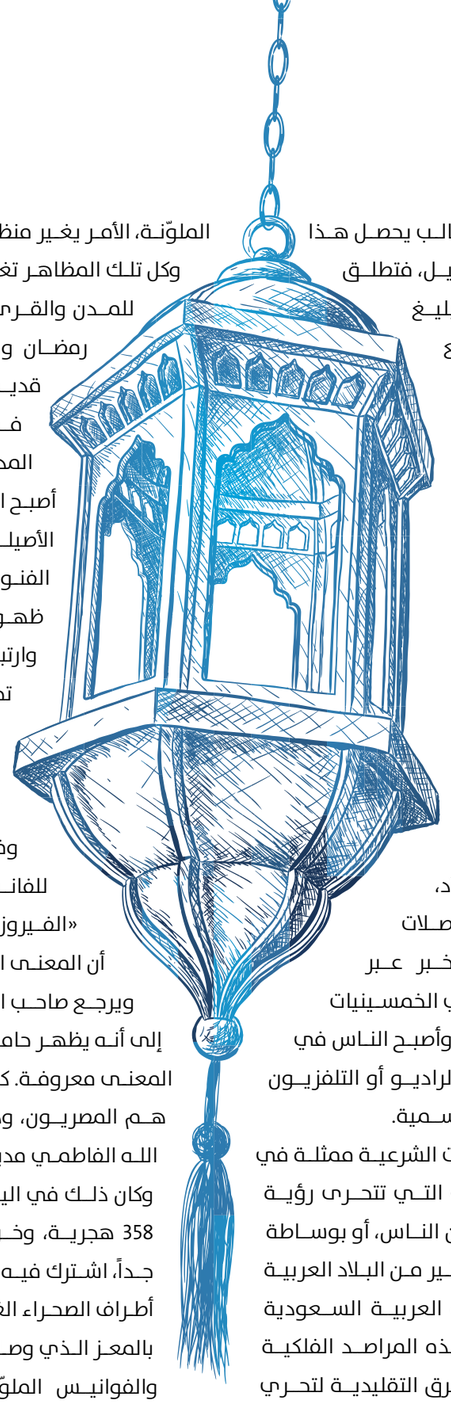

قبل الجهات الشرعية، وفي الغالب يحصل هذا الإعلان في وقت متأخر من الليل، فتطلق المدافع والأعيرة النارية للتبليغ والإعلان عنه، فيتبادل الجميع التهاني، فيسمع الأهالي صوت المدفع، ويستعدون لتجهيز السحور.

ويعدّ تحري رؤية الهلال في الماضي من المهام الصعبة التي ينتظرها الناس بفارغ الصبر، فهل يعلن عن الرؤية في نهاية اليوم التاسع والعشرين من شهر شعبان؟ أو يعلن خلاف ذلك، وينتظر الناس طوال الليل أحياناً، وهم ينتظرون بشارة رؤية رمضان، كما تنتظر الكثير من القرى والنواحي البعيدة من البلاد، وصول الأخبار عبر وسائل المواصلات التقليدية، أو وصول ذلك الخبر عبر السيارات التي أدخلت مؤخراً في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وأصبح الناس في فترات متأخرة يستمعون إلى الراديو أو التلفزيون لمعرفة الأخبار الصحيحة والرسمية.

أما في الوقت الحاضر، فالجهات الشرعية ممثلة في دوائر الشؤون الإسلامية هي التي تتحرى رؤية الهلال أما بوساطة الثقاة من الناس، أو بوساطة المراصد الفلكية التي أصبحت كثير من البلاد العربية تتملكها، وخاصة في المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات، وقد حلّت هذه المراصد الفلكية والأقمار الاصطناعية محل الطرق التقليدية لتحري هلال رمضان والشهور الأخرى، خاصة شهر ذا الحجة.

الفوانيس التقليدية ومدفع رمضان:

تتوارث الشعوب العربية عادات وتقاليد قديمة، ولاتزال تتوراثها إلى الوقت الحاضر، كتزيين الشوارع والمساجد والبيوت بأشكال متنوّعة من الفوانيس والإضاءات الملوّنة، الأمر يغير منظر المساجد والشوارع والبيوت، وكل تلك المظاهر تغير وجه الحياة والمظهر العام للمدن والقرى، كما أن إطلاق المدافع في رمضان وقت الإفطار والسحور تقليد قديم في معظم البلاد العربية، فما قصة الفوانيس وإطلاق المدافع في رمضان والأعياد؟

أصبح الفانوس أحد المظاهر الشعبية الأصيلة عند العرب، وهو أيضاً أحد الفنون والحرف التقليدية، حيث ارتبط ظهوره وتطور صناعته عبر العصور وارتباطه بشهر الصوم حتى أصبح تحفة تراثية، ومن مقتنيات معظم البيوت العربية. وكلمة فانوس هي كلمة إغريقية تشير إلى إحدى وسائل الإضاءة، وفي بعض اللغات السامية يقال للفانوس فيها «فناس». ويذكر «الفيروز أبادي» في القاموس المحيط أن المعنى الأصلي للفانوس هو «النمام»، ويرجع صاحب القاموس تسميته بهذا الاسم إلى أنه يظهر حامله وسط الظلام، والكلمة بهذا المعنى معروفة. كان أول من عرف فانوس رمضان هم المصريون، وذلك يوم دخول المعز لدين الله الفاطمي مدينة القاهرة قادماً من المغرب، وكان ذلك في اليوم الخامس من رمضان عام 358 هجرية، وخرج المصريون في موكب كبير جداً، اشترك فيه الرجال والنساء والأطفال على أطراف الصحراء الغربية من ناحية الجيزة، للترحيب بالمعز الذي وصل ليلاً، وكانوا يحملون المشاعل والفوانيس الملوّنة والمزينة، وذلك لإضاءة الطريق إليه. وهكذا بقيت الفوانيس تضيء الشوارع حتى آخر شهر رمضان. ثم انتقلت فكرة الفانوس المصري إلى أغلب الدول العربية، وأصبح جزءاً من تقاليد شهر رمضان، لاسيما في دمشق وحلب والقدس وغزة وغيرها من الدول العربية، وأصبح هذا التقليد ملازماً عند دخول رمضان في كل البلاد العربية إلى يومنا هذا.

وكانت القاهرة أول مدينة عربية وإسلامية، ينطلق فيها مدفع رمضان، فعند غروب أول يوم من رمضان عام 865 هجرية، أراد السلطان المملوكي خشقدم أن يجرب مدفعاً جديداً وصل إليه، وقد صادف إطلاق المدفع وقت المغرب بالضبط، فظن الناس أن السلطان تعمد إطلاق المدفع لتنبيه الصائمين، إلا أن موعد الإفطار قد حان، فخرجت جموع الأهالي إلى مقر الحكم تشكر السلطان على هذه البدعة الحسنة التي استحدثها، وعندما رأى السلطان سرورهم قرر المضي في إطلاق المدفع كل يوم إيذاناً بالإفطار، ثم أضاف بعد ذلك مدفعي السحور والإمساك. ثم انتقلت الفكرة إلى أقطار بلاد الشام. وبعدها انتقل إلى الكويت، حيث جاء أول مدفع إلى الكويت في عهد الشيخ مبارك الصباح في عام 1907م، ثم انتقل إلى كل أقطار الخليج قبل بزوغ عصر النفط، وكذلك اليمن والسودان، وحتى دول غرب إفريقيا مثل تشاد والنيجر ومالي ودول شرق آسيا، ففي إندونيسيا بدأ مدفع الإفطار عمله منذ عام 1944م. وفي حضرموت كانت وإلى وقت قريب يستخدم مدفع الإفطار والسحور في أهم مدن الإقليم كالشحر والمكلا وشبام وسيؤون، ولكن هذا التقليد الذي كان يعمل به سلاطين حضرموت قد اختفى في ظل الحكومات الحديثة التي كانت تعتبره من التقاليد البالية، فأوقف العمل بإطلاق المدافع، في حين استمرت معظم دول الخليج ومن بينها دولة الإمارات التي طورت هذا التقليد وسخّرت له إمكانات معتبرة وتقاليد ومظاهر تراثية راسخة للاستمرار فيه والحفاظ على هذا الموروث التراثي الجميل.

وإلى جانب مدفع رمضان هناك المسحراتي، أو بوطبيلة، أو المُطبل، وغيرها من المسميات التي تختلف من بلد إلى آخر الذي يوقظ الناس النائمين لمواعيد السحور وصلاة الفجر، وهذا التقليد قد اختفى من معظم البلاد العربية، ما عدا بعض القرى والمدن الذي ظل هذا التقليد ساري المفعول إلى الوقت الحاضر.

الأطباق الرمضانية ومسمياتها:

تتجلى أول مظاهر الفعاليات المسائية الرمضانية في أحلى صورها الاجتماعية والتكافلية مع أذان المغرب، وعلى مائدة الإفطار الجماعية في المساجد أو بالقرب منها، في مجالس الهواء الطلق، ومجالس شعبية عامة أخرى مشتركة مماثلة للنساء، ولا فرق بين البادية وأهل الساحل من الحضر.

وكانت مطابخ بعض البيوت الميسورة الحال أو التجار توفر الأنواع الضرورية من محتويات موائد الإفطار العامرة لعدد من المساجد، ولايزال كثير من الميسورين يوفرون تلك الموائد، وبعد الافتراق القصير لأهل الحي الواحد في الفترة الممتدة ما بين الإفطار وصلاة العشاء، يكون التجمع للرجال والنساء في كل مساجد الأحياء، لتأدية صلاة العشاء ثم التراويح، وبعد الاستماع إلى كلمات الوعاظ في مختلف المساجد ينتقل المصلون إلى أحد مجالس الميسورين لتناول «الغبقة» الرمضانية المعتادة، ويقال إن لفظ الغبقة أتت من حليب الناقة الذي يسمى بـ«الغبوق».

وقد استبدلت تلك المجالس اليوم بخيم الإفطار الجماعية التي تضم أعداداً مأهولة من المقيمين على أرض الدولة، تتناول فيها وجبة إفطار كاملة لكل الحضور، أما المواطنون فقد استبدلوا تلك العادات التقليدية بالإفطار داخل بيوتهم ومع أفراد أسرهم وأرحامهم، وهذا التغيير حصل بفعل الطفرة الهائلة والتغيرات البنيوية التي مر بها المجتمع، ومرت بها الأسرة، وتغيرت بوساطتها كل طرائق أنماط العيش، والتركيب المهني لشرائح المجتمع، ومنظومة القيم والموروثات الثقافية، فأصبح المجتمع يختلف شكلاً ومضموناً عما سبق.

وعلى الرغم من تلك التغيرات الكبيرة التي شهدها المجتمع يعد شهر رمضان أكثر شهور السنة تواصلاً بين الأسر والأرحام قديماً وفي الوقت الحاضر، واليوم ورغم تلك التغيرات يتميز المجتمع، وخاصة في هذا الشهر الفضيل، بفضائل صلة الرحم، وفيه تتعزز العلاقات الأسرية، ويسهم حلول هذا الشهر في بث روح السعادة والرحمة، وتبادل المشاعر الصادقة.

وكان في السابق، كما هو اليوم في الوقت الحاضر، تستعد الأسر للخروج إلى الأسواق لتجهيز «المير»، وهي عادة إماراتية أصيلة، تقدم فيها الهدايا للأهالي والأصدقاء لتقوية أواصر صلة الرحم، وتعزيز التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ولاتزال تلك العادات حاضرة بين كل أفراد المجتمع الإماراتي، على الرغم من التغيرات التي شهدها المجتمع في مناحي الحياة كافة.

أنواع الأطباق والمأكولات في رمضان ومسمياتها:

وكما تتشابه بعض العادات والتقاليد في معظم البلاد العربية، فإن لكل مجتمع أو بيئة اجتماعية عاداتها وتقاليدها المتميزة، وخاصة اختلاف الأطباق التي تقدم خلال هذا الشهر، وبمجرد سماع أذان المغرب يشرع في الأكل مباشرة، ثم يترك مكان المائدة لأداء الصلاة، ويستريح برهة من الوقت لإكمال الإفطار، وآخر يفطر بحبات من التمر والقهوة وبعض المقبلات الخفيفة أو بعض أنواع العصير أو اللبن، ويذهب إلى المسجد لأداء الصلاة، وبعدها يستعد للوجبة الرئيسة، وهي وجبة الإفطار التي تتشكل وتتنوع فيها الأطباق، وبعدها يتناول الشاي أو القهوة، ليستريح ويتهيأ لأداء صلاة العشاء والتراويح.

وكما تتشابه أنواع الوجبات والأطباق في رمضان، فإن لكل مجتمع عاداته وتقاليده في هذا الجانب، وتختلف المأكولات والأطباق من مجتمع إلى

آخر، ففي فلسطين تشتهر أطباق معينة بذاتها، وقد تتشابه تلك الأطباق على مستوى بلاد الشام بكاملها، ويفضل أهالي شمال فلسطين الكبة النية، ولحم الماعز، والحشوة، والقطايف، والمسخّن، والمحمرة، والعجينة المحشية باللحم والصنوبر، وكذلك المنسف الذي تشتهر به الأردن.

وتشتهر الموائد في تونس بوجود التمر بالزبد، وحساء الفريك (الشعير)، والسلطة والبريك. وفي موريتانيا يقطعون الصيام بالتمر والشاي الموريتاني، وكأس من الزريك، ويأتي الأكل لاحقاً بعد أداء صلاة التراويح.

أما طقوس الإفطار في السودان فتجتمع كل الأسر في بيت العائلة الكبيرة، وتتشارك الإفطار، وتجلب كل أسرة إفطارها معها، وفي حين تتناول النساء إفطارهن داخل البيوت، يحمل الرجال وجبات الإفطار في صينية ويتناولونه في الشارع أمام بيوتهم، وتقوم كل مجموعة من الجيران بمشاركة الطعام معاً، والغرض من هذه العادة إتاحة الفرصة لعابري السبيل والفقراء لتناول الطعام معهم دون حرج، ومن الأكلات الرئيسة العصيدة والفلافل السودانية، والفول، أما أشهر العصائر في المائدة الرمضانية عصير «الحلومر»، الذي يصنع من نبات الذرة والتمر هندي، وعصير حبوب القنقليز والليمون.

وفي الجزائر يوجد تقليد «قفة رمضان»، فكل بيت مقتدر مادياً يساعد أسرة فقيرة عن طريق تقديم الطعام في «القفة» يومياً طوال رمضان، وتقوم النساء كل يوم بعجن الخبز وتحضير الكسكس. وهناك موروث شعبي شفوي قديم اشتهرت به الجزائر، وهو «لعبة البوقالة»، حيث تجتمع النساء في سهرة رمضانية لممارسة طقوسها، وقراءة الطالع حول صينية الشاي، وحلوى قلب اللوز الشهيرة.

ومن أشهر العادات عند أهل الحجاز بالسعودية «نصبة الشاهي»، والتي يتم تخصيص مكان لها في أحد جوانب غرفة الجلوس، حيث توضع طاولة قصيرة، وعليها «سماور» وهو وعاء معدني لإعداد الشاي على البخار، ويتم تقديمه بعد الإفطار حسب الرغبة، وتظل نصبة الشاهي طوال أيام رمضان، وتتم إزالتها مع أول أيام العيد.

ولا يتسع المقال من إضافة المزيد من التفاصيل عن تقاليد وعادات الطعام والممارسات المختلفة المرتبطة بها في كل أقطار البلاد العربية، التي تشتهر معظمها بتنوع الأطباق والمأكولات، وخاصة مسميات الحلويات التي من أشهرها الكنافة والقطايف والزلابية والبسبوسة وأطباق الحلوى بمختلف ألوانها الحمراء والسوداء والبيضاء، وقطع الحلوى الأخرى الملونة، وهي حلويات قديمة خاصة الكنافة والزلابية التي يطلق عليها في حضرموت المشبك.

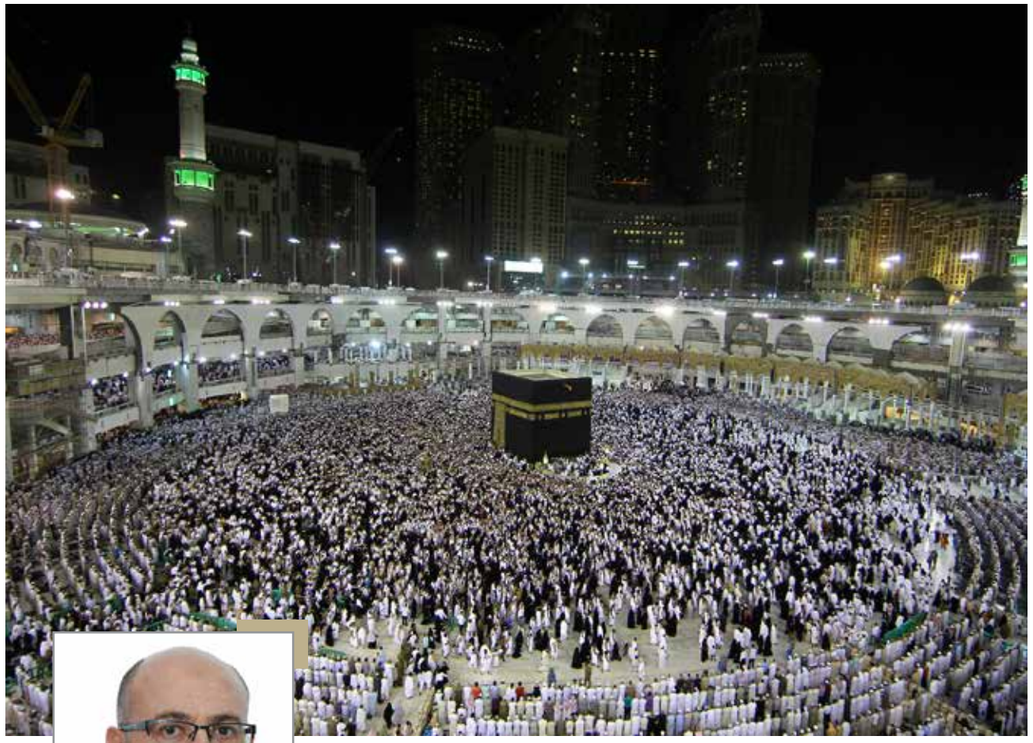

رمضان في مكة

صُوَر من صفحات الرحَّالة العرب والأجانب

خالد صالح ملكاوي
باحث وإعلامي - الأردن

كان لمكة المكرمة نصيبها المدروس في أسفار الرحالة العرب، وحظيت بحصتها الوافرة من نتاجات الذين كتبوا رحلاتهم، ودوّنوا ذكرياتهم خلال أسفارهم، فكتبوا يصفون ما عاشوه في مكة المكرمة لأيام رمضان ولياليه والاحتفاء بالأهلّة، والتسحير في الحرم المكيّ الشريف، ولعادات أهل مكة عند قدوم شهر الصيام، واحتفاء المكيين بختم القرآن الكريم، والاستعداد لاستقبال عيد الفطر السعيد. كما أن ثمة رحّالة ومستشرقين حكوا في رحلاتهم بصور ناطقة حيّة عن احتفالات المسلمين في مكة بهذا الشهر، ووصفوا حيثيات أيام الصيام وتفاصيل الإفطار والصلاة والقيام في الحرم المكي.

ابن جبير، عام 1183م

فقد وصف الرحّالة أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الشاطبي، البلنسي، المعروف بابن جبير، المولود في بلنسية عام 540هـ، الموافق 1145م. في كتابه «تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار» المعروف برحلة ابن جبير، شهر رمضان في مكة المكرمة، والاحتفالات الخاصة بقدوم وإحياء لياليه المباركة لعاميّ 578 579- هجرية، وسجل مظاهر ختم القرآن الكريم فيها في كل وتر من الليالي العشر الأواخر في رمضان.

وتحدث عن الاحتفاء بالأهلّة في مكة المكرمة، وما يجرى فيها من احتفالات، وكيف دخل أمير مكة مكثر المذكور داخل الحرم الشريف مع طلوع الشمس، والاحتفال بشهر رمضان فيه، فسجل الاهتمام الكبير بزيادة أحجام وأعداد وسائل الإضاءة منذ الفطور وحتى السحور، وتجديد فُرُش الحرم الشريف من الحصير عند دخول غُرّة الشهر المبارك.

كذلك أوضح لإقامة صلاة التراويح في الحرم المكي الشريف التي كانت تقام في أماكن عدّة متفرقة، وكان لكل فرقة إمامها، مع تعدد مرات الطواف حول الكعبة المشرفة فيما بين الركعات. وكان التذكير للسحور يتم من المئذنة التي توجد في الركن الشرقي للمسجد الحرام، وذلك بسبب قربها من دار شريف مكة، فيقوم الزمزمي؛ رئيس المؤذنين بالحرم الشريف، بأعلاها وقت السحور داعياً ومُذكِراً ومُحرِّضاً على السحور ومعه أخوان صغيران يجاوبانِه ويقاولانِه. ونظراً لترامي الدُّور بعيداً عن الحرم المكي، حيث يصعب وصول صوت المؤذن، كانت تُنصَب في أعلى المئذنة خشبة طويلة في رأسها عمود كالذراع، وفي طرفيه بَكْرَتان صغيرتان يُرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يُوقِدان مُدّة التسحير، فإذا قَرُبَ تَبَيُّن خطى الفجر ووقع الإيذان بالقطع مرّة بعد مرّة حطَّ المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة، وبدأ وثُوب المؤذنين من كل ناحية بالأذان. وعندما يرى أهل مكة من سطوح منازلهم العالية القنديلين قد أُطفئا علموا أنّ الوقت قد انقطع.

ودوّن ابن جبير مظاهر ختم القرآن الكريم في كل وتر من الليالي العشر الأواخر في رمضان، حيث كان أبناء مكة من الصبية يتنافسون في ختمه والاحتفال بذلك بإيقاد الشموع والثريات وتقديم الطعام.

ابن بطوطة، عام 1326م

أما الرحالة العربي أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي، المعروف بابن بطوطة، المولود في طنجة بالمغرب عام 1304م، فقد عاش حلول شهر رمضان الكريم في مكة المكرمة، فذكر في رحلته المعروفة لعادات أهل مكة المكرمة في استهلال الشهور، وعلى رأسها شهر رمضان، قائلاً: «وعادتهم في ذلك أن يأتي أمير مكة في أول يوم من الشهر، وقوّاده يحفلون به، وهو لابس البياض معمم، متقلدٌ سيفاً، وعليه السَّكينة والوقار، فيصلي عند المقام الكبير ركعتين، ثم يُقَبِّل الحجر، ويشرع في الطواف، ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم، فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً، ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعاً بذلك صوته ثم يذكر شعراً في مدحه ومدح سلفه الكريم، ويفعل به هكذا في سبعة أشواط، فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام أيضاً ركعتين ثم انصرف، ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفراً، وإذا قدم من سفر أيضاً».

ثم عرض ابن بطوطة عادة المكيين في شهر رمضان المُعظّم بقوله: «وإذا أهلَّ هلال رمضان تُضرَب الطبول والدبادب عند أمير مكة، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر، وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ

الحرم نوراً، ويسطع بهجة وإشراقاً، ويتفرق الأئمة فرقاً من القُرّاء، يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع، ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعته، فيرتجُّ المسجد لأصوات القُرّاء، وترقّ النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين. وإذا أكملوا التراويح المعتادة يطوف إمامهم وجماعته».

وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم، فيقوم داعياً ومذكراً ومحرّضاً على السحور، والمؤذنون في سائر الصوامع، إذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه، وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد عُلّق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يتّقدان، فإذا قَرُب الفجر، ووقع الأذان بالقطع مرة بعد مرة حطَّ القنديلان، وابتدأ المؤذنون بالأذان، وأجاب بعضهم بعضاً.

وفي كل ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن، ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء، ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة، فإذا ختم نُصِب له منبر مزين بالحرير، وأُوقِدَ الشمع، وخطب، فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله، فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات.

وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي، ويُختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم، وتُقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم، وتُعرض بينها ألواح طوال، وتُجعل ثلاث طبقات، وعليها الشمع وقنديل الزجاج، فيكاد يُغَشّي الأبصار شُعاع الأنوار.

ثم ذكر لعادة أهل مكة خلال شهر شوّال، إذ يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله، ويُسرِجوا المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان، وتوقد السُّرُج في الصوامع من جميع جهاتها، ويوقَد سطح الحرم كلّه، وسطح المسجد بأعلى أبي قُبيس (جبل بمكة)، ويُقيم المؤذّنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح، والناس ما بين طواف وصلاة وذِكرٍ ودُعاء، فإذا صلّوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد، ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم

الشريف، ليصلّوا صلاة العيد. ويكون أوّل مَنْ يُبَكِّر إلى المسجد الشّيبيون، فيفتحون باب الكعبة المُقدّسة، ويقعد كبيرهم على عتبتها، وسائرهم بين يديه، إلى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه ويطوف عليهم بالبيت سبعاً، والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبّة زمزم على العادة رافعاً صوته بالثناء والدعاء له ولأخيه كما ذكر، ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقة أمامه، وهو لابسٌ السواد، فيصلّي خَلف المقام الكريم، ثمّ يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة، ثمّ إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها ثمّ يخرجون إلى مقبرة باب المعلّى تبرّكاً بمن فيها من الصحابة وصدور السلف، ثم ينصرفون.

غرونيه، عام 1885م

وتحدث الرحالة الهولندي كريستيان سنوك هور غرونيه، الذي وصل إلى مكة المكرمة عام 1885م. عن ترقُّب المكيين وأهل الحجاز عموماً لشهر رمضان المبارك، واستعداداتهم التي تبدأ مبكراً، إذ كان خبر رؤية الهلال، سواء رمضان أو العيد، يُعلن عن طريق صوت المدفع الذي يغطي عشرات الكيلومترات، ويصل قرى تبعد نحو ثمانين كيلومتراً. أما في نجد وبالذات القرى والصحاري، إن لم يُرَ في محيطهم فإن عليهم أن ينتظروا من ينقل إليهم خبر رؤيته من أقرب مدينة أو تجمع.

وينتظر الناس في مكة بتلهف صوت المدفع الذي يُعلِن بداية شهر الصوم. وبعد سماعه مباشرة تصبح شوارع السوق أكثر حيوية مع نداءات الباعة على أنواع الطعام الطيب الذي يشتريه بعض المكيون لوجبة السحور. ويشهد المسجد الحرام في اليوم التالي تغطية صحنه بالأشرعة تجنُّباً لحرارة الشمس، إذ يتحلق حول الوُعّاظ بعض الرجال للاستماع إليهم. وينتقل إلى الصحن، طلباً للظل، من جاء إلى الحرم من خارج مكة لقضاء بضعة أيام فيه.

وقبل غروب الشمس، يبدأ الزمازمة في الخروج من خلواتهم، فيفرشون الحصائر والسجاجيد على كراسي زبائنهم الموضوعة فوق الحصى في صحن المسجد أو بين أروقة الحرم، ويضعون أمام هذه القطع الممتدة من الحصائر والسجاجيد جراراً (دوارق) ماء زمزم التي تكفي الواحدة منها خمسة أشخاص. ويضعون أمام

زبائنهم المميزين، إضافة لذلك وحسب ذوق هؤلاء الزبائن، (دورقاً) أو اثنين من الماء العذب أو ماء المطر أو ماء قناة العين العزيزية.

وتتدفق أمواج البشر على المسجد عبر أبوابه التسعة عشر قبيل غروب الشمس حاملين طعامهم من الخبز أو التمر والزيتون أو التين في أكياس أو سلال، ومنهم أغنياء مكة الذين يتبعهم عادة الخدم، وهم يحملون على رؤوسهم أطباقاً معدنية مملوءة بأنواع الطعام، ليأخذ الجميع أماكنهم منتظرين اللحظة التي يلوّح

فيها، من فوق الطابق العلوي لمبنى بئر زمزم، رئيس المؤذّنين براية لجنود القلعة بضرب المدفع معلناً بدء لحظة الإفطار. وبسماع المدفع تهمهم صفوف الموجودين شكراً لله. ويتبع ذلك الشراب أولاً ثم الطعام. وبعد دقائق قليلة يرفع الأذان من المنارات السبع، وتُصَلى صلاة المغرب التي يردد بعدها شيخ المؤذنين السنن الرواتب لمدة ربع ساعة، وهو يقف فوق الطابق العلوي.

بعد انقضاء صلاة الفجر، يسرع كل من له عمل إلى السوق، لأن الوقت المناسب لشراء اللحوم والحليب والخضرة والخبز واحتياجات رمضان الأخرى هو الصباح الباكر. وقبل شروق الشمس يطوف من لا عمل لهم حول الكعبة. وبعد ساعة واحدة لا ترى في المسجد غير أولئك المتصلة أعمالهم به، كالعلماء والطلاب والحجيج والأدلاء الذين يساعدون الطائفين في دعاء الطواف، والأغوات والزمازمة، أما الآخرون فقد ذهب كل في سبيله. والزيارات لا تتم في رمضان أثناء النهار إلا لسبب مُلِحّ.

رتر، عام 1926م

ويصف المستشرق الإنجليزي إلدون رتر رمضان في ربيع عام 1926م، حيث كان حطّ في مكة في رحلة بدأها من القاهرة إلى اليمن في 25 مايو من عام 1925م. يصف رتر رمضان في مكة وقد أعلن عن الخامس عشر من مارس 1926م. غرة رمضان، فيقول إن الحياة أخذت في المدينة مظهراً مختلفاً، فكل ليلة نحو الساعة الثانية والنصف صباحاً تطلق قذيفة مدفع من قلعة جياد، تعلن ساعة السحور، وبعد ساعتين من ذلك تطلق قذيفة أخرى معلنة الإمساك، في غضون هاتين الساعتين يقوم المسلمون النائمون من أسرّتهم ويتناولون آخر وجبة يمكنهم أكلها قبل الغروب القادم، ثم يعلنون صوم رمضان.

بعد أن يصلي المكيون صلاة الصبح في الحرم يعودون إلى بيوتهم، ويدخلون مخادعهم الخاصة كي يناموا، ويقرأ الأكثر تديناً منهم جزءاً من القرآن كل صباح من أيام رمضان، وهكذا ينهون كل الكتاب تماماً في الشهر. ويقرأ بعضهم مقداراً يبلغ ربع الكتاب كل يوم. يسمع الشخص السائر في أزقة مكة في أي صباح من رمضان أصوات تلاوة القرآن في كل بيت تقريباً، ويقوم كثيرون بتلاوتهم في أروقة الحرم. وهكذا ما بين النوم والقراءة والصلاة يمضي المسلمون الساعات الطويلة البطيئة حتى غروب الشمس.

يُرى في ساعة العصر عادةً عدد من المشايخ جالسين في الحرم يقدمون محاضرات دينية، بعض هؤلاء مكّيون، والآخرون حجاج من البلدان العربية المجاورة، يؤدون هذا العمل التطوعي بالوعظ حتى ينتفعوا بالبركة الخاصة التي يُعتقد أنها تنال من يعمل عملاً صالحاً في أقدس بقعة على وجه الأرض.

حين تقترب ساعة الغروب يزدحم المسجد ازدحاماً أكثر من ذي قبل، حتى تكاد تكون كل الأرصفة تحت الأروقة مغطاة بالأشخاص المعممة جالسة متربعة على سجادات الصلاة، يتلو كثير منهم القرآن بأصوات خافتة، يتمايلون بأجسامهم من جنب إلى آخر، مع معظمهم صرة من التمر والخبز، مصرورة في منديل. وأخيراً يدوّي المدفع من أعلى جبل جياد. وفي الحال تسمع همهمة ذات طنين في كل أرجاء الرباعي العظيم لأصوات كثيرة تحمد الله. وتصبح مناديل الأكل مفروشة بعد أن حُلَّت عُقَدها من قبل. وبعد البسملة يأكل الصائمون تمرات قليلة وقطعة من الخبز، والذين معهم طعام يدعون الآخرين في رقة ليجلسوا قريباً منهم ليشاركوهم في وجبتهم القليلة. وبينما يخفف أفراد الحشد المجتمِع من وطأة جوعهم، يقيم المؤذنون صلاة المغرب من المآذن، فينهض الجميع، وهم يمسحون شفاههم لأداء عبادتهم، وعندما تنتهي الصلاة يتفرقون بسرعة إلى بيوتهم، لم يُرَ الحرم في أي وقت من الأوقات أخلى مما يكون في الساعة الأولى بعد صلاة المغرب في رمضان، إذ يبقى فيه قلة من الدراويش فقط.

حين يرجع المكي إلى بيته بعد الصلاة يأكل حساء أبيض، وكثيراً من القمح المطبوخ في مرق اللحم، يلي ذلك بعد نصف ساعة أطباق العشاء العادي من اللحم والأرز والخضار. بعد ذلك يجلس مع أصدقائه إلى منتصف الليل بعد فاصل لأداء صلاة العشاء في الحرم. والذين هم أكثر تديناً يؤدون صلاة نافلة طويلة في ليالي النصف الثاني من هذا الشهر، ويظل كثير من المكيين مستيقظين، يصلون أو يتسلون حتى يُطلَق مدفع السحور.

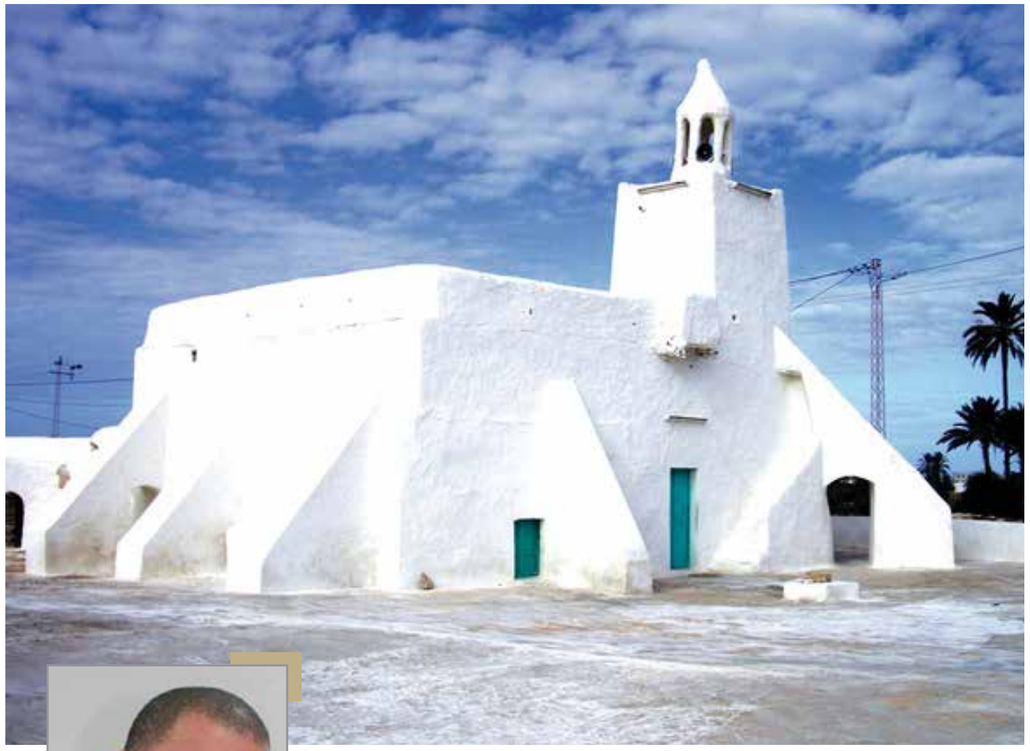

ازدي.. الاحتفال بالصائمين الجدد في جزيرة جربة

د. محمد الجزيراوي
باحث بالمعهد الوطني للتراث – تونس

توجد العديد من العادات والتقاليد التي ترتبط بالاستعداد لشهر رمضان المعظم في البلاد التونسية، ولئن تشترك أغلب المناطق في تبييض المساكن فرحاً بقدوم الشهر الكريم، وغسل أواني الطبخ، وخاصة صقل النحاسية منها عند المختصين في الأسواق، تبقى لجزيرة جربة عادة فريدة، تتمثل في إحياء احتفال عائلي على شرف من سيصومون للمرة الأولى الشهر كاملاً.

تسمى هذه العادة «ازدي»، وهي لفظة من أصول أمازيغية بربرية ، وتعني الاغتسال، إذ إن مقصد المناسبة تعليم الشاب قواعد الاغتسال الأكبر أو الغسل في الإسلام.

يرى سكان جزيرة جربة أن حلول شهر رمضان مناسبة مهمة لتعليم أبنائهم هذا الشرط المهم في دينهم، إذ لا يعد ضرورياً لصحة الصيام فقط، بل هو مفروض عند قراءة القرآن وأداء الصلاة وإتمام مناسك الحج.

يتمّ تعليم الابن أو البنت في هذا الاحتفال أيضاً فقه الصيام وأحكامه ونواقضه، وخاصة كيفية القيام بالغُسل على أسس صحيحة، وتبعاً للقواعد الإسلامية. لا تغيب عن ممارسة هذه العادة الأطعمة والحلويات، إذ تعدّ والدة الصائم أو جدّته البسيسة المشهورة باسم «بسيسة الصيام»، حيث تكون مزيّنة من الفوق بقطع الحلوى الملوّنة والبيض، والهدف منها في الأصل أن تكون له محفّزاً، حيث لا تغيب هذه البسيسة لمن سيصوم حديثاً طيلة شهر رمضان عن مائدة السحور.

يتم كذلك تشجيع المحتفى به ببعض الهدايا عملاً بالآية الكريمة «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ» (سورة الحج الآية 32)، حيث فهم الجدود كيفية انطباق القول مع العمل فتدبّروا القرآن، وشرّعوا أعرافاً اجتماعية، هي بمثابة مدرسة داخلية أخلاقية ودينية تتوارث جيلاً بعد جيل.

يرتدي الشاب أو الفتاة الذي سيستهلّ صيامه هذا العام عادة اللبسة الجربية التقليدية، إذ يلبس الفتى مثلاً الكدرون الأبيض، وما يحمله ذلك من رموز ومعانٍ بكون الشاب، قد تحوّل إلى مرحلة التكليف والمسؤولية الدينية والاجتماعية.

يمر الاحتفال في أجواء حميمية، يشارك فيه مختلف أفراد العائلة الموسعة، ويستدعى بعض أصدقاء أو صديقات الذي من أجله أقيمت المناسبة، وتردد أثناءها المدائح والقصائد التي تتغنى خاصة بالرسول الأعظم، وبفضل الشهر الكريم.

لا تزال هذه الممارسة الاجتماعية متواصلة حتى يوم الناس هذا، بل تتشبث بها العائلات الجربية، حتى وإن استقر بها المقام منذ زمن بعيد خارج الديار في تونس العاصمة أو حتى في بلاد المهجر، كما أنها مناسبة مهمة لتواصل الاحتفاء، وممارسة بعض العناصر من التراث الثقافي المادي وغير المادي.

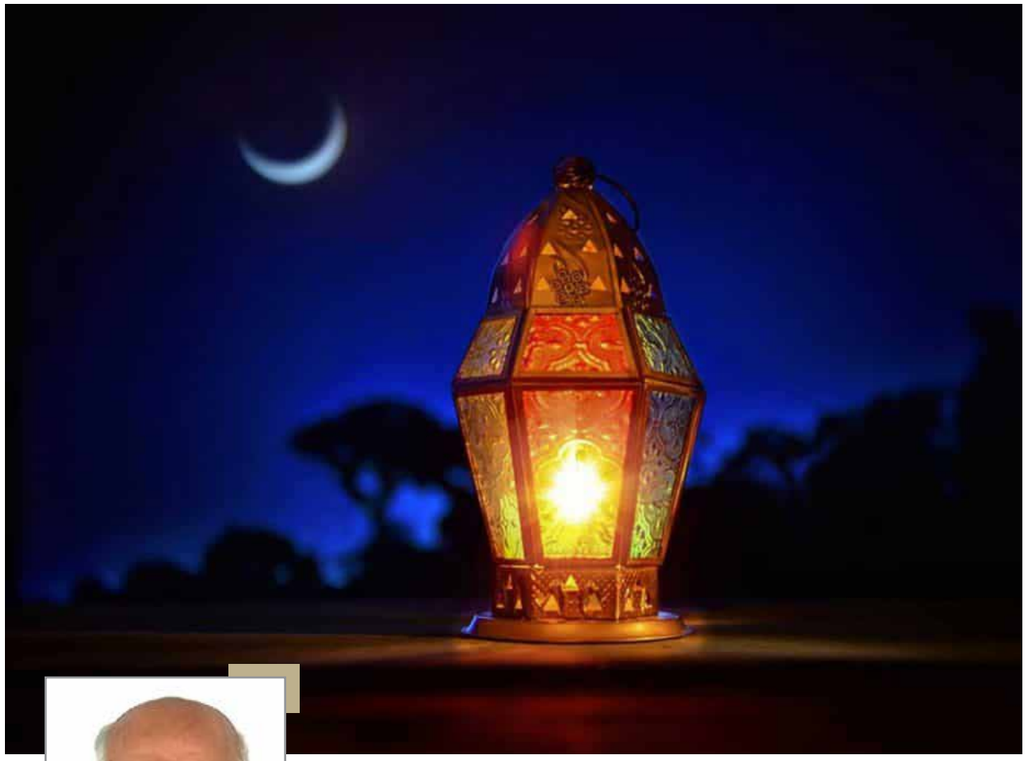

رمضان
في ثقافتنا التراثية

محمد نجيب قدّورة
كاتب وباحث - فلسطين

لأن الدين في الأفعال، فقد كان الصيام معياراً للسلوك الإيجابي، ومفتاحاً للطاقة المتجددة، فيستحق شهر رمضان منّا التحية بقولنا: كل عام وأنت بخير... ففيك نزل القرآن في ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر... يعني أنك يا شهر الصيام بمرورك الموسمي تساوي في كل عام عمراً من أعمارنا؛ {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}. (البقرة 185)، أجل نشهد رمضان برؤية هلاله، ونفطر في عيده السعيد برؤية هلاله.

رمضان قيمة وأيقونة:

الاستعداد لرمضان يبدأ في ليلة النصف من شعبان؛ حيث حلاوة الفقراء، والصيام تجربة، و«حق الليلة» تعبير عن إعلان وجوب قضاء ما فات من تقصير في الواجبات والطاعات، ثم يهلّ الهلال الرمضاني معلناً قيمة إيمانية سامية «فكل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فأنا أجزي به»، هذا توجيه من الله في الحديث القدسي، يقول: تنبهوا رمضان هذا ليس كغيره، فهو أيقونة المواعيد في ضبط الرؤية، وضبط النفس، وإعلان لبدء حكاية روحانية فيها ما فيها من الأدعية المستجابة، والتميز في العبادة، ففي رمضان صلاه التراويح خاصة، ولا تكون في سواه، والعشر الأواخر من رمضان لها قيمة في السهر والاعتكاف، والعمرة ... وهي المرجوة في ليلة القدر الموصوفة بالهدى والفرقان في كتاب الله، بل إننا نجد تميزاً آخراً لصيام رمضان؛ ففيه زكاة الفطر الواجبة على كل نفس مسلمة.

رمضان تراث حيّ:

كما عرفنا أن الصيام مرتبط بالاستطاعة، وإلا فهو مشروط بالقدرة.. يمكن التأجيل لعذر ما، إذا كان هناك حرج أو مانع، فالصيام ركن من أركان الإسلام والإيمان، وتتجلى المعاني التراثية في أن الالتزام بالصيام في هذا الشهر الفضيل أمر طوعي فيه تلبيه أمر إلهي... لنتأمل سلوكنا الجمعي، كيف أن الطاعة الرمضانية على قول المثل: هي دروب وسنع، فالناس بالناس، والكل بالله، الامتثال للأوامر الإلهية خارج عن اعتبارات البشر... قد نغضب إذا أمرنا شخص أن نمتنع عن الطعام، ونعتبر أمره منعاً قسرياً يهدف إلى تجويعنا... لكن أمام الأوامر الإلهية ومراعاة السلوك الجمعي، ما أحلاها! وكيف لا يكون حلواً وفيه الأجر وميزان الإيمان، بل فيه الجزاء الأكبر من الله، فالصيام في المردود العملي هو الخير أجمعه في الترتيل والتسبيح والتحميد والتراويح، ولا بأس أن نورد

قـول شـاعرنا ابـن الرومـي عـلى مـا فيـه مـن خفـة روح في قولـه:

شهر الصيام مبارك ما لم يكن في شهر آب

فالمعروف في تراثنا الخليجي أن آب شهر لهّاب، يشبه الجهاد بالسيف، ما دام الشهر عزيزاً فهو ضيف، علينا أن نكرمه برمزيته في الصبر والتدرب على أسباب النصر.

ولا يخفى على أهل التراث أن معظم الأعمال المجيدة لأمتنا كانت في شهر رمضان، من غزوة بدر إلى حفر الخندق إلى فتح مكة وفتح مصر والأندلس وعين جالوت وحرب رمضان، كل تلك المآثر التاريخية كانت في رمضان، حيث الروح في البذل والتضحية تتجلى، وهي في شوق للقاء ربها في أقدس حالة، أهم ما فيها تطييب الخاطر بالنصر أو الجنة، فكيف إذا كان النصر أو الاستشهاد في رمضان؟!

المظاهر الاجتماعية الرمضانية:

وهكذا إذا ذكر رمضان ففي قاموس الناس... الانتظار والوقت الثمين، وفيه الصبر الجميل، وقولك اللهم إني صائم، فأعنّي على عملي، وأبعدني عن فشلي... قال لي الصحاب تحدثت عن كثير فأين القليل... قلت القليل هذا هو المظهر الرمضاني القالب الغالب، أعرف تقصدون الحديث عن مدفع رمضان وفوانيس رمضان وزينات رمضان وعيد رمضان.. يا قوم تراثنا يحمل سلوكات مادية أيضاً، فهو ليس مجرد روحانيات، بل في الأيام الرمضانية المعدودات مجال للمسابقات الرمضانية والمجالس الرمضانية، وما أكثرها! لكن التفنن في المأكول والمشروب يعوض شيئاً من الصبر على الجوع، وينفس عن العائلة بأنهم يجتمعون على ما لذّ وطاب. جمعة تؤلف بينهم وتبقيهم على لمة العائلة؛ لتكون حديث ذكريات لما بعد.

وفي هذا الإطار يبدأ كل بتذكر أي المأكولات أشهى وأطيب؟ ماذا اليوم وماذا غداً؟ هنا أقول لكل بلد عاداته ومأكولاته ومشروباته، المهم أنهم يجتمعون في سياق رمضان وموسمه الجميل. ولله في خلقه شؤون، ولكل شعب طاجنه أو كببه أو محاشيه أو هريسه أو مقلوبته أو مسخنه أو صيادیته... هذه الأطباق لن يغيب عنها التمر وقمر الدين والعرقسوس والتمر هندي، وآخرهم «الفيمتو».. ولكن.. قالت نفسي: ماذا وراءك يا رجل؟ قلت: تراثنا رائع مرتب موزون، المهم ألّا نسرف ولو كنا على نهر جارٍ أو في (بوفيه) مفتوح... يا سقى الله ورعى الله وعساه رمضان يعود سيد الشهور بالحمد والسرور، ويغنّي الأطفال: رمضان جانا وافرحنا بو، وحوي يا وحوي، أهلاً رمضان.

رمضان
في الذاكرة الشعبية البدوية

د. مهدي الشموط
محاضر لغة عربية
في كليات التقنية العليا

لعل ما يميز رمضان في الذاكرة الشعبية الأردنية قديماً، أن أهلنا كانوا يصومون ويفطرون معتمدين على رؤية الهلال بالعين المجرّدة، الذي لم تحجبه عنهم حداثة الحياة، وغبار المصانع، وإيقاع المواصلات؛ فكان الجو صافياً كنفوس الناس نقيّاً، وتستطيع الأبصار المجرّدة أن تراه دون عناء أو تلسكوب؛ لأن العيون تبصر والآذان تسمع، والبصيرة نافذة، مع أنهم بشكل عام بسطاء سطحيون، وليسوا متدينين ولا متعلّمين، وإيمانهم (كإيمان العجائز) يقوم على العفوية والبساطة، والبعد عن التكلّف، وكانت سفرتهم بسيطة تقتصر في معظمها على أكلة الرشوف التي تتكوّن من اللبن وخبز القمح أو الشعير الذي يصنع على أعينهم وبأيديهم، والعدس والبقوليات، والسمن البلدي، وأحياناً الزيت، وأشياء أخرى كاللبن والخبز الذي يسمونه في ذلك الوقت الفتيتة أو «الخميعا»، وأحياناً قليلة يجود سيد القوم عليهم باللحم، ويسمونها «الذبيحة»، وهي بالكاد تذبح ربما مرة أو مرتين في حال قدوم ضيف وجيه من خارج القبيلة، أو في حال نذر أو مناسبة، فيستغلون رمضان ليكون الأجر مضاعفاً.

ومن الجدير بالذكر أن القرع بمفهومه الحالي كان حاضراً على موائدهم، وللقرع طقوسه الخاصة، كما حدّثني أبي بأن الرجل كان يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم يذبح القرعة بعد أن يسمي عليها كما يذبح الشاة؛ فتطبخ باللبن والعدس والبقوليات، وتقدم كطعام جيّد، فهي غالية الثمن، وتأتي بعد الذبيحة، ويتعازمون عليها بوصفها أكلة لذيذة شهية نادرة، تستحق أن يُدعى لها الناس، وتغني بفوائدها وقيمتها عن الذبيحة، في حال قدم إليهم ضيف مهيب الجانب، وفي حال عدم توافر الذبيحة.

كان الناس في ذلك الزمان يجتمعون في بيت واحد، منهم صغيرهم وكبيرهم، رجالهم ونساؤهم، فتكون الطارة الأولى للرجال، ثم تكون الطارة الثانية للمعازيب، ثم يأتي دور الأطفال، وبعد ذلك النساء، ثم يكون نصيب صاحب الدعوة ما تبقّى من طعام؛ ليصدق فيهم قول القائل «سيد القوم خادمهم»، ومن الجدير بالذكر أن النزل في ذلك الزمان، ويقصد به الجماعة من الناس، ينزلون في مكان واحد، بحدود الخمسة بيوت، وذلك لأنهم يعتمدون في حِلّهم وترحالهم على تتبع مواطن الغيث، ومنبت العشب، فيفترقون كي يكفيهم المكان بعيداً عن الزحام، وكل نزل يسمون باسم سيد القوم هناك؛ فيقال العرب الفلانيون باسم شيخهم، أو سيدهم الذي يكون ورث المشيخة عن أبيه، وله مواصفات خاصة؛ بعيد النظر كريم الطباع قليل الأخطاء حكيماً حليماً.

كان للناس تقاليدهم الخاصة في شهر الصيام، فإذا صادف أشهر الصيف التي يطول نهارها، ويقصر ليلها؛ فيكون صيام ذلك اليوم شاقاً صعباً. وقد حدّثني الثقات من كبار السن أنهم يشارفون على الموت من العطش؛ فيصرون على الصيام، رغم حرارة الجو، وصعوبة الحياة، فما إن تشرف الشمس على المغيب

إلا ويكـون صبرهـم قـد نفـد، وطاقتهـم قـد شـارفت عـلى النهايـة، فيـأتي الفـرج بغـروب الشـمس التـي تقـترن عندهـم بغيـاب الغسـق، وعنـد بعضهـم الآخـر يكـون واسـط البيـت دليـلاً عـلى الغـروب الحقيقـي الـذي يـدل عليـه اختفـاء الواسـط (العمـود الوسـط في بيـت الشـعر) فيبـادرون بـشرب المـاء وشرب الحليـب، سـواء أكان حليـب النـوق أم حليـب الغنـم (الحامـض)، ثـم تـأتي القهـوة ثـم الصـلاة، وبعـد ذلـك يـأتي دور الفطـور الـذي ذكرنـا سـابقاً مكوناتـه البسـيطة بعيـداً عـن الأطبـاق المتنوعـة والموائـد الباذخـة الفارهـة الكبـيرة.

ومـن علامـات غـروب الشـمس أيضـاً مدفـع الإفطـار الـذي كان يسـمع في أماكـن قريبـة مـن عـمان، فـكان صـوت المدفـع علامـة عـلى غـروب الشـمس، فـما إن يسـمع السـامع صـوت المدفـع حتـى ينـادي في النـاس أن وقـت الإفطـار قـد حـان، وربمـا يكـون صـوت المدفـع مسـموعاً لمـن يقطـن قريبـاً مـن عـمان (بـدو الوسـط)، أمـا النـاس البعيـدون عـن ذلـك، فإنهـم كـما ذكـرت يعتمـدون عـلى الغـروب الحقيقـي.

ومـا إن يـأتي وقـت الإطـار حتـى يقبـل النـاس عـلى طعامهـم، وكأن عـلى رؤوسـهم الطـير، فيأكلـون بـأدب وحيـاء، فيـأكل الرجـل مـما يليـه؛ لأنـه يعـرف أن الطعـام في ذلـك الوقـت قليـل؛ والحاجـة للتوفـير حقيقـة؛ فتكـون الطـارة الأولى مـن نصيـب الضيـوف الذيـن يتخففـون مـن الأكل، ويتمثلـون قـول الشـنفرى:

وإن مُدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن
بـأعجلهـم إذ أجشـع القـوم أعجـل
ومـا ذاك إلا بسـطـة عـن تفضـلٍ
عليهـم وكـان الأفضـل المتفضـل

ثـم يـأتي دور القهـوة التـي تصـب مـن اليمـين قصـا وليـس خصـا، فيشربونهـا مـرة واحـدة عـلى ثـلاث مـرات دون أن يتنفّـس فيهـا الشـارب؛ لأن الفنجـان يلـف عـلى القـوم أجمعهـم دون أن يغسـل، فيكـون لشربـه عـادات تتفـق مـع تقاليـد الصحـة، وفي حـال وجـود شـخص مريـض، فإنـه يعتـذر عنهـا كي لا ينقـل العـدوى إلى غـيره.

ويتكـرر هـذا السـيناريو طيلـة شـهر رمضـان، ففـي كل مـرة بعـد أن ينتهـي الفطـور يبـادر أحدهـم بحجـز يومـه، ليكـون الإفطـار مـن نصيبـه، فيـأتي النـاس إليـه ملبـين الدعـوة، وهكـذا دواليـك حتـى ينتهـي رمضـان. وأمـا عـن طبيعـة الـشراب فـإن قمـر الديـن حـاضر عندهـم؛ لأنـه يظنـون أنـه يقيهـم العطـش ويسـاعدهم عـلى إتمـام الصـوم في شـهر القيـظ، بالإضافـة إلى الحليـب، وأغلـب الظـن أن الشـاي كان غـالي الثمـن؛ لذلـك كان في بيـوت الميسـورين منهـم. وإذا مـا أردنـا الحديـث عـن نوعيّـة المجالـس في ذلـك الزمـان، فإنهـا بسـيطة، تقـوم عـلى أدب المجالـس، يحـترم فيهـا النـاس المتحـدث، فـلا يقاطعونـه حتـى يكمـل كلامـه، ثـم يكـون السـؤال عـن أحوالهـم، ويتفقّـد بعضهـم بعضـاً، ويسـألون عـن الغائـب ليـس مـن بـاب الفضـول، وإنمـا مـن بـاب: لعلـه مريـض فيزورونـه، أو محتـاج فيعطونـه، أو ملهـوف فيغيثونـه، أو غضبـان فيرضونـه؛ ثـم إنهـم مـن خـلال تلـك المجالـس الرمضانيـة يعرفـون أخبـار بعضهـم بعضـاً، ويعـين قويهـم ضعيفهـم، وكبيرهـم صغيرهـم، ومـن ذلـك أنهـم يحصـدون في موسـم الحصـاد في رمضان وغيره، ويقصـون الغنـم، وهاتـان المهنتـان شـاقتان وتحتاجـان إلى عمـل جماعـي، ولابـد مـن المعونـة عـلى إتمـام الحصـاد، وجـز الغنـم قبـل بلـوغ العيـد، فيكـون ذلـك بـأن يجتمعـوا عنـد واحـد منهـم، لينتهـوا مـن محصولـه، ثـم تنتقـل (العونـة) وهـم مجموعـة مـن الشـبان الأقويـاء الذين يهبـون لنجـدة مـن يريدهـا دون منّـة أو أذى إلى الثـاني فالثالـث؛ فيتحقـق بذلـك التكافـل الاجتماعـي الحقيقـي دون الحاجـة إلى واعـظٍ يذكرهـم بـضرورة التكافـل، والتعاون عـلى البـر والتقـوى، فهـم يتمثلـون ذلـك فعـلاً لا قـولاً.

ومـن الجيّـد أنهـم كانـوا يقفـون (مـن وَقْـف) جـزءاً مـن المحصـول ويسـمونه «جورعـة» عـلى حسـب تعبيرهـم ليكـون مـن نصيـب المحتاجـين الذيـن ليـس لهـم محصـول، وكأن تلـك الجورعـة هـي زكاة المحصـول، بالإضافـة إلى أنهـم مـن خـلال مجالسـهم يعرفـون المحتـاج الـذي لا يملـك غنـماً، فيعطونـه «منايـح»؛ وهـي الغنـم أو المعـز التـي تعطـى لمـن ليـس لـه غنـم، ويسـمونه «حـلال»؛ كي يسـتفيد مـن لبنهـا وصوفهـا ويعيدهـا في نهايـة الموسـم، وقـد اسـتفاد منهـا وأمّـن مؤونتـه وحاجتـه؛ كل ذلـك كان يحـدث عنـد أهلنـا قديمـاً دون الحاجـة إلى جهـات رسـمية تنظمـه أو رجـال ديـن ووعـاظ يذكرونهـم بـه.

ومـن المؤسـف أنـني حـين سـألت كبـار السـن عـن صـلاة التراويـح وطقـوس العبـادات، لم أجـد إجابـة حقيقيّـة تـروي الظـمأ، وربمـا يكـون السـبب أن المـدارس لم تنتـشر بعـد، وأن المسـاجد قليلـة، وموجـودة في المـدن فقـط، وبعـض الأريـاف، وأن البـادية كانـت تجهـل ذلـك، وربمـا كان الأغلـب منهـم يظـن أن الصـلاة بحـق الكبـار والمتعلمـين، أو أن الروايـات لم تنقـل ذلـك، مـع أن أغلـب أهلنـا كانـوا مسـلمين بالفطـرة، يتخلّقـون بأخـلاق الإسـلام، ومقصريـن في بعـض شـعائره، والله أعلـم.

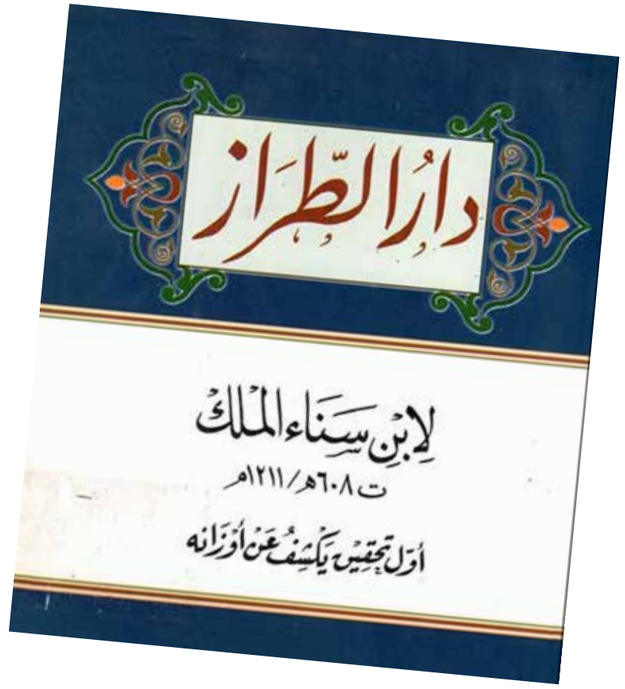

علي العَبْدان
مدير إدارة التراث الفني
معهد الشارقة للتراث

مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ

من القرن الثاني حتى الحادي عشر الهجريّ

الجزء الخامس

نتابع في الجزء الخامس من هذه المقالة التعرّفَ إلى أهمّ مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ التي ظهرت بين القرنيْن الثاني والحادي عشر الهجريّيْن، وكيف تطوّرت وانتشرت في مختلِفِ الظروف والشروط، الثقافية، والأدبية، والاجتماعية، وغيرها، وذلك بالرجوع إلى أحد أهم المؤلفات التي صنعت ثَبَتاً لتلك المصادر، وهو كتاب (مصادر الموسيقا العربية)، للمستشرق الموسيقيّ الأسكتلنديّ هنري جورج فارمر، الذي نُشِرَ عام 1940، ويُعَدُّ من أواخِر مؤلفاتِه

ذكرتُ في الأجزاء السابقة من هذه المقالة أنني انتقيتُ من الثَبَتِ المذكور المصادرَ التي رأيتُها مهمّةً في معرفة تطوّر الموسيقا العربية نظرياً وعمليّاً، وأضفَيْتُ عليها تعليقاتٍ وملحوظاتٍ يسيرةً، رأيتُها مهمّةً في سياق هذا العرض، ووضعتُ تعليقاتي بين علامتَيْ تنصيص، كي أُميّزَها عن كلام فارمر، ونحن في هذا الجزء من المقالة ما زلنا نعرِضُ لمؤلفات القرن الخامس الهجريّ، وصولاً إلى نهايات القرن السابع الهجريّ، ونبدأ في هذا الجزء بمؤلفات العالِم الحسن بن الهيثم العِلمية، التي لها ارتباطٌ بعلم الموسيقا، وهو ثالثُ شخصيةٍ من القرن الخامس نذكرُ مؤلفاتِها في الموسيقا:

3- أبو عليّ، الحسن بن الحسن بن الهيثم (430 هـ / 1038 م)، لهُ كتابٌ (شرح قانون إقليدس)، ومقالة في شرح الأرمونيقا (علم التناغم / Harmony)، ويقول فارمر إن العنوان غيرُ ظاهرٍ في النسخةِ المخطوطةِ التي اطلعَ عليها، لكنه استظهرَ من قراءتهِ أن هذا الكتاب شرحٌ على (Introductio Harmonica) لكليونيد. ولابن الهيثم أيضاً رسالةٌ في (تأثيرات اللحون الموسيقية في النفوس الحيوانية).

4- أبو منصور، الحسين بن محمد بن عمر بن زَيْلَة (440 هـ / 1048 م)، لهُ كتابٌ (الكافي في الموسيقا)، ولا ينقسم الكتابُ إلى فصول، لكنّ ترتيبَهُ شبيهٌ بترتيبِ كلام ابن سينا في قسم الموسيقا من كتابهِ (الشِفاء)، بل كثيراً ما كان يقتبسُ منه باللفظ، وقد كان ابنُ زَيلة من تلاميذ ابن سينا، لكنه كان ينقلُ من كتاب الفارابي أيضاً، وإن لم يذكرهُ كثيراً، كما اقتبسَ من الكِنديّ كلامَهُ في الإيقاع. ثم قال فارمر: "وبالرغم من رأي البارون درلنجر؛ للكتابِ أهميةٌ غيرُ قليلة، لِما يحتويهِ من مادةٍ لا توجد في غيرهِ من الكتب، خاصةً الناحيةَ العَمَلية من فن الموسيقا".

القرن 6 هـ / 12 م:

1- أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المُفضَّل الراغِب الأصفهانيّ (502 هـ / 1108 م)، لهُ كتابٌ (محاضرات الأدباء)، وفيه فصلٌ عن الغناء، والمُغنّين، والآلات الموسيقية.

2- أبو حامد، محمد بن محمد الغزاليّ (505 هـ / 1111 م)، في كتابهِ الشهير (إحياءُ علوم الدين) فصلٌ عن الغناءِ والآلات الموسيقية، من وجهة نظرِ الصوفية، الذين يَرَوْنَ في الموسيقا وسيلةً للوَجْد.

3- أحمد بن محمد الغزاليّ (520 هـ / 1126 م)، وهو أخو المؤلف سابق الذِكر، لهُ كتابٌ (بوارِقُ الإلماع)، وهو دفاعٌ عن الموسيقا من وجهة نظرٍ صوفيّة.

4- أُميّة بن عبد العزيز بن أبي الصَلت (529 هـ / 1134 م)، لهُ رسالةٌ في الموسيقا، وقال عنه فارمر: "كان

عالِماً مشهوراً، بَرَع في علم الموسيقا، كما كان بارِعاً في أدائِها أيضاً".

5- أبو بكر، محمد بن يحيى بن الصائغ، الشهير بابن باجّه (533 هـ / 1139 م)، لهُ كتابٌ في الموسيقا، يقول عنه ابنُ سعيد المغربيّ (672 هـ / 1274 م): "إن هذا الكتابَ لقيَ من الشهرة في الأمصار الإسلامية الغربية ما لَقِيَهُ كتاب الفارابيّ في الأمصار الإسلامية الشرقية". كما أن لابن باجّه شرحاً على كتاب النفس لأرسطو، يشملُ فصلاً عن السَماع، يتناولُ مبادئَ الصوت، ومعروفٌ عن كتاب النفس لأرسطو اشتمالُهُ على فصلٍ قيّمٍ عن قواعد الصوت، التي كان لها أثرُها العظيم في علماء الموسيقا العربية.

6- أبو الوليد، محمد بن أحمد بن محمد، الشهير بابن رُشد (595 هـ / 1198 م)، لهُ شرحٌ مشهورٌ على كتاب (النفس) لأرسطو، وتوجد ثلاثة شروح لهذا الكتاب، الشرح الكبير، والمتوسط، والصغير.

7- يحيى بن الخُدُجّ، الأعلَم المُرسيّ (عاشَ في القرن السادس الهجريّ)، لهُ كتابٌ عن الأغاني الأندلسية، جمَعَهُ احتذاءً بكتاب الأغاني لأبي الفرَج الأصفهاني.

القرن 7 هـ / 13 م:

1- أبو العِزّ، بديع الزمان إسماعيل بن الرَزّاز الجَزَريّ (602 هـ / 1206 م)، لهُ كتابٌ في معرفةِ الحِيَل الهندسية، يتناولُ فيه الآلات المعروفةَ إلى عصره، ومنها آلاتٌ تُصَفِّر، يدخلُ فيها الهواء بواسطةِ الضغطِ المائيّ.

2- أبو عبد الله، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (606 هـ / 1209 م)، لهُ كتاب (جامع العلوم)، وهو دائرةُ معارف لعلومٍ مختلِفة، منها علمُ الموسيقا، وينقسمُ بابُ الموسيقا بدوره إلى تسعةِ فصول. وقد كُتِبَ هذا الكتابُ لعلاء

الدين خوارزم شاه عامَ 574 هـ / 1178 م، وتُرجِم إلى الفارسية، أوربما كانت الفارسية لغة الكتاب الأصلية.

3- هبةُ الله بن جعفر بن سَناءِ المُلك (608 هـ / 1211 م)، لهُ كتابٌ (دار الطِراز)، وهو مجموعةٌ من نصوص أغاني الموشّحات.

4- الحسن بن أحمد بن عليّ الكاتب (كان حيّاً عامَ 625 هـ / 1228 م)، لهُ كتاب (كمالُ أدَبِ الغِناء)، وهو من أهمّ الرسائل الموسيقية في هذا القرن، لا يوجد منها – حسبَ فارمر – إلا نسخةٌ واحدة، تتألف من 48 صفحة، وتنقسمُ إلى أربعين باباً، وهي منسوخةٌ بقلم مَن اسمُهُ حسن بن يوسف بن أبي القاسم، الذي ربما كان من كُتّابِ الأيّوبيّين حسبَ فارمر.

5- ياقوت بن عبد الله الحَمَويّ الروميّ (626 هـ / 1229 م)، لهُ معجمُ الأدباء، أو (إرشادُ الأَريب إلى معرفةِ الأديب)، وهو معجمٌ مشهورٌ لتراجم الأدباء المسلمين، ويشتملُ على تراجمَ لبعض الموسيقيين.

6- أبو الحسن، علي بن يوسف بن القِفطيّ (646 هـ / 1248 م)، لهُ معجمٌ لتراجم المؤلّفين، بعنوان (تاريخ الحكماء)، يشتملُ على ذِكر الكُتّابِ في الموسيقا، ويحوي أخباراً زائدةً عمّا في فِهرست ابن النديم، و(تاريخ الحكماء) موجَزٌ، قام بهِ محمد بن علي بن محمد الزوزنيّ عامَ 647 هـ / 1249 م، من كتابٍ كبيرٍ لابن القِفطيّ، يُسمّى (كتاب أخبار العلماء).

7- أبو العباس، أحمد بن عمر الأنصاريّ القرطبيّ (656 هـ / 1258 م)، وهو أحدُ أُدباءِ قرطبة، لهُ رسالةٌ بعنوان (كشفُ القِناع عن حكم الوجدِ والسَماع)، يعرِضُ فيها لهذه المسألة التي كثر النزاعُ فيها.

8- أبو العباس، موفق الدين أحمد بن القاسم بن أبي أُصَيْبِعة (668 هـ / 1270 م)، لهُ كتاب (عيونُ الأنباء) الذي يُعَد أهمَّ تاريخٍ عربيٍّ للأطباء، ويحتوي إشاراتٍ عدةً لكُتّابٍ في الموسيقا، لم يذكرهم ابنُ النديم، ولا ابنُ القفطيّ.

9- عزّ الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسيّ (678 هـ / 1279 م)، لهُ كتاب (حَلُّ الرموز ومفاتيحُ الكنوز)، يتناول الموسيقا في الفصلين 14 و15 منه.

10- أبو العباس، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خِلّكان (681 هـ / 1282 م)، لهُ كتاب (وَفَياتُ الأعيان)، وهو معجمٌ لمشاهير المسلمين، يشتملُ على تراجمَ لعددٍ من الموسيقيين، وكذلك الكُتّابِ في الموسيقا.

11- أبو محمد، تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاريّ الفِركاح (690 هـ / 1291 م)، لهُ رسالة (كشفُ القِناع في حِلّ السَماع)، وهي تمثّلُ رأيَهُ في هذه المشكلة بصفتِهِ فقيهاً شافعياً.

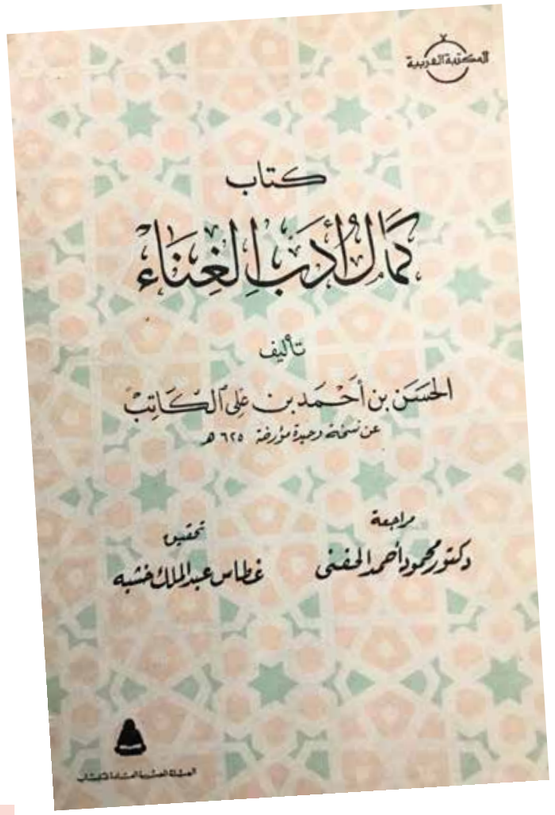

فن السوما

علي العشر
خبير تراث فني
معهد الشارقة للتراث

فن السوما هو من الفنون الشعبية القديمة، التي تكون مشتركة بين سلطنة عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة، حيث توطنت في الدولة، وأصبحت من الفنون الشعبية الإماراتية القديمة.

وهي عبارة عن حركة دائرية يبدأ بها المؤدون بالتصفيق بالأيدي مع التمايل يميناً ويساراً، والقفز إلى الأعلى مع الحجل.
ويدخل كل واحد من المجموعة داخل الدائرة للرقص متجهاً إلى شخص آخر ليحل محله، ويعود هو إلى مكانه بالدائرة لأداء الحركات المتبعة مثل المتبقين.
ويستخدم في هذا الفن من الإيقاعات طبلان فقط؛ أحدهما يسمى كوثر، والثاني يسمى رحماني، ولا يوجد أي خلاف في طريقة الأداء من إمارة إلى أخرى، بل يؤدى بطريقة واحدة.
ويقام هذا الفن في الأعياد والمناسبات والأعراس، خاصة أثناء السفر الطويل.
وللطبول دور كبير في تحريك الرجال وتنقلهم من داخل الدائرة وخارجها، والمساعدة على إبراز الرقصة في اللون والطابع الشعبي المحبوب.
ومن قصائد فن السوما ما يلي:

بستان قلبي من الموز تامر
ما يرخص الخيل إلا يوم السوق داني

قرطاسة بيضا بلاها النادي
سوما هواي تربت فؤادي

والليلة ماما العب يا هندي
كيف أنا ألعب والخيل ما عندي

والليلة ماما يا بسرة وسافورة
يا ريت البحرين شرقي الخابورة

والليلة ماما نرمس ليلة
ولد سيف سافر سنيار ولد شيله

والليلة ماما أبو كيت لمرنق
جتني علومه بالشط مفرق

ناهونا أمويزي
بت خماس كافونكا
جالسه فوق ميزا

والليلة ماما غني لي بيت
ماشي حلاتي غير الكويت

والليلة ماما فتكرا الياسمين
والعفو منك يالاخو سالمين

ذياب بن عيسى

قائد من الصحراء

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

لم يعرف الشيخ ذياب بن عيسى شاعراً إلا من خلال قصيدته اليتيمة «دنيا ما بك ندارة»، وهي أقدم قصيدة على بحر الونة، وقد تناولناها في مقال سابق، إلا أن هناك قصيدة أخرى لم ترد إلا قليلاً، وهي من حيث الغرض والموضوع مهمة، وتحتاج إلى دراستها في السياق التأريخي جنباً إلى جنب سياقها الأدبي.

ولد الشيخ ذياب بن عيسى بن نهيان الفلاحي في القرن الثامن عشر، وهو ابن الشيخ عيسى بن نهيان، أول حكّام آل نهيان، الذي استطاع أن يجمع قبائل بني ياس تحت لوائه، وتقلّد الشيخ ذياب حكم الإمارة في منتصف القرن الثامن عشر، وحينها اتخذ مقر إقامته في سهل الحمرة، الذي يقع إلى الشمال من أرض الظفرة،[1] ويقال إنه كان يقيم في محضر المارية،[2] ولكنه يعتبر أيضاً مؤسساً للمستعمرة الساحلية في جزيرة أبوظبي،[3] وكان ذلك بعد انتقال بعض عشائر بني ياس للإقامة فيها، بعد اكتشاف المياه عام 1761م، وكانت الجزيرة معروفة باسم «مليح»، ثم نمت تلك القرية سريعاً، فأصبحت أول مستوطنة ساحلية دائمة لقبيلة بني ياس،[4] وقد أجمعت المصادر على أن الشيخ ذياب كان عادلاً في تصريف الأمور، ويزور رعاياه بين الحين والآخر، ويفصل في المنازعات الداخلية التي كانت تنشأ بين مواطنيه من أفراد آل بوفلاح، ولكن لم يدم حكمه طويلاً، وتوفي في عام 1793، في وقتٍ كان فيه آل بوفلاح في حاجة إلى الهدوء والاستقرار[5] لم يعرف الشيخ ذياب بن عيسى شاعراً إلا من خلال قصيدته اليتيمة «دنيا ما بك ندارة»، وهي قصيدة مشهورة حفظت في الصدور، وتصدرت الجزء الثاني من كتاب «تراثنا من الشعر الشعبي»، للباحث حمد خليفة بوشهاب، المنشور في شهر نوفمبر 1980، إلا أن قصيدة «يَا دَارِنَا يَا حِلْوَةِ الْمَا عِذِيَّهْ»، للشيخ ذِيَابْ بِنْ عِيسَى الْفَلَاحِي، على البحر الهلالي من القصائد التي كادت تُفقد، لولا حفظها من قبل أحد الرواة،[6] والقصيدة تناقلها عدد قليل من الرواة لأكثر من قرنين، وكان احتمال فقدانها كبيراً جداً، وهي قصيدة لا تقل أهمية عن القصيدة الأولى، بسبب غرض القصيدة السياسي، والجو العاطفي المشحون في القصيدة، والتي تدل على عدم الاستقرار في تلك الفترة من تاريخ المنطقة، إذ نلاحظ مطلع القصيدة:

يَا دَارِنَا يَا حِلْوَةِ الْمَا عِذِيَّهْ مْعَلَّقَهْ بِيبَانَهَا مِنْ رِمَالْهَا

واضح من دلالات مفردات الشطر الأول أن الشاعر تدور في ذهنه أفكار كثيرة، فالبدء بالنداء أسلوب دارج عند الشعراء الأوائل، ولكن مخاطبة «الدار» يدل على أن المخاطَب هو شعب بأكمله، وبالذات حينما يستخدم صيغة الجمع، ويقول «يا دارنا»، وحينما يكون هذا الخطاب من حاكم مثل شاعرنا، فإنه يؤكد أن الدار أو الوطن ليس ملكية للحاكم، ولا مسؤولية الحاكم وحده، وإنما الوطن ملك الشعب بأكمله، وتحت مسؤولية هذا الشعب، وبهذا النداء يدعو الشعب إلى التعاضد والتفاعل للدفاع عن الأرض وحمايتها؛ لتكون مصدر سعادة لمن يقطنها.

وأما معنى العادة، فهو واضح في «حلوة الما»، فالعبارة ظاهراً تشير إلى موارد المياه الحلوة التي يدافع عنها أصحاب الأرض، وهي مصدر الحياة لهم، ولكنها في الوقت نفسه تعد مصدر سعادة وبهجة، وقديماً كان يقال إن «ليوا رمالها حصونها»، والشطر الثاني في مطلع القصيدة يشير إلى المعنى نفسه؛ أي أن الأرض أصبحت تحمي نفسها، وهي لا تملك الشعور، فالإنسان الذي يحمل الشعور كيف لا تتحرك نخوته ليدافع عن وطنه بأغلى ما يملك؟

مَا يَازِت الَّا مَسْكَنٍ عَنْ هِضِيمَهْ

وِانْ لَافْ عَنْ غَبْرَا جِلِيلٍ نُوَالْهَا

تِشَادِي لِعَذْرَا بِنْشَفِ الرِّيحْ دُونْهَا

يَا الْلِيْ عَلَىَ لُوْنِ الْجِبَالِ نْوَالْهَا

يؤكد الشاعر هنا أن الأرض هذه لم تكن لنا وطناً ومكاناً آمناً مطمئناً إلا بعد قوة إصرار على ذلك، حيث إن هذا الهدوء ليس إلا بعد أعجة التصادمات لحمايتها، وكذلك ستبقى هذه الأرض، إن أراد أحد أن يعكر صفو أجوائها مرة أخرى.

وفي البيت الثاني يشبّه الأرض بعذراء جميلة بعيدة النوال؛ ليشير إلى أن هذه ليست أرضاً فحسب، وإنما عِرض من يقطنها، والدفاع عنها دفاع عن الشرف والكرامة.

دِيَارْنَا الْلِيْ حَايِلَهْ وْمِسْتِحِيلَهْ

كِلٍّ يِحَايِلْهَا وِلَا حَدْ حَالْهَا

يَا مَا لِطَمْنَا دُونَهَا كِلّ عَايَل

بِلَابِةٍ سَمٍّ الْبَلَا فِي قِبَالْهَا

وِيَلِيْ لِفَانَا صَايِحٍ مِنْ قِبِيلَهْ

لِطَمْنَاهْ بِالْلِيْ خَابِرِينٍ فِعَالْهَا

ويؤكد هذا المعنى في الأبيات الثلاثة الأخيرة بدءاً ببيت رائع، فيه جناس بأكثر مفرداتها فـ«حايلة» و«مستحيلة» و«يحايلها» و«حالها»، فالأولى بمعنى الحاجز، والثانية بمعنى انقطاع الأمل، والثالثة بمعنى المحاولة والحيلة، والرابعة كناية عن الوصول إليها، وهذا البيت تأكيد واضح على شاعرية الشيخ ذياب بن عيسى، وامتلاكه ناصية القصيد، وأن له قصائد كثيرة لم تصلنا، فمثل هذا البيت لا يكون إلا من شاعر يعلم خبايا المفردات ودلالاتها، مع قوة في الصياغة والسبك، لم تتأتَّ إلا بعد ممارسة طويلة في ميدان الشعر والأدب.

ولم يكتف الشاعر بذلك، ففي البيت التالي أيضاً عبارة «سم البلا»، والسم قد يكون المادة السامة التي تقتل العدو من الداخل، وأيضاً الريح الحارقة «السموم»، التي تحرق العدو من الخارج، والمعنيان كلاهما في موقعهما الظاهري والدلالي ضد كل معتدٍ. وهذه الدلالات المزدوجة لا تكون محض صدفة، وإنما تخرج من بين يدي فحول الشعراء.

خلاصة القول، إن القصيدة واضحة القصد والدلالة، وتشير إلى قوة شخصية الشاعر، وحجته التي بها يجمع ويحفز بها الفكر الجمعي تحت لواء وقيادة الشيخ ذياب بن عيسى الفلاحي، وإن كانت القصيدة تشير إلى شاعريته من ناحية، إلا أنها من ناحية أخرى تشير إلى قيادة سياسية، تعرف كيف تكون جزءاً من الشعب والوطن والثقافة، وأن تكون مصدراً لحماية الجميع.

1- زايد بن سلطان آل نهيان القائد والمسيرة: حمدي تمام، ط2، ص 30.
2- مختصر تاريخ الظفرة: علي أحمد الكندي المرر، ط1، ص59.
3- زايد بن سلطان آل نهيان القائد والمسيرة: تأليف حمدي تمام، ط2، ص 30.
4- قصر الحصن تاريخ حكام أبوظبي 1793-1966: تأليف د. جوينتي مايترا وعفراء الحجي، ط1، ص32.
5- زايد بن سلطان آل نهيان القائد والمسيرة: تأليف حمدي تمام، ط2، ص 30.
6- خمسون شاعراً من الإمارات: سلطان العميمي، ط4، ص134، رواية شفهية عن محمد راشد الشعري المنصوري.

الكويت

في الأرشيف العثماني (1)

طلال سعد الرميضي
كاتب - الكويت

إن تواريخ وأخبار البلاد العربية منتشرة في الوثائق القديمة المتواجدة في الأرشيفات العالمية، التي كانت لها علاقة مباشرة مع حكام وأمراء المناطق العربية في الزمن الماضي، ولعل الأرشيف العثماني هو أهم هذه المراكز الأرشيفية التي تضم معلومات هائلة عن ماضي الخليج العربي وأهله وتجارته.

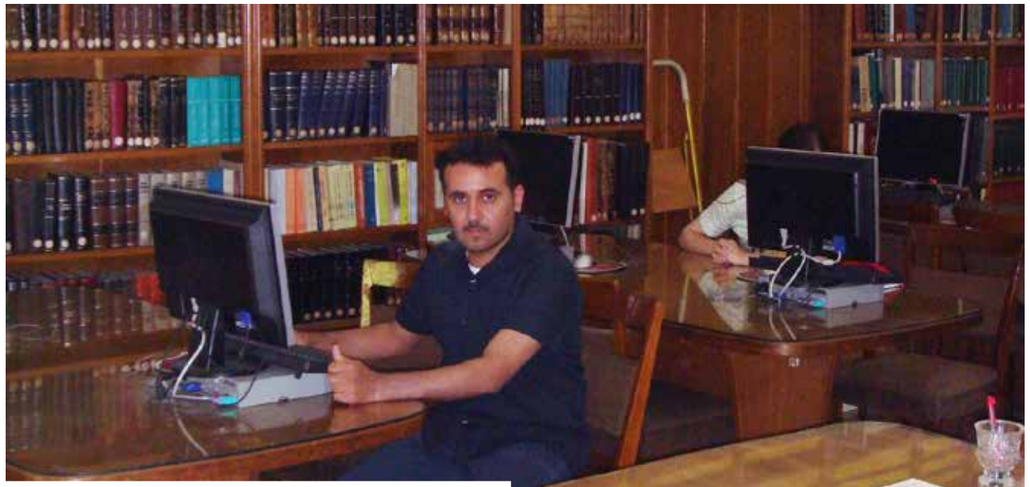

ويعتبر الأرشيف العثماني هو ثالث أكبر أرشيف في العالم من حيث حجم كمية الوثائق التي يحتويها ويقدر عددها بنحو مئة وخمسين مليون وثيقة بالإضافة إلى ألاف الدفاتر القديمة التي سجلت حوادث ويوميات لا يعرفها سوى العثمانيين لقربهم للمنطقة العربية ودونوها في سجلاتهم القديمة.

تتعدد المصادر الوثائقية التي يستعين بها الباحث في تاريخ الخليج العربي فقد يستفيد من المصادر المطبوعة والروايات الشفهية والقصائد الشعرية والصحافة القديمة عند دراسته لحادثة تاريخية معينة، وتظل الوثائق القديمة هي المصادر الأكثر أهمية وفائدة في ذلك..

وتنوع هذه الوثائق ما بين وثائق أهلية وهي ذات أهمية كبرى، ووثائق خليجية وعربية تتعلق بالكويت وبها فوائد تاريخية كبيرة لتاريخنا، ومنها ما هو محفوظ في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، ودار الوثائق القومية بالقاهرة، وخلاف ذلك من المراكز الوثائقية الهامة.

أضف إلى ذلك وجود وثائق مهمة جدا عن ماضي الكويت متناثرة في عدة إرشيفات عالمية تابعة لدول كبرى لها طموحات واسعة بمنطقة الخليج العربي في الزمن الماضي ومنها ما هو وجود في الأرشيف البريطاني، وقد نهل منه الكثير أبرزهم الباحث الفلسطيني الدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة الذي كلف في مطلع الستينيات بكتابة تاريخ الكويت من قبل لجنة كتابة تاريخ الكويت وأصدر عدة مؤلفات قيمة معتمداً على الوثائق البريطانية بالدرجة الأولى وكان له عصا السبق في الكشف عنها وترجمتها للغة العربية آنذاك.

بالإضافة إلى هناك مراكز الأرشيف الروسية والفرنسية والهولندية والألمانية وغيرها التي تضم بعض الوثائق القديمة عن تاريخ الكويت.

وترجع أهمية هذه المراكز إلى أنها قريبة العهد بالمنطقة مقارنة مع مركز أرشيفي كبير إلا وهو الأرشيف العثماني..

وقبل الخوض في هذا الأرشيف الضخم نؤكد أن الجهود

الكويتية الميذولة للاستفادة منه ضئيلة جدا وهذا ما سنوضحه لاحقا، ولكن لنتعرف على هذا الأرشيف وتاريخه معا..

تأسس هذا الأرشيف الهام في عام 1930م وهو معني بوثائق الدولة العثمانية القديمة التي استمرت ما يقارب ستمائة سنة أي ما بين 1299م – 1923م وسمت بالعثمانية نسبة إلى عثمان الأول بن أرطغرل، وكما هو معروف بأن الدولة العثمانية بلغت ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم الثلاث: أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث خضعت لها كامل آسيا الصغرى، وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا، وغربي آسيا، وشمالي أفريقيا، ووصل عدد الولايات العثمانية إلى 29 ولاية، وكان للدولة سيادة اسمية على عدد من الدول والإمارات المجاورة في أوروبا، التي أضحى بعضها يُشكل جزءً فعليًا من الدولة مع مرور الزمن، بينما حصل بعضها الآخر على نوع من الاستقلال الذاتي.

وكان للدولة العثمانية تواجد ونفوذ كبير في منطقة الخليج منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي وارتبطت بحكام الإمارات والمشيخات القبلية بالمنطقة وسط تقسيمات إدارية معروفة آنذاك كالولايات والأقضية وخلاف ذلك، وولاة وقائمقامات وموظفين وعسكر تابعين لها.

وقد كانت الدولة العثمانية حريصة على توثيق كل رسائلها؛ فقد ابتدأت العناية بالوثائق منذ عهد السلطان مصطفى الثالث (1757م1774-م) حيث صدر فرمان من ديوان الجيش في عهده بمناسبة نقل الدفاتر الخاصة بأقلام الديوان الهمايوني مثل دفاتر المهمة، ودفاتر المعاهدات، ودفاتر الرسائل الهمايونية، ودفاتر الشكاية، ودفاتر الرؤوس، إلى محل الجيش في معسكراته الشتوية وهو مبنى حجري سليم (كما وصف في الفرمان) وهو بمثابة خزانة الدولة العلية.

وتم تشييد مبنى الأرشيف على الطراز الحديث في عهد السلطان عبدالحميد (1839-1861م) وأطلق عليه اسم خزينة أوراق، وعلى أمينها خزينة أوراق ناظري، أي ناظر خزانة الأوراق.

وكان يترجم حرص الدولة العثمانية على الحفاظ على الوثائق والسجلات المختلفة عن أجهزتها في الويلات والأقاليم، وصدرت الفرمانات التي تلزم بذلك، وقد صدر أول أمر حول إقامة بناء الأرشيف في الباب العالي في عهد السلطان عبدالحميد الأول (المتوفي 1789م) وهو أمر بأن يكون البناء الحجري القائم في حديقة سراي الصدر الأعظم مخزنا للأوراق، وحظي موضوع الحفظ والتوثيق بالعناية الكبرى من الخلفاء والعاملين بالدولة العثمانية ووضعت اللوائح التنظيمية له.

ومنها على سبيل المثال صدور قرارات تلزم القضاة الشرعيين بتسجيل قراراتهم وأحكامهم في سجلات خاصة، والحفاظ عليها وتكون في عهدة المحكمة.

ورغم محاولات الحفاظ عليها إلا أنه قد تعرض بعض الدفاتر القديمة للتدمير؛ فمثلا الأرشيف الكائن في بورصة عاصمة الدولة العثمانية الأولى منذ قيامها تعرض للضرر عند المعارك التي جرت ضد جيوش تيمور لنك، وهذا سبب لندرة الوثائق التي ترجع لما قبل عهد السلطان الفاتح.

ومن الأمثلة التاريخية المتعلقة بالمحافظة على الأرشيف العثماني واهتمام الدولة العثمانية بهذه الكنوز، فكما هو معلوم بأن الدولة العثمانية شاركت في الحرب العالمية الأولى، وضع الفرمانات السلطانية والأوراق الأخرى التي رأتها مهمة في 208 صندوق في مطلع عام 1915م ونقلها إلى مكان أكثر أمنا هو مدينة قونية في وسط الأناضول، وصدرت الأوامر إلى والي ولاية قونية بالمحافظة على تلك الاوراق من الحريق والرطوبة وغيرها وعدم السماح لأي شخص بالإقدام على فتح الصناديق، ثم عادت بعد مضي عام واحد إلى اسطنبول عن طريق القطار والسفن العسكرية.

وفي مارس سنة1923م تم استحداث جهاز باسم هيئة فرز مخزن الأوراق ضمن كادر مديرية القلم المخصوص في رئاسة هيئة الوكلاء التنفيذيين في البرلمان التركي، ودورها هو المحافظة على كافة أوراق دوائر الصدارة، وتم تعيين محمود نديم بك مديرا لها.

وتطور الهيكل الإداري له في أكثر من مرحلة، ونظرا لأهمية هذا المركز فهو يتبع لرئاسة الوزراء التركية، وتعمل فيه نخبة من الموظفين الأكفاء في مجال المخطوطات وحفظها ومعالجتها من التلف.

ويضم الأرشيف العثماني أكثر من مليون وخمسمائة ألف وثيقة تتناول أخبار وتواريخ مناطق مختلفة في ثلاث قارات وأكثر، ولا شك أن منطقة الخليج العربي لها نصيب وافر من هذه الوثائق، ويوجد 419 دفترا من دفاتر المهمة، وتتناول تسجيل الأحكام والقرارات المهمة التي يجري تداولها ومناقشتها في الديوان الهمايوني في القضايا الداخلية والخارجية، وفي المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من شؤون البلاد العليا، وهي تتناول سنوات 961-1333هـ (1553-1915م)، بالإضافة إلى دفاتر قديمة متنوعة المواضيع ذات أهمية كبرى تتجاوز الألف دفتر.

وتم فهرسة جزء كبير من الوثائق العثمانية في الأرشيف العثماني بكل جد واجتهاد، وقد لمست ذلك خلال زياراتي المتعددة لمركزها في اسطنبول، حيث يبلغ عدد الموظفين العاملين بالأرشفة حوالي أربعمائة موظف من ذوي الاختصاص الفني بذلك، بالإضافة إلى مائة موظف يعملون بالأعمال الإدارية والمالية والإعلامية بالأرشيف، وإدارة الأرشيف لديها خطة للانتهاء من باقي فهرسة الوثائق وتصويرها في عام 2023م بمناسبة مرور قرن على تأسيس الجمهورية التركية.

وسوف نستكمل الحديث عن وضع الكويت في سجلات الأرشيف العثماني القديمة ومراسلاته النادرة في الجزء الثاني من مقالنا بإذن الله، وأبرز المؤلفات التأريخية التي تناولت ذكر الكويت في هذا الأرشيف الهام.

علقمة وشميسة

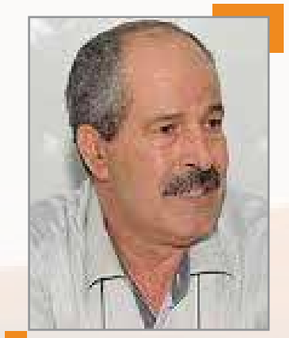

سعيد يقطين
كاتب - المغرب

تنبيه أول: إتمام الدين:

حثّ الإسلام على الزواج، ونهى عن الرهبنة. جاء الوحي ليخبر الرسول (ص) بضرورة أن يتم المسلمون دينهم بالزواج. فسأل من في المسجد عمن لم يتزوج؟ علم أن الشيخ علقمة لم يتزوج. وعندما سئل عن السبب، قيل له بأنه أقسم ألا يتزوج إلا بعد موت أمه. فقال الرسول إن يمينه مردودة عليه، وعليه أن يتزوج. ذهب علي بن أبي طالب ليخبره. لكن كل فتيات المدينة رفضن طلب أمه. فأقسم أن يخرج بحثاً عنها بنفسه، وإلا مات دون تحقيق طلبه.

1. الوصية النبوية: الدعوة النصية:

عول علقمة الخروج بحثاً عن زوجة له في بلاد الروم، راجياً من الله تحقيق قسمه. مر على المسجد لرؤية الرسول وإخباره بما عزم عليه. أوصاه النبي بثلاثة أمور: أولاً أن يسأل والدته الدعاء له، وألا يبارز في الروم بلعبة «بمْفَرَّجْ»، ثانياً. ومتى كان في ضيق أن ينادي علياً بن أبي طالب. نفذ علقمة الوصية الأولى، وخرج قاصداً بلاد الروم. طلب الرسول (ص) من عليّ أن يتقنع، ويركب غير حصانه، ويتبع علقمة، ويحاربه ليرى مدى قوته، وهل ما زال في عنفوان شجاعته وقدرته على الحرب. وإذا عاين تقهقره، أن يطلب منه الرجوع إلى المدينة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ولكن علياً رأى منه حين حاربه فارساً لا يشق له غبار، فعاد، وتركه إلى مصيره.

2. رحلة البحث عن زوجة:

قطع علقمة الفيافي والقفار حتى انتهى إلى صحراء قاحلة، فبدت له خيام منصوبة، وقبة عالية تدل على مقدار صاحبها الرفيع. لكنه لم يسمع حساً آدمياً، ولا جلبة في ذاك الفضاء. وكلما اقترب من الخيام، وهو يتوجه إلى القبة، تزداد وحشته وتساؤلاته وتوجسه. خمَّن أن ثعباناً ضخماً قضى على من كان هناك، أو أصابتهم كارثة قضت عليهم جميعاً. وبوقوفه أمام القبة وجد على كرسي كتلة شعر أسود يملؤه، فصدق ظنه في أن الثعبان صاحب الفعلة. اقترب منه، ولكزه بالسيف، فإذا فتاة رائعة الجمال، وفاتنة يكسوها شعر. طلبت منه مغادرة المكان قبل مجيء خطيبها الملك الخميسان الذي خرج مع جنوده لصيد الغزلان. أعطته صرة مال، ولكنه أصر على سقيه شربة ماء. وهي تمد له الماء اختطفها، وأردفها خلفه وعاد بها نحو المدينة.

تنبيه ثان: أثر عدم تطبيق الوصية الثانية:

عاد الملك إلى القبة فلم يجد شميسة، وبعد بحث العسكر لم يجدوا لها أثراً. استدعى منجميه، فأخبره أحدهم بأن فارساً يتوجه بها نحو مدينة الرسول. بعث إليه أربعين فارساً. بعد رؤية الفرسان رسم علقمة دائرة على الأرض، وطلب منها ألا تغادرها، وإلا عاد إليها وقتلها. قتل علقمة الأربعين، فبعث إليه الخميسان ثمانين فارساً، ولما لم يعد منهم أحد، قرر الذهاب بنفسه. كان علقمة لا يتوقف عن الحرب إلا لأداء الصلاة، ومرة أراد الملك قتله وهو يصلي، فتدخلت شميسة ضد الخيانة. تبارزا مدة ثلاثة أيام، فأحس الخميسان بأن لا فائدة من مواجهته لما عاينه من شجاعته. فطلب منه لعبة بمفرج، ورأى علقمة شميسة تنتظر جوابه، فلم يرض عدم ممارستها، خشية تغيير رؤيتها فيها، وقد ظهر له منها ما بدأ يثير إعجابها فيه. كان فرسان الروم يربطون أنفسهم مع الحصان، وفي هذه اللعبة يقف الفارسان أمام بعضهما، ويحمل أحدهما على الآخر، ويقتلعه من حصانه، ويسقطه أرضاً، ويتعاركان. حاول علقمة اقتلاع الخميسان سدى. وأفلح الملك في إسقاط علقمة، وأسره. وأراد قتله، فتدخلت شميسة، وطلبت منه ألا يقتله إلا في مدينته يوم عرسه، فأوثقه، ووكل به من يعذبه.

تنبيه ثالث: تطبيق الوصية الثالثة:

ندم علقمة على عدم تنفيذه وصية الرسول (ص)، ورأى أن ذلك كان السبب في أسره. فلم يبق له إلا تطبيق الوصية الثالثة التي أمره الرسول بها. فنادى على علي بن أبي طالب، مستغيثاً به. أخبر جبريل الرسول (ص) بما جرى لعلقمة، فبعث إليه علياً، وقد طويت له الأرض فوصل إليه في وقته وساعته. نجح علي في قتل الخميسان بعد أن خيَّره بين الدخول في الإسلام، أو القتل. فكان رفضه سبب موته.

3. من يتزوج شميسة؟

أعجبت شميسة بأخلاق علقمة، وتعامله معها، ولكنها رأت في شجاعة علي ما يرغبها في الزواج منه، مفضلة إياه على علقمة بسبب سنه. وكان النقاش والجدال بين المسلمين بين من له أحقية الزواج من شميسة: هل من خرج من أجلها، وتكبد الحرب والأسر بسببها؟ أمن أنقذ علقمة من الموت، ونجح في حملها إلى المدينة؟ حسماً للنقاش، وانقسام المسلمين بين منتصر لعلقمة، أو لعلي، قضى الرسول بتخيير شميسة، فلم تختر سوى علي. لكن علقمة آلمه ذلك، فرآه غير مقبول. قدم الرسول اقتراحاً آخر، يرضي جميع الأطراف دون أن يغضب أي طرف منهم، فقبله الجميع.

4. الاقتراح النبوي:

يتقنع عشرة فرسان، ويلعبون أمام شميسة بالكرة، ومن أعجبها منهم تكون له زوجة. رضي الجميع بالاقتراح، وهيئ الميدان بخروج الفرسان، وكلهم بزي واحد، ومقنعون بحيث لا تبدو ملامح أي فارس أو علامات خاصة تدل عليه. وبدؤوا اللعب. وبعد برهة أمرهم الرسول بالتوقف، ودعا شميسة لتختار. فلم يقع اختيارها إلا على علقمة. فلم يرض الآخرون الذين لم يختاروا. طلب منهم الرسول مزاولة اللعبة مرة ثانية، فلم تختر سوى علقمة، وحتى في الثالثة كان نصيب علقمة أوفر من غيره رضي الجميع بما اختارته شميسة التي قبلت نصيبها الذي كتبه الله لها. وكان الزواج.

تنبيه أخير: نفاد الدعوة:

أبطلت ضرورة الزواج يمينَ علقمة بعدم الزواج إلا بموت أمه التي ظل يرعاها حتى شاب، ولم يتزوج، وتحقق قسمه بالحصول على زوجته بنفسه.

النبات في تراثنا الشعبي

أ.د. مصطفى جاد
عميد المعهد العالي للفنون الشعبية بالقاهرة

يحتفي التراث الشعبي العربي بتنويعات رائعة بعنصر النبات، فهناك الكثير من المعارف والتصورات الشعبية المرتبطة بأصل النبات، وبذر البذور، فضلاً عن قدرات النبات السحرية والعلاجية، إذ يُعد تعليق النباتات في المنزل من المعتقدات العربية الشائعة كتعليق عود الند على البيوت الجديدة لإطالة عمر أصحابها، وكذا تعليقها على المنازل الجديدة تبركًا بها وأملاً في حياة سعيدة، وتعليق بعض أشكال الخوص للحماية من العين.

وهناك علامات مرتبطة بالنبات كبعض الإشارات المكتوبة على الثمار، منها اسم الجلالة، أو أسماء الأنبياء، على نحو ما نجده في التين الغرابي الذي يُزرع بالإسكندرية، ويُعتقد أنه قد يكون مكتوباً بداخله اسم الجلالة أو اسم النبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل في هذا الإطار أيضًا رسم علامة- كخاتم سليمان- على كومة محصول الحبوب بعد إعدادها وقبل كيلها، فضلاً عن النباتات المقدسة كنبات البلسان.

والنبات- كالإنسان والحيوان- قد يمرض، ويحتاج لبعض العلاج، مثل مرض البياض الذي يظهر بسبب جفاف سباط البلح. إلخ.

كما ترتبط الأشجار والنخيل بالكثير من المعارف والتصورات أيضًا كتفسير خلق الأشجار، وقدراتها الخاصة، مثل شجرة الأرغان التي تُعد من الأشجار النادرة، والتي تشتهر بزيتها الذي هو أندر الزيوت في العالم لكثرة فوائده، وتنتشر الشجرة في جنوب المغرب وبعض مناطق الجزائر وفلسطين، وارتبطت بكثير من المعارف والممارسات الشعبية، وقد سجلها المغرب على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية عام 2014 تحت عنوان «الممارسات والمعارف العملية المتعلقة بشجر الأرغان».

أما الأشجار السحرية، فهي كثيرة ومتعددة، ففي الإمارات يشتهر "كف العفريت"، وهو ورق شجر يُعتقد أنه يفيد في العلاج من الحسد، و"النارية"، و"العتم"، وهما شجرتان خرافيتان يُعتقد في قدرتهما على طرد الجن والشياطين. وهناك أيضًا الأشجار المقدسة مثل "شجرة الزيتون" و"شجرة الميلاد"، والتي يُحتفل بها في عيد ميلاد السيد المسيح. وفي اليمن تشتهر "شجرة دَم الأخَوَين" التي تُعرف أيضًا بـ "شجرة دم التنين" أو "شجرة دم العنقاء"، وتتخذ شكل مظلة مقلوبة، وارتبطت هذه الشجرة بالأسطورة التي تحكي قصة أول قطرة دم بين الأخوين قابيل وهابيل، وهما أول من سكنا جزيرة سقطرى، وعندما سال دم هابيل على يد قابيل نبتت في المكان شجرة دم الأخوين.

وفي الأردن تشتهر أسطورة القرون، وهي أسطورة قديمة تناقلتها الأجيال، تحكي أن هناك فتاة كانت تربط قرنها الطويل بأغصان الشجر، وتتمرجح بها، وكان جميع سكان المنطقة يخافون منها.

وفي مصر تشتهر "شجرة مريم" وهي الشجرة التي استظلت بها العائلة المقدسة (السيدة مريم العذراء، والسيد المسيح، والقديس يوسف النجار) بالمطرية في القاهرة. أما "شجرة النبي موسى" فهي شجرة العليقة الموجودة بدير سانت كاترين، وهي الشجرة المقدسة التي ناجى عندها نبي الله موسى ربه، وهي شجرة عُرفت بكونها مثمرة وخضراء طوال العام.

وفي إطار الممارسات المرتبطة بالزراعة واستنبات البذور هناك الكثير من الأدعية والصيغ التي تُردد عند زرع النبات، وفي مواسم الزرع والحصاد تقام الممارسات والطقوس المتبعة لزرع المحاصيل وجنيها، مثل: زرع البلح، وزرع القصب، وزرع القطن، والحصاد. إلخ، ويشتهر ارتباط المواسم الزراعية بالتقويم القبطي، وقد لخصتها الجماعة الشعبية في بعض المأثورات القولية مثل: برمهات روح الغيط وهات- هاتور أبو الدهب المنثور (كناية عن جني القمح).

ويدخل في إطار التراث الشعبي والنبات أيضًا التفاؤل ببعض النباتات والتشاؤم من بعضها الآخر، فضلاً عن تفسيرات الأحلام المتعددة عند ظهور النبات في الحلم، منها تفسير ابن سيرين الذي سجل في كتابه عن الأحلام التفسيرات التالية حول رؤية النبات في المنام:

- إن رؤية النباتات في المنام تكون من الأشياء الجيدة للشخص صاحب المنام.
- إذا قام شخص ما برؤية نفسه في المنام وهو يسير بين النباتات ويعمل على جمعها أيضًا، فإن تلك الرؤية تكون دليلا على تمكن الشخص صاحب هذا المنام من فعل كل ما يرغب فيه ويحلم به.
- أما إذا كان الشخص في منامه يعمل على زراعة بعض النباتات الخضراء إلى جوار البيت الخاص به، دلت تلك الرؤية على أن الشخص صاحب هذا المنام سيجمع الكثير من الأموال.
- إن رأي الشخص نباتات خضراء في منامه وكان في الأصل هذا الشخص مريضا كانت تلك الرؤية دليلا على أنه سيتمكن من الشفاء في وقت قريب بإذن الله تعالى.
- إن رأي الشاب نفسه في المنام يعمل على سقاية النباتات دلت تلك الرؤية، على أن هذا الشاب سيتمكن من الزواج من فتاة ذات أخلاق حسنة في أقرب وقت بإذن الله.
- لكن إن قام شخص برؤية نفسه في المنام يجمع بعض النباتات ذات اللون الأصفر، كانت تلك الرؤية دليلا على أن الشخص صاحب هذا المنام قد اقترب موعد نهايته.

وهناك الكثير من عناصر التراث الشعبي المرتبطة بالنبات كالمرسمات الشعبية النباتية التي سجلتها الفنون الشعبية على جدران المنازل، والزخارف النباتية على النحاس، والفخار، والرخام، والخشب. واستخدام النبات في العلاجات الشعبية، وطرق وأساليب الزراعة، وفنون الأداء الشعبي.. وسنعرض لها في الأعداد التالية.

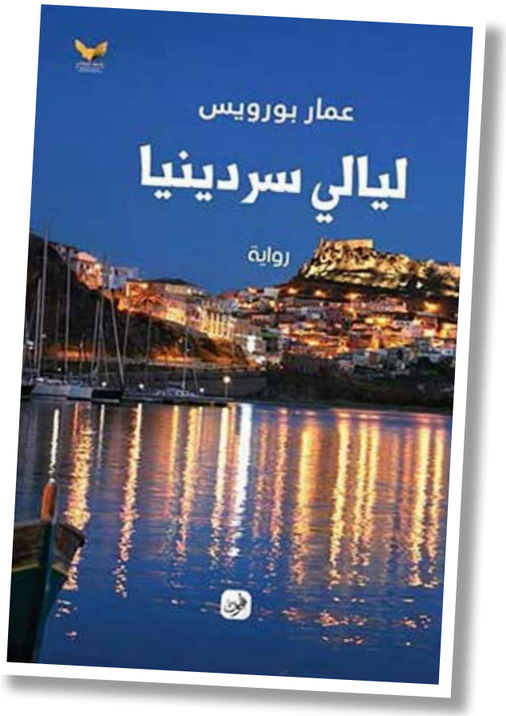

خالد عمر بن ققة
إعلامي - الجزائر

للعرب من أحداثها نصيب:

«ليالي سردينيا».. رواية «يوم أن كانت الجزائر كلّها زَبُّوجة»

«للتراث حضور في النصوص الأدبيَّة ـ شعراً ونثراً ـ يُجَمِّلها وجوداً، ويزْوِي تجارب البشر من خلال شخوصها، والتعبير عن العلاقات والأفعال والقيم، ويُشكّل بُعْداً معرفيّاً تُطْوى فيه الأزمنة طيّاً، من حيث الرجعى والصدى، ويعيد تعمير الأماكن، سواء أكانت أطلالاً في الذاكرة، وفي الواقع، أم كانت متواصلة في رحلة الحياة، حيث استحضار التأسيس في الرّاهن، وفي النهاية تعدُّ النصوص الأدبية موروثاً ثقافيّاً حيّاً، قد يُسْهم في متعة المطالعة، ويُضْفِي ويضيفُ لنا مزيداً من المعرفة.. هنا قراءة في رواية «ليالي سردينيا».

منذ أن صدرت رواية «ليالي سردينيا» للكاتب والإعلامي الجزائري عمار بورويس، الصادرة عن منشورات «الوطن اليوم» في الجزائر (نوفمبر2022) هزني الشوق لقراءتها، وربما يكون السبب، نمط العلاقة الذي يربطني بمؤلفها، فهو صديق جمعتنا الصحافة خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي في «مجلة الوحدة»، التي كانت فضاءً مفتوحاً لكل التيارات والرؤى والتوجهات لشباب أجمع على حبِّ الجزائر، ورآها في غدها ـ الذي لم يحن بعد ـ تحقق أحلاماً وآمالاً، حدودها العالم.

وقد يكون السبب السابق عاماً، من حيث علاقة جمع من الصحافيين ببعضهم بعضاً، ومنهم عمار بورويس، بمعنى أنني أتساوى فيها مع جمع من أصدقائنا، الذي ظلوا مرابطين داخل الوطن، وماسكين به بجمر مبادئه وقيَمِه وتضحياته، حين تشعبت بنا السبل، وغدا حلمنا الأكبر أن ننام ليلة هادئة تحت ظل شجرة في «الأخضرية»، قبل أن ننهي رحلتنا في العاصمة.

بورويس.. و«جنة الخلد الدنيويَّة»

مثلما أتساوى في علاقتي بعمار بورويس مع أمثالي، أولئك الذين ظنُّوا أنهم في مغادرتهم خارج الوطن قد ينجون بأنفسهم، وببعض أهليهم، في زمن «التوحش»، ثم أبعدتهم رحلتهم تلك أو هربهم القسري عن إمكانيّة العودة إلى الجزائر، فظلوا معلقين بين قناعات ترسخت في عقولهم وقلوبهم، ألّا يبغوا عن الجزائر بديلاً، باعتبارها «جنة الخلد الدنيوية»، وبين وقائع سنين ـ وهي وإن تحققت فيها بعض الأماني ـ تمثل سنوات نار، ستظل تكويهم، وتصعد زفراتهم، وإن أبدوا غير ذلك.

غير أن هناك من الذكريات الخاصة التي تجمعني بعمار بورويس، وأقصد تحديداً هنا ذكريات رحلتنا إلى القاهرة، حيث أراها غارقة في الخصوصية من حركة أيامها ومواقفنا منها، ونظرتنا للاختيارات الكبرى في زمن الشباب، الذي ذهب من دون رجعة، ولم يبقَ محفوظاً منه في أخاديد عمرينا إلا الخاص جدّاً، أو المشترك بيننا.

إذن، على خلفيَّة الشوق بِنَوْعَيْهِ الخاص والعام، انتظرت حصولي على رواية «ليالي سردينيا»، وبعد أسابيع قليلة من ظهورها في الأسواق، وصلتني من الصديق الدكتور نصير بوعلي، الذي كان سعيداً بصدورها حتى قبل قراءتها، وزادت سعادته بعد الاطلاع عليها، ولاشك في أن الجامع بيننا هنا هو صديقنا المؤلف عمار بورويس، ففيه نرى أنفسنا، ليس فقط للمشترك بيننا، وإنما لأننا نرى في عمله هذا قول فصل: «إن جيلنا الذي تحكَّم في الصحافة وتحكَّمت فيه، وعشِقها وعشقتْه، سيظل مصدراً للعطاء في كل مراحل العمر».. ها هنا إذن يفرحنا بورويس، ويُجمِّل حياتنا، ويُعيد تباهينا بمنجزنا الإعلامي، حتى بعد أن أصبح فاعلاً ومنتميّاً للإعلام المرئي.

«الزبوجة».. و«زبوشة»

رواية ليالي سردينيا لا تكتفي فقط، كما يشير عنوانها، أو كما ذكر بعض النقّاد والقرّاء «بمنح القارئ جواز سفر ينتقل من خلال صفحاتها بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط»، إنما هي أيضاً وعلى نطاق واسع، تمثل: «عمر الجزائريين وتجارب ذكرياتهم خلال العشرية الدموية، التي تعدت فضاءها المحلي لتسكن من خلال شخوصها، وتحديداً بطلها رشيد، الفضاء الآخر، الأوروبي، الذي لم نستطع التخلص منه رغم العمر الطويل من الكراهية».

تدور أحداث رواية ليالي سردينيا في حيِّزَيْن مختلفين مكاناً وزماناً، الأول: أساسي ومرجعي، هو قرية «زبوجة»، ممثلة هنا للجزائر كلها، واسم القرية هنا مثير للانتباه، وقد بحثت عن معنى اسم زبوجة، وموقعها، فوجدته معرفاً هكذا «الزبوجة»، ويطلق على دائرة في ولاية «الشلف»، وهي من أقدم دوائرها، كما وجدت قرية ببلدية «عين الترك» في ولاية «البويرة»، تحمل اسم «زبوجة»، وربما يكون هناك غيرهما، وهذا الاسم دفعني إلى طرح السؤال الآتي:

ـ ما معنى، اسم «زبوجة»؟ ومن أين جاء به الكاتب؟ وأيّ رمزية يحملها؟

بحثت عن إجابة مقنعة، تأتي من 37 سنة خلت، عرفت فيها أن عمار بورويس من ولاية سكيكدة، وفي ذلك الزمن الماضي كان كل واحد من أبناء الجزائر، يعرف بنفسه من خلال ولاية، ولم يكن يعنينا كثيراً من أي قرية أو ريف أو دشرة أو دوار، ومنذ أيام قليلة فقط علمت أن بورويس من قرية الزيتونة، ولكن لميراثه الوطني، وحسّه الراقي، ومواقفه المبدئية، ولعشقه للجزائر كلها، جعل الخاص في خدمة العام، ولهذا اختار اسم زبوجة.

وعن اختياره لهذا الاسم مسرحاً لمعظم أحداث روايته، كتب لي، حين استفسرت منه، قائلاً: «زبوجة قرية خياليّة، ترمز لكل قرى الجزائرية، ومعناها بالأمازيغية: الزيتونة، والزيتونة، هي قرية موجودة فعلاً، تقع في ولاية سكيكدة، وهي مسقط رأسي، فضّلت ألا أذكر اسم الزيتونة، وفضلت استعمال زبوجة حتى تكون هذه القرية رمزاً لكل الريف الجزائري».

قبل أن أسال بورويس، عن اسم «زبوجة»، كان صديقنا المشترك، وابن ولاية سكيكدة أيضاً، الدكتور محمد شطاح، قد عمَّق فهمي لمعنى زبوجة لجهة اشتقاقها من كلمة «زبوشة»، والتي تعني شجرة الزيون، التي تعطي ثمراً لا يفيد الناس، وفي الغالب تأكله الدواب والحيوانات والأنعام والطيور، ويطلق هذا النوع من الشجر «الجايحة».

لو كانت المدن نساء

الحيز الثاني لفضاء الرواية وأحداثها يأتي تابعاً من ناحية الذكريات للحيز الأول، ولكنه ليس كذلك، من حيث الوجود، فالبطل رشيد يعيش من سنين في فرنسا، وبعض أيامه في جزيرة سردينيا، التي روى فيها للكاتب قصته محاولاً تغليب حاضره عن ماضيه، لكن هيهات لما يَعِد نفسه من رجوع تستوطن فيه النفس، لكن هذه الأخيرة تأبى أن تطوع له، نتيجة لما عاشت من ويلات، وما فقدت من أمان، ومع ذلك فإن زبوجة أكبر من أن تنسى؛ لأنها فرضت على بطل الرواية، وعلى جميع سكانها، وعلى الإعلام اعترافاً بدورها في صنع الأحداث من سنوات الثورة إلى سنوات التوحش، ودفعت في الحالتين أرواحاً، لكن في الثورة كانت من أجل أن يجتمع على أهلها، وفي سنوات التوحش، كانت لدفعهم إلى هجرة لا يرون بعدها منقلباً، وشتّان بين عمل يدفع نحو البناء، وآخر هدفه التدمير والخراب.

زبوجة، وعلى لسان بطل الرواية، صانعة للحدث إعلاميّاً لجهة المتابعة والمشاهدة، وسعياً مقصوداً لمعرفة «الغيْر» على الضفة الأخرى؛ لذلك لا غرو حين يقول بطلها رشيد: «كانت زبوجة، ومازالت كما أظن، منطقة نفوذ لكثير من القنوات التلفزيونية والإيطالية، فهي ذات موقع لا مثيل له، وصفها لنا أستاذ الجغرافيا في المتوسطة ذات يوم حين قال: لو كانت المدن نساء لكان بإمكان زبوجة أن تلقي تحية الصباح كل يوم لباليرمو في صقلية، وطبرقة في تونس، في يوم واحد». (ص 26)

تلك القرية، التي تبدو من ظاهر الوصف والقول مدينة، تعبّر في سيرورة أحداثها عن الجزائر كلها، وكذلك الأمر بالنسبة لصيرورة أهلها بعد سنوات اكتساب المعرفة من خلال المطالعة، وخاصة رشيد بطل الرواية، الذي قال عنه المؤلف، قبل سماع تفاصيل هجرته من زبوجة: «كان رشيد كثير الحركة، سريع الكلام، مشاغب حدّ الجنون، يطالع كثيراً روايات المنفلوطي وجرجي زيدان، والطاهر وطار، وعبدالحميد بن هدوقة». (ص13)

تداخل الأمكنة.. والأزمنة

لاشك في أن بورويس يرجعنا عن قصد إلى مشاربنا الفكرية، مثلما يحدثنا عن حاضر الجزائر من خلال ماضيها القريب والبعيد، وفي ذلك عمل يتجاوز التذكير إلى البيان، ومن خلاله نوجد جميعاً على مسرح الحياة المعاصرة للجزائر، التي لا يمكن اختصارها في سرد لتسجيل حياة شخص، هو البطل، خلال أسبوع بعد ثلاثة عقود؛ لأنها كما قال المؤلف، وكشف عنه في الصفحات الأولى من كتابه، ثم وضحه بدقة وأمانة للفصْل بين قوْله وقصة حياة رشيد: «أقمتُ في سردينيا أسبوعاً واحداً فقط، أو هكذا اعتقدت، ولم يكن ذلك الأسبوع في نهاية الأمر يشبه بقية الأسابيع.. كان عمراً كاملاً مفتوحاً على ستين عاماً من تاريخ قريتي الصغيرة هناك في الريف، على الساحل الشرقي للجزائر، مرّ أمامي كشريط سينمائي أخاذ.. هكذا حدث الأمر من دون مقدمات.. ومن دون أن يظهر لي، في البداية؛ أي سبب واضح، يربط بين ضفتي المتوسط بمثل تلك السهولة والمرونة».

كان عمر قرية زبوجة في ذاكرة بورويس حاضراً، وكذلك أحداثها، وتاريخها، وعلاقات الناس فيها، لكن كل ذلك يحتاج إلى تثوير، وقد وجد ضالته في حديث رشيد، سواء من خلال المشترك بينهما، أو الخاص برشيد قبل سفره إلى فرنسا وبعده، ما يعني أن ذلك الحضور من ناحية استرجاع الأحداث، وما تبعه من مقارنات بين عوالم مختلفة في فضاء زبوجة تولدت على مستوى المنجز ـ القليل ـ والمواقف من الحقبة الاستعمارية، كان يحتاج إلى فضاء للحديث يتم فيه الفصل بين زمانيْن ومكانيْن، وهو ما حدث بالفعل في سردينيا، التي كانت لياليها القليلة بالنسبة للمؤلف والراوي معاً عمراً بطول الأمد.

ومثلما يتحدث المؤلف عن تفاصيل قرية زبوجة، حيث التداخل الواضح بين الأمكنة والأزمنة من جهة، وبين الاجتماعي والسياسي من جهة ثانية، منذ الاستقلال إلى غاية عام 2020، يروي أيضاً بعض تفاصيل المكان في سردينيا، وهو يشق طريقه نحو سرد مقبل من شخص يبدو عادياً مقارنة بما قام به كثير من الجزائريين في سنوات التوحش، إلى جعله بطلاً في فعله، وفي قصته وفي حله وترحاله، فإنه أيضاً يجعل من شوارع سردينيا مدخلاً لمعرفة جغرافيا المكان، لنتأمل قوله: «سِرنا معاً نستحضر دفاتر الصبا، خرجنا من الميناء الترفيهي نحو حديقة كثيفة الأشجار، ومنها إلى شارع كولومبس، قبل أن نصعد باتجاه شارع ريجينا مارغريتا، الذي كان خالياً من حركة سير العربات في ذلك الوقت». (ص 8)

هنادي السُّورية.. بنت زبوجة

سير المؤلف مع بطل روايته، ثم حديث الأخير عن تجربته الحياتية المعروفة منها والمجهولة بالنسبة للمؤلف، وتركيزه على محطات من حياته دون أخرى، جميعها تمثل في التعبير عنها نوعاً من الراحة النفسية التي ظل رشيد يبحث عنها منذ أن غادر قرية زبوجة مكرهاً، تاركاً زوجته ووَلَده في كنف وَالده المجاهد، وإلى أن أقام عند خاله «الحركي» في فرنسا، وما تلا ذلك من إحضار أسرته، ثم حضوره إلى سردينيا في انتظار ابنه القادم مع عصابات تهريب البشر إلى أوروبا في هجرة غير شرعية، أصبحت حلماً وأمنية لكثير من الشباب، ولاتزال.

غير أن انتظار البطل ابنه في سردينيا، كان في الزمن المشترك مع زوجته التي لم يخبرها بقدوم ابنهما ضمن قوارب الهرب، عودة إلى حيث البدايات، حيث الحب في فترة الصبا الذي نشأ نديّاً وشفَّافاً بينه وبين زميلته في المدرسة هنادي، السورية، التي كانت رفقة أبيها المعلم في مدرسة «زبوجة».. تلك الفتاة التي عادت مع أبيها إلى سوريا، وهناك كبرت وتزوجت من طبيب، وحين اشتدت أهوال الحرب في سوريا بين الأطراف المتصارعة في زمن «التوحش السوري»، هربت مثل الملايين إلى ألمانيا، وقد رآها رشيد على شاشة التلفزيون، في لقطة عابرة، ضمن تحقيق تلفزيوني عن اللاجئين السوريين، فقرر الذهاب إلى ألمانيا للبحث عنها، ولكنه لم يفعل، وذهب إلى سردينيا لانتظار ابنه الهرب من الجزائر.

وبالإشارة إلى الجانب السابق من أحداث الرواية، تتكرر لنا حياة البطل في قرية زبوجة، في حالة هي أقرب إلى الاستنساخ في دول عربية أخرى، وما حدث في سوريا منذ مارس 2011 وإلى الآن، هو تكرار لما حدث في الجزائر خلال العشرية السوداء، وبغض النظر عن أطراف المشتركة في الفتنة داخل البلدين من الداخل والخارج.. قوى شرّ فرضت على أهل الدولتين ـ كما في زبوجة ـ نمطاً من الحياة جعل الشرفاء من الناس هنا وهناك يقاومون، ويضحون بأنفسهم، في تجاوبٍ مع قول بطلة الرواية: «لا أحد يكبر على حماية الوطن، وصيانة الشرف، والدفاع عن الأرض». (ص 84).

عبدالله خلفان الهامور
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

- «الجار قبل الدار».
- «الصديق قبل الطريق».
- «خل لك صديق في كل طريق».

حكم وأمثال كنا نسمعها ونحن صغار، وتتأكد لنا في كلّ وقتٍ وحين، من باب الحذر والأخذ بالأسباب، والحماية من شرور المستقبل، كنا نعمل بهذا النصح والتوجيه من شوابنا وآبائنا؛ لأن المخالفة قد تكلفنا الأمر الكثير، فكان السابقون كلٌّ منهم يختار جاره بعناية، ويصاحب الشخص صاحب الخصال والمعاني الحميدة في حال السفر؛ لذلك كنا نرى التوافق الكبير بين الجيل السابق في المعاني والآداب، فكان أحدهم يطلب أن يسكن، ويضع بيته عند أحدهم؛ لأنه معروف بأخلاقه وسمعته الطيبة، وكان أحدهم إذا أراد أن يذهب إلى مكان بعيد، يرى له صاحباً يرافقه، ذا نخوة وشهامة وأخلاق، وكانوا يختبرون بعضهم بعضاً في السفر والجوار؛ لذلك يقال «ونِعم الرجل، سافرنا معه!»، أو «ونعم الرجل، سكنا جواره، فما رأينا منه إلا كل طيبة وحشمة!»، هكذا كانت تنتشر بينهم الفضائل والخصال الطيبة، وهكذا كان المجتمع يتربّ ويُربي.

يُحكى أن رجلاً في الزمن القديم قال لولده: إذا أنا متّ، فإني أوصيك بأن تبني لك في كل بلد حصناً، وإذا غلبك أمر، فعليك بفلان في البلد الفلاني.. فمات الأب بعد فترة، وقد ترك لولده أموالاً كثيرة، فقام الابن يعمل على تحقيق وصية والده، وكلما زار بلداً بنى فيها حصناً، حتى نفد كل ماله، وأشرف على الفقر، فقد أنفق كل ما يملك على بناء الحصون، وذات يوم وهو يفكر في الحال التي وصل إليها جراء وصية والده، جاء في باله الرجل الذي كلّمه والده عنه ذات مرة، أنه في حال صعب عليه أمر أن يذهب إليه ويستعين به، فغادر المكان متجهاً إلى تلك المنطقة، وسأل عن الرجل والتقاه، وأخبره بأنه ابن فلان صديقه، وأن والده قد مات، وأوصاه بتلك الوصية، وقد عمل بها حتى نفد كل ما يملك من مال، والآن أشرف على الإفلاس، ولايزال في معتقد الابن أنه بهذا العدد القليل من الحصون لم يُوْفِّ بوصية والده، فقال له الرجل الحكيم صاحب والده: يا بني، إن والدك لم يكن يقصد أن تبني حصوناً من الطين والحجارة، ولكن كان يقصد أن تجعل لك صديقاً في كل بلد، فإن الأصدقاء حصون، يلتجئ بعضهم إلى بعض، وهذا هو معنى أن تجعل لك حصناً في كل بلد!

وعن الجوار، فقد سمعت قصة، ويحق لهذه الحكاية أن تنشر، حتى لا ينقطع ولا ينتهي حُسن الجوار بين الناس، وحتى لا يظن الناس أن الجار الكريم لا وجود له في هذا الزمان، حيث يُحكى أن أحد الرجال أراد أن يبني جداراً في داره بالقرب من بيت جاره، وأثناء البناء، انهدم ذاك الجدار وسقط على بيت الجار، وهدم جزءاً من بيت جاره، فاستحى الرجل من هذا الأمر غير المقصود، وبعث إلى جاره برسالة يشرح له فيها ما حصل، وأنه يعتذر، ويرجو منه العفو والمعذرة. فما كان من جاره، وقد كان شاعراً، إلا أن أرسل إليه بيتين من الشعر، يقول فيهما:

عدّلْ وبدّلْ واهدمْ جْدار بجدار
ووسعْ مكان الضيف منا ومنا
كلي فداكم يا طويلي لعمار
لكن طلبتك لا تشدون عنا

يقول له: عدّلْ وبدّلْ كما تشاء، واهدمْ كل جدار، ولا عليك، لكنّ لي طلباً عندك، ألّا تنتقل عنّا، وتطلب جوار غيرنا، فلا يكون هذا الأمر سبباً في رحيلك عنّا، فنحن بحاجة لأمثالكم، ونفديكم بالعمر، ونرضيكم بكل شيء. نحن الآن بحاجة لمثل هؤلاء الرجال، ولمثل هذه الخصال والصفات النبيلة، حتى نسكن بجوارهم، مثل هؤلاء إذا غبت عن دارك سألوا عنك، وإذا سافرت رعوا بيتك، وإذا مرضت كانوا معك، وكأنهم هم المرضى، وإذا بدر منك أو من أولادك ما يضرّهم، عفوا وستروا عيبك، وإذا سُئل عنك أثنوا عليك، وإذا فارقتهم لم يغتابوك.

لذلك كان شوابنا حريصين كل الحرص على اختيار الجار والصديق بعناية فائقة، فإن هذا الاختيار سوف تترتب عليه أمورٌ مستقبلية بالسلب أو بالإيجاب، على حسب الاختيار ونوعية الجار والصديق الذي جاورته أو صادقته؛ لذلك على شبابنا وأولادنا أن يعتنوا بهذا الأمر، ولا يتهاونوا فيه، فإن نهاية الأمر تعتمد على حسن الاختيار، فإن الجار الكريم، والصديق النبيل، هما نعمة من نِعم الله علينا، لو تدبرنا الأمر جيداً.

وعلى شبابنا أن يعرف قيمة الصديق، ويدرك في الوقت نفسه أن الصديق قد يكون هو المصير الذي سوف تكون عليه شخصية الفرد في المستقبل، فإن كان صالحاً فنعم الاختيار، وإن كان غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه، ولا تنفع عندئذٍ الحسرات عندما يقال: «يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً».

مكنسة الحوش الجديد

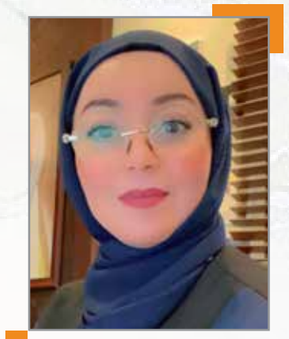

عائشة مصبح العاجل
كاتبة وإعلامية - الإمارات

الحوش القديم كانت تحيطه نخلات عِظام، تظلله، وتتوسطه شجرة لوز كبيرة، تملأ أوراقها الحوش في فصل الخريف، وأمي لا تيأس من كنس أوراقها وتجميعها للغنم في «زرب: حظيرة» في طرف البيت، يضم غنماتها وتيس فحل «أشهل: أبيض» ودجاجات وفراخها تحوم ولا تهدأ خلفهم قطة مرقعة، وديك صياح وصوت أمي كلما صاح: «رب أسألك من فضلك العظيم»، تقول أمي إن الديك يرى الملائكة، فيصيح من هول ما يرى، فتردد هي أدعيتها ونحوم نحن الصغار حولها نلعب مع القط والدجاجات ونطعم الغنمات، ثم نهدأ تحت اللوزة وظلها الوارف، وقد افترشت أمي حصيرها وقت الضحى لشرب شاي المقيل مع الصويحبات.

لوزة الحوش لم تكن فقط مكان الهدأة والسكينة، بل حملت تحت جذعها الممتد للسماء وكثرة أوراقها قصص وسوالف ووجوه صويحبات أمي، وهي حين تكنس الوريقات المتساقطة تلمّ معها ما بقي من حكايا، وتدندن ما بقي من أغانٍ، وتعيد على نفسها بعض أسرار كتمتها إلا عن شجرتها.

وجوههن حتى اليوم ترتسم في مخيلتنا، وكلما هبت رياح الوقت نكتشف أنها تسكن فينا، كما الحكايا الباقيات منذ ذاك الزمن الجميل.

يراودني خاطر أن الوجوه ولو تغيرت تبقى ملامح بعضها تشيء بسحر من الماضي، تكتسي بحلي الوقت الجميل، وتنتعل تفاصيل الرمل الممزوج بعرق الكادحات، المتفانيات من أجل حيوات جديدة لأبنائهن وأزواجهن. وتبقى حاضرة أمامي كلما مر الوقت برزت أكثر ملامح صويحبات أمي، وحليهن، ونقوش ملابسهن، وحتى خضاب أناملهن، ورائحة الورد في خصل الشعر المعجفة والمجدولة بإتقان، والعطر والبخور، وصوت فناجين القهوة والمداجل والحجول، كن جميلات واستثناء، فلا تلوين ولا نفخ ولا شفط، كنَ بسيطات ملامحهن حياة، وبقايا خطوط الزمن ومكدته على أيديهن وأرجلهن.

تبدلت مكانس الحوش، وحتى شجراته، واختلفت الوجوه، وتشكلت كما تتشكل الفصول، حتى إنه لم تعد بيوتنا تضم حظيرة ولا دجاجات، وما عدنا نربي تيساً ولا غنمات، وأصبحنا بلا حكايات بعد أن تبدلت الوجوه، أصبحنا نكنس من حواضرنا ما تبقى من ذكريات عالقة في زوايا البيت العتيق والحوش وجذع النخلة واللوزة كي نتماشى مع أيامنا، أصبحنا نزيل غبار الذكريات علّنا نشبه الحاضر أو نتماثل مع المستقبل المنظور...

شجار الأزواج
في الحكاية الهزليّة الأوروبية

د.محمد الجويلي
أكاديمي - تونس

ثمّة جنس أدبي شعبي هزلي غرضه الإضحاك عرف نجاحا باهرا في أوروبا منذ العصر الوسيط إلى اليوم يُعرف في فرنسا ب» لَفارص « (La Farce) وفي إيطاليا بالكوميديا الفنّية Comedia del arte) وفي البلدان الناطقة بالإنجليزيّة (The Stuffing)، وله ما يعادله في الثقافة الشعبيّة العربيّة في أجناس سرديّة تتميّز بقصرها مثل المُلح والنكت والنوادر.

للإضحاك جمالية خاصة في هذا الجنس من الأدب الشعبي الذي كثيرا ما يكون الموضوع المحبّذ له الشجار بين الأزواج في الحياة اليوميّة. وهي جماليّة يستمدّها من انقلاب المواقف والحالات من النقيض إلى النقيض، وعادة يكون بين مشهدين متنافرين يفصل بينهما حدث ما في حركة يمكن تشبيهها بالوضع الذي تكون عليه كفّة الميزان التي كلّما ذهبت في اتّجاه ووصلت إلى منتهاها، تعود أدراجها إلى الاتجاه المعاكس تماما.

من أفضل الأمثلة على ذلك حكاية "حوض الغسيل" (Cuvier) الشهيرة التي يبدو أنّ أصولها إيطاليّة من منطقة "بيكاردي". وهي حكاية مجهولة المؤلّف دُوّنت لأوّل مرّة سنة 1532، فذاع صيتها في أوروبا، خاصة في فرنسا وسويسرا، تتحدّث هذه الحكاية عن رجل يُدعى "جاكينو" (Jacquinot) يخضع خضوعا تاما لزوجته ولأمّها أي حماته اللّتين تجبرانه على القيام بالشؤون المنزليّة مثل الطبخ وغسل الأواني والملابس ، فتقدّمان له كلّ يوم قائمة الأعمال التي ينبغي عليه إنجازها منذ نهوضه من النوم صباحا، إلى أن ينزل الليل ستاره ويذهب إلى فراشه.

وفي يوم من الأيّام لمّا كان يساعد زوجته في عمل منزلي على حافة حوض كبير من الماء يُستعمل لغسل الملابس والأفرشة المتسخة تعثرت زوجته وسقطت في هذا الحوض. صرخت المرأة وبدأت تستغيث متوسّلة إلى زوجها أن ينجدها وينتشلها من الحوض حتى لا تموت غرقا. غير أنّه رفض ذلك بحجّة أنّ إخراجها من الحوض غير منصوص عليه في قائمة الأعمال المنزليّة التي يتعيّن عليه إنجازها يومئذ. وبعد أخذ وردّ قرّر شفقة عليها أن ينجدها، لكن بعد أن حصل على وعد منها أن يكون من ذلك اليوم فصاعدا هو سيّد المنزل والآمر الناهي فيه.

حدث الانقلاب في الأحداث برؤية الزوجة بعد أن كانت مستبدّة مضطهدة لزوجها ومما يدلّ على طغيانها قائمة الأعمال اليوميّة التي تمليها عليه هي وأمّها، والتي ينبغي عليه إنجازها "مكرها أخاك لا بطل"، وهي ضعيفة تتوسّل إليه مغلوبة على أمرها لينقذها من الهلاك.

رؤية الزوج يردّ الصاع صاعين منتقما من زوجته وساخرا منها يذكرها بقائمة الأعمال الملعونة التي أوثقته بها ولا تنصّ على إخراجها من الحوض إذا وقعت فيه، فيقيّدها بالحبل الذي أوثقته به هو الذي يولّد الضحك وعليه تبني جماليّة الحكاية.

(لوحة 5) منافرة الديوك على الخزف، الفاطمي ق 6هـ/12م. (متحف الجزء بالزمالك)

الألعاب الشعبية بمصر

في العصر الإسلامي

أ. د. عبد العزيز صلاح سالم
رئيس قسم الآثار الإسلامية
بكلية الآثار جامعة القاهرة

تكمن أهمية دراسة الألعاب الشعبية في مصر الإسلامية في تتبع الإشارات الواردة بالمصادر التاريخية والنقوش الأثرية. وبيان حرص طبقات المجتمع المصري على ممارسة الألعاب الشعبية، مثل: سباقات الحمام، ومناقرة الديوك، ومناطحة الكباش، والمصارعة، والتحطيب، والألعاب البهلوانية في الاحتفالات بالأعياد والمناسبات الدينية بالشوارع، والميادين، والساحات.

وقد حظيت النقوش والفنون الإسلامية بتصوير الألعاب الشعبية على موادها المتنوعة، التي رصدت مناظر الألعاب الشعبية في مصر، انطلاقاً من أهمية التراث الشعبي، كونه النسيج المتكامل من المعتقدات، والمعارف، والتقاليد، والعادات، والفنون، والآداب.

انتشرت الألعاب الشعبية في مصر الإسلامية، فقد كانت سباقات الحمام ومناقرة الديوك ومناطحة الكباش حيث انتشرت لعبة سباقات الحمام في مصر، ويحكى أن الخليفة المعز لدين الله، سابق بحمامه حمام الوزير أبي الفرج يعقوب، فسبق حمامه حمام الخليفة، فعظم ذلك على المعز. ويمكن القول إن سباقات الحمام عرفت في مصر في العصر الفاطمي، وقد سابق بالحمام أيضاً الخليفة العزيز بالله، وسابق حمامه مع حمام الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس، وزيره. وكذلك فقد اهتم نور الدين محمود زنكي بسباقات الحمام.[1]

وفي العصر المملوكي صار هذا اللون من الموروث الشعبي منتشراً بين كل الطوائف، وقد شغف السلاطين المماليك باللعب بالحمام وسباقاتها، وقد أثر عن السلطان المنصور قلاوون أنه كان يلعب الحمام مع الغلمان، وعرف عن السلطان الكامل شعبان ولعه بحب الحمام، فأمر بأن ينادى في القاهرة بألا يعارض أحد لعب الحمام أو غيره من أرباب الملاعيب، وقد أنفقوا الكثير من المال على هذه اللعبة.[2]

ويذكر أن هذا السلطان وضع للحمام خلاخل ذهب في أرجلها، وألواح ذهب في أعناقها، وكذلك صنع لها مقاصير خشب مطعمة بالعاج والأبنوس، وأقام لها غلماناً يكفلونها. [3]

ولم تقتصر سباقات الحمام على السلاطين والأمراء، وإنما امتدت إلى الخلفاء أيضاً، فقد شغف بها من بين الخلفاء، الخليفة الناصر لدين الله، وقد استطاع بعض الأمراء أن يعيشوا حياة منعمة بسبب هذا الموروث الشعبي المتمثل في اللعب بالحمام وتطييرها والسباقات بها.[4]

وكانت مناقرة الديوك[5] من الألعاب الشعبية في العصر الفاطمي، التي صورت على طبق من الخزف، حيث يظهر منظر لرجلين جالسين نصف جلسة، ويبدو أحدهما بلحية كثيفة، أما الآخر فمن دونها، وقد أمسك كل منهما بديك ووضعاه على الأرض. [6]

ويبدو على كل ديك علامات التحفز والاستعداد لمهاجمة منافسه، ويتضح أيضاً بعض ميزات تصاوير المدرسة العربية في التصوير الإسلامي،[7] (لوحة 5) وتعتبر هذه التحفة الفنية من التحف النادرة التي تصور التقاليد الشعبية في المجتمع الإسلامي.[8]

ومن الغرائب أيضاً استخدامهم ما يسمى بالطيور المخلقة (المعطرة) بالروائح العطرية المسماة (خلوق)،[9] فقد كانت العادة في نقل الأخبار السارة أن تمسح الطيور والبطاقات التي تحملها بهذه المادة أو غيرها من العطور، أما طيور (الأخبار السيئة وبطاقاتها فكانت تلطخ بالسواد.[10]

ومن غرائب السلاطين أيضاً أن قام المنصور لاجين عند تعميره جامع أحمد بن طولون، جعل وقفاً يختص بالديكة التي تكون فوق سطح الجامع المذكور في مكان مخصص بها، وزعم أن الديكة تعين المؤقتين وتوقظ المؤذنين في السحر، وضمن ذلك كتاب الوقف.[11]

وعلى الرغم من قلة الإشارات التاريخية عن ممارسة المرأة للألعاب الشعبية، فإن المؤرخ الشهير المقريزي، قد ذكر أن بعض النساء مارسن بعض الألعاب الشعبية بمصر. وظل وجود المرأة خلال العصر الفاطمي ملحوظاً في ممارسة بعض الألعاب الشعبية، حيث برزن في الألعاب البهلوانية التي كانت تعقد بصفة مستمرة، خاصة في الاحتفالات بالأعياد الرسمية، واحتفالات حكام مصر الإسلامية. وقد صاحبت المرأة عند ممارسة رياضتها البدنية، الموسيقيات والعازفات، والراقصات. (لوحة 6 و7).

وظل وجود المرأة جنباً إلى جنب الرجل في ممارسة الألعاب البدنية والشعبية والذهنية واضحاً في العصر الفاطمي[12]

(لوحة 6) مناظر الموسيقى على الخشب الفاطمي.

(لوحة 7) مناظر الرقص الشعبي على العاج الفاطمي.

(لوحة 8)، منظر الحمّال على الخزف الفاطمي

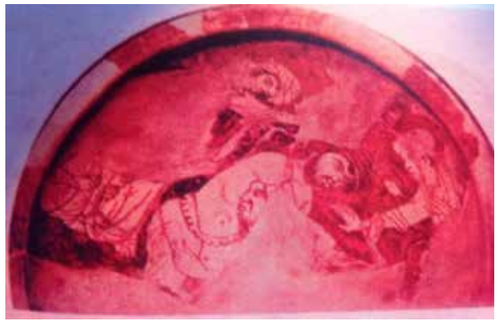

(لوحة 9) المصارعة في العصر الفاطمي.

وأيضاً من الموروثات الشعبية التي انتشرت في المجتمع الفاطمي، الحمال، ورغم أن رسم الحمال نادر جدّاً في الفنون الإسلامية، إلا أنه ظهر على قطعة من صحن خزفي فاطمي، بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. (لوحة 8)

وقد عرفت مصر عدداً كبيراً من حرف اللهو والتسلية من الموروثات الشعبية، ففي رحبة باب اللوق مثلاً كان يجتمع أرباب الملاعب والمشعبذون والمحتالون والحواة والمثقفون وغير ذلك.[13]

ومن الألعاب الشعبية الشهيرة التي انتشرت في عصرها الذهبي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي[14] في مصر هي المصارعة، حيث كانت تمارس في بغداد والقاهرة، وكان محبوها من القادة، والمتفرجين، وكانوا يستمتعون بها[15].

وقد انعكست مناظر رياضة المصارعة على طبق من الخزف الفاطمي،[16] في مصر، حيث يمثل المنظر - رغم عدم تكامله نظراً لفقد بعض أجزائه - مصارعة بين شابين ملتحيين، ويبدو كل منهما وقد ارتدى سروالاً طويلاً[17]. (لوحة 9)

وكما عرفت بغداد والقاهرة ومشرق العالم الإسلامي المصارعة، فقد ظهرت كذلك في بلاد الأندلس، حيث ظهرت المصارعة على علبة مُجوهرات من العاج، أسطوانية الشكل، وذات غطاء مقوس، وتنسب هذه العُلبة إلى المُغيرة بن عَبد الرحمن، بمَدينة الزهراء سنة 357 هـ/ 968 م.[18] (لوحة 10)

واستمرت المصارعة في العصر المملوكي فكان المظفر حاجي 748هـ/ 1347م من أشهر سلاطين المماليك في ممارسة المصارعة، وكانت المصارعة من الألعاب التي اشترك فيها أهل المدن والقرى في العصر العثماني[19]

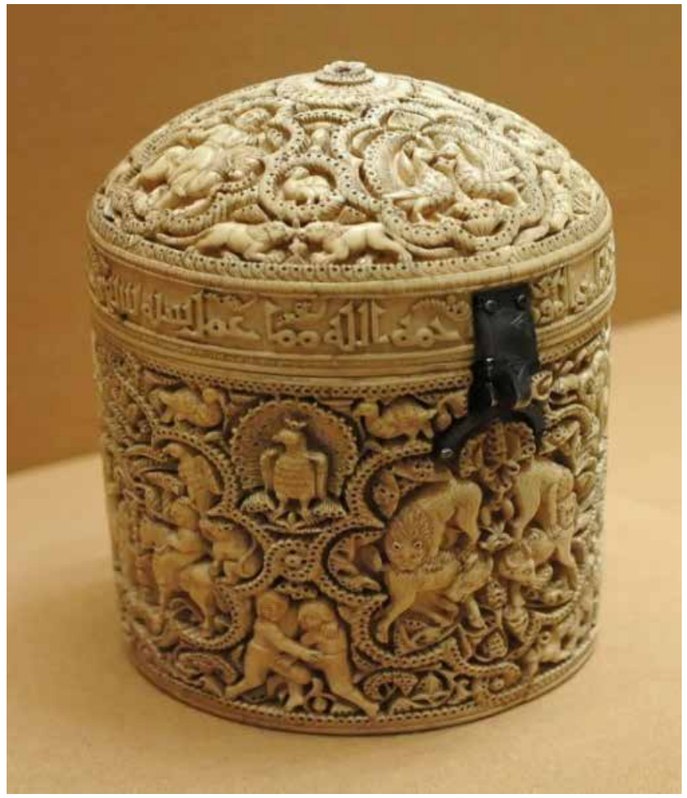

(لوحة 10) علبة باسم المغيرة بن عبد الرحمن مؤرخة في، 357 هـ، بمتحف اللوفر بباريس.

1- سيد، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، دار المصرية اللبنانية، 1992م.
2- ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة 1966، 1967م، ج 2 ص 4.
3- المقريزي: السلوك، ج 2 ص 729، ابن إياس: بدائع الزهور، ج 1 ق 1 ص 516.
4- نبيل محمد عبد العزيز، نشر وتحقيق مخطوطة نهاية السؤال والأمنية في تعليم أعمال الفروسية (دكتوراه) كلية الآداب جامعة القاهرة 1972م، ص 213.
5- عبدالعزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1988م، ص 154 ـ 155.
6- فوزي أمين، المجتمع، ص 326.
7- عبدالعزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور، ص 154.
8- التحفة مؤرخة في القرن 6هـ/ 12م، وقطرها: 30سم محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
9- قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات. والبحوث الإنسانية، 1988 م، ص 33.
10- المقريزي: السلوك ج 1، ص 697 هامش1.
11- ابن تغري بردي: النجوم، ج 8، ص 8
12- عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور، ص74.
13- عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور، ص237.
14- عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور، تاريخها وفنونها وآثارها، مركز الكتاب للنشر، القاهرة 1998م، ص 67.
15- كامل مصطفى الشيبي، ضروب من الرياضة في التراث العربي، مجلة (آفاق عربية)، السنة 13، العدد 8، سنة 1988م، ص 29.
16- نبيل محمد عبد العزيز، رياضة المصارعة في عصر سلاطين المماليك، المؤرخ المصري العدد (9) لسنة 1992، ص10.
17- رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة 13004.
18- عبد العزيز صلاح سالم، الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1999م، ص 72.
19- رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة 9689.

مهنة الخياطة
بين الماضي والحاضر

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

تعد مهنة الخياطة من الحرف التراثية التي شهدت تغيرات كثيرة على مستوى أدواتها وامتهانها، وحتى اليوم، ورغم توافر الملابس الجاهزة، لايزال المجتمع الإماراتي ومن يقطنون الدولة، يرتادون محال الخياطة لتفصيل «الكندورة» والأثواب النسائية على اختلاف مسمياتها، ولعله من الجلي أن هذه المهنة ذات التاريخ تزدهر قبيل مواسم المناسبات والأعياد، كما هي الحال في شهر رمضان والعيدين واليوم الوطني.

لا شك في أن تحسن الوضع الاقتصادي، وانتقاله من حال إلى حال، قد دفع بهذه المهنة للأمام، ومنح الأفراد فرصة تفصيل الأثواب متى شاؤوا، وبأثمان تتناسب وأنواع الأقمشة على مستوياتها، إلا أن الحفاظ على عادة تفصيل الأثواب للمناسبات بشكل خاص لهو أمر لافت للانتباه، فسابقاً كان تفصيل الأثواب للمناسبات ليس بالأمر الميسور لدى عامة المجتمع، لكن الجميع يحرص على اقتناء الجديد، حتى أولئك الذين لا يملكون فائض المال، فيوفرونه على أقل تقدير لأطفالهم.

مهنة الخياطة كانت من المهن التي احترفتها المرأة الإماراتية بدايةً، وكانت تمارس الخياطة لأهل بيتها ولمجتمعها، ولم تكن هنالك امرأة في «الفريج» إلا وتعرف الخياطة، وهنا نتحدث عن الخياطة اليدوية، أما الخياطة على المستوى المهني لدى النساء فقد كانت تتم، في فترة لاحقة، بآلة الخياطة التي كانت تسمى «الكرخانة»، وهي تشبه آلة الخياطة الحديثة، من حيث التقنية، إلا أنها كانت تعمل باليد، وليس عن طريق الكهرباء، وبعد حين امتهن الرجال، وخصوصاً القادمون إلى الدولة، بعد تطور الحالة الاقتصادية، مهنة الخياطة، وباتوا يفتحون المحال المتخصصة.

وتشير المصادر والباحثون ومن عاشوا تلك الفترة، إلى أن النساء كن يعكفن في مواسم معينة على خياطة الملابس لأزواجهن وأبنائهن كالأعياد، وفي غالب الحال كان لكل فرد قطعة واحدة ليتباهى بها أمام «الفريج» صباح العيد، وبعد أن باتت آلة الخياطة اليدوية حاضرة، أصبحت هنالك نساء متخصصات في الخياطة، يخطن الملابس لأهل المنطقة مقابل مبالغ بسيطة، فنجد الكل يتهافت عليهن في المناسبات.

وفي فترة لاحقة أصبح الخياط، من الرجال الوافدين، صاحب مهنة مستقلة، ولأنه متخصص في الخياطة كان يأخذ من الوقت الطويل ليلبي جميع الطلبات، فتجلب له الأقمشة المختارة من الأسر قبل العيد بما يقارب الشهرين؛ لكي يتمكن من إيفائها، وهنا بدأت مهنة الخياطة لدى النساء تنحسر لأسباب كثيرة، من بينها التخصص وتطور أدوات المهنة، والتطور الاقتصادي والمعيشي للمجتمع، وهيمنة من وفدوا على الدولة من الرجال عليها، وظلت هذه الحال حتى دخلت المرأة الإماراتية مرة أخرى المجال، ولكن هذه المرة كمصممة أزياء ورائدة أعمال، فبات هنالك العديد من دور الأزياء التي أنشأتها نساء إماراتيات من الصفر، وقدن فيها موكباً جديداً معنياً بتصميم وخياطة الأزياء النسائية المحلية والعصرية، وأصبح الخياطون السابق ذكرهم مختصين بخياطة الأزياء المحلية الرجالية، وإن كان بعضهم يخيط أيضاً ملابس النساء التقليدية.

مجموعة إزنزارن:

بين الفن الملتزم والكلمة المتزنة

د. عزيز بعزي
باحث - المغرب

من الثابت أن جذور «مدرسة تزنزارت»، ترجع إلى مجموعة «إزنزارن»، التي تعد أول مدرسة غنائية أمازيغية عصرية، وقد ظهرت هذه المجموعة في الأول باسم «المجاديل»، وهو أول اسم ظهرت به مجموعة «إزنزارن».

يراد بـ«المجاديل»، كل ما يعلق في الحزام، أو في الرأس، أو في الثياب، غير أن أفرادها عدلوا عن اسم «المجاديل»، ليختاروا اسم «إزنزارن»، وهو واحد من بين الأسماء الثلاثة المقترحة، وهي (المجاديل، إمنارن، وإزنزارن)، والملاحظ أن المجموعة تحت اسم «المجاديل» سجلت أغنية في إذاعة أكادير، عام 1975م.[1]

والحق، أن اختيار اسم «إزنزارن» له ما يبرره حقيقة لدى المجموعة، فهذا الاسم يعني الأشعة، والتي ستكون بمثابة أضواء كاشفة على التراث، لإبصار ما يمكن التعامل معه منه، ويستحق الإغناء بالجديد في الميدان الفني.

فإذا كانت الشمس تعطي النور بأشعتها، فإن شعاع مجموعة «إزنزارن» هو «شعاع يعطي قيمة للثقافة، والفن الأمازيغي، وللتاريخ، والحضارة الأمازيغية»، فـ«إزنزارن» تعتبر نفسها بمثابة رسول، جاء أساساً ليخفف وطأة الشعب، فكانت أغانيها بمثابة البلسم الذي يخفف جرح الزمن، ويغرس زهرة الأمل في قلوب فئات المجتمع المقهور.[2]

فالفن والإنسان كانا توأمين لا ينفصلان أو يفترقان منذ الأزل إلى اليوم، وقد كان الفن رفيقاً للإنسان منذ تجربته الأولى في هذا الوجود ولم يزل، وذلك لتلبيته وظائف أساسية عدة في حياته، فالفن وسيلة لدى الإنسان البدائي لمواجهة مختلف التحديات التي تضعها الطبيعة أمامه، وهو سلاح فعّال كما لا يخفى، وأداة سحرية في صراعه من أجل البقاء، والصمود معاً، والاستمرار في هذا الوجود.

أما في العصر الحديث، فيعد الفن والموسيقى أنجع سلاح للاحتجاج، ومواجهة مختلف التحديات التي تواجه الإنسان المعاصر، وتقف حاجزاً أمام حريته.[3]

لرجع قليلاً إلى الوراء، لنؤكد أن مجموعة إزنزارن تأسست عام 1972م على أيادي كل من «مولاي إبراهيم الطالبي» و«عبدالهادي إكوت» و«الحسن بوفرتل». أما تعاملها مع التراث، ففي نظرها لا يمكن أن يتم عبر إعادة إنتاج ما سبق لقدماء «الروايس» أن أنتجوه.[4]

لذا؛ فهي تعارض المجموعات التي تعيد ما سبق

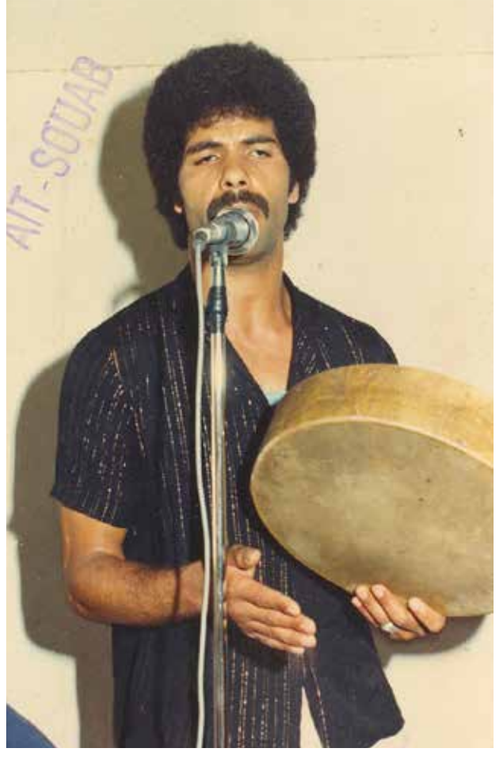

للحاج بلعيد مثلاً أن غناه، وعلى أساس ذلك استطاعت تفعيل قواعد تجديد الأغنية، والشعر معاً. فقد آمنت منذ الوهلة الأولى بأن مهمة الشعر لا تكمن في الترفيه، والتسلية بقدر ما يفرض كيانه كرسالة، وأمانة في عنق الفنان، وعليه تحملها. والواقع أن المجموعة لم تتراجع قط عن قناعتها، بل زادها مرور الأيام حنكة. بعد سنتين من تأسيس مجموعة «إزنزارن» التحق بها كل من «محمد الحنفي»، و«حسن بايري»، و«عبدالعزيز الشامخ»، و«عبدالله أبلعيد» القادمون من مجموعة «لقدام».

ثم بعد ذلك، التحق «باسوس» بالمجموعة، وانفصل «الشامخ» عن المجموعة، وكون مجموعة أخرى بالاسم نفسه «إزنزارن الشامخ». فبعد أن كانت مسألة إنشاء مجموعة غنائية مسألة تجربة فقط، بدا الأمر يؤخذ بجدية، كما بدا يتشكل لدى كل فرد من أفراد «إزنزارن»، وعي بعملهم الفني.

على إثر ذلك، بزغ اتجاهان داخل المجموعة، أحدهما يرى أن ظهور المجموعة يجب أن يشكل تغييراً، ليس فقط على مستوى الشكل، وإنما أيضاً على مستوى المضمون، ولن يتم ذلك إلا بعد تجاوز الموضوعات العاطفية، السائدة في السوق الفنية آنذاك، وضرورة الاهتمام بكل القضايا الإنسانية، وهموم أفرادها الاجتماعية، والسياسية.

بينما يرى الاتجاه الثاني، أن الهدف من الغناء هو الترفيه، والتنشيط، والترويح على النفس، ولا يمكن فصله بتاتاً عن العواطف والحب. وهذا الاختلاف الواقع بين الاتجاهين أدى إلى ظهور مجموعتين من «إزنزارن»، إحداهما لم تخرج عن الثيمات المتداولة، والرائجة بكثرة في الساحة الفنية، وهي المجموعة التي كونها «الشامخ».

في حين أن المجموعة الأخرى التي سار على دربها كل من «مولاي إبراهيم الطالبي» و«عبدالهادي أكوت» و«بلعيد» و«الحسن بوفرتل» و«الحنفي»، كانت تعارض اتجاه «الشامخ»؛ حيث ترى أن خلق واقعاً فنياً جديداً لا ينبغي أن يقتصر على الشكل فقط، بل يجب أن يتعداه ليشمل المضمون أيضاً.

من الأفكار التي آمنت بها هذه المجموعة الأخيرة، - وهي في الحقيقة مبادئ يرجع الفضل إليها في استمرارها - ما يلي:

- أولاً: ليست العبرة بالإنتاج الفني الغزير، بل العبرة في ماهية هذا الإنتاج.
- ثانياً: لا تعتقد المجموعة أن مكان عملها هو الحفلات، والأعراس، فهذا يتناقض ومبادئها، بل يكتفي بالقيام كل سنة بجولة في المدن المغربية الكبرى.
- ثالثاً: إن التعامل مع التراث عموماً، لا يمكن أن يتم عبر إعادة إنتاج ما سبق لقدماء فن الروايس أن أنتجوه؛ لذلك فهي تعارض بشدة المجموعات التي تعيد ما سبق للحاج بلعيد مثلاً أن غناه.[5]

لم يكن «إيكوت عبدالهادي» و«مولاي إبراهيم الطالب» و«لحسن بوفرتل» و«مصطفى الشاطري» و«حسن

بايري» و«جمال زكورا» عند تأسيسهم مجموعة إزنزارن في بداية السبعينيات يعرفون أنهم سيتغنون في فترة الثمانينيات والتسعينيات عن موضوعات بالغة الأهمية، كاختلال موازين القوى الدولية، وعن غلبة منطق القوة والعنف، بدل ثقافة الحوار والسلم، وعن تدهور الوضع الاجتماعي، والمعيشي لبعض فئات المجتمع، واكتوائها بنار الفقر والحرمان.

ويمكن لمتتبع أغاني «إزنزارن» أن يلمس الحس السياسي في أغانيها وبقوة، منذ الشريط الصادر في أواخر السبعينيات، حيث ضم أغاني ذات موضوعات تعالج الفقر والتهميش، كما ضم أغاني مستوحاة من التراث الأمازيغي القديم، والتي تحث على التشبث بالأرض، والهوية والدفاع عنهما.[6]

أما الشريط الصادر في مطلع الثمانينيات، فيمكن اعتباره نقطة التحول الحقيقي في مسار أغنية إزنزارن، حيث تحتوي على موضوعات غنائية ذات أهمية بالغة، وقد تضمن الألبوم أغاني تطرقت إلى موضوع الفقر، والحرمان والتهميش، في إيقاع، ولحن حماسيين، كما تناول الشريط أغاني سلطت الضوء على طبيعة العلاقات الدولية السائدة في فترة الثمانينيات، ثم اقترحت حلولاً للإنسانية لتعيش في وئام وسلام. ومن دون شك، فالوعي والثقافة من أبرز تجليات مجموعة «إزنزارن»، وقد تحقق ذلك نتيجة احتكاكهم بمجموعة من المثقفين، كما لا يخفى، كالأستاذ محمد بزيكا.[7]

على كل حال، فأغاني «إزنزارن»، ليست عادية تطرب لها آذاننا، وتتمايل لها أحياناً أجسامنا، ثم تقبر كلماتها مع نهاية كل وقفة غنائية، - كما أكد أحد دارسي روائع مجموعة إزنزارن -، ولكن الحقيقة أبعد من ذلك، فأغانيهم حكم، وفلسفة، وشعر، وفن، بما للكلمة من معنى.[8]

1- محمد يعقوبي، وعبدالله الوثيق، تحت إشراف الأستاذ محمد بزيكا «الرؤية المأساوية في الشعر الأمازيغي السوسي المعاصر – نموذج المجموعات الغنائية، إزنزارن، وأرشاش»، بحث جامعي، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دط، دم، دد، دت، ص 35-36.

2- ويمكن القول أيضاً إن المقصود بـ«إزنزارن» أشعة الشمس التي تتفنن في الانسلال إلى البيوت، طاردة الخمول، والكسل من الأزهار الندية، فتتفتح لها الأبواب، مستقبلة إياها بألوان زاهية، خاطفة للب، وروائح زكية منعشة للنفس، والقلب. ينظر مقدمة كتاب، الحسين زاكورا، روائع مجموعة إزنزارن، بحرف تيفيناغ والحرف العربي، والحرف اللاتيني، دط، دم، دد، دت. ص11.

3- أحمد الخنبوبي، المجموعات الغنائية العصرية السوسية - فكر تاريخ وفن -، ط1، دم، ددن، 2008م، ص9.

4 -المصدر نفسه، ص18.

5 -محمد يعقوبي، وعبدالله الوثيق، تحت إشراف الأستاذ محمد بزيكا، المصدر نفسه، ص 36-37.

6- أحمد الخنبوبي، المصدر السابق، ص28.

7- المصدر نفسه، ص29.

8- الحسين زاكورا، المصدر السابق، ص11.

الجامع الأموي في دمشق

م. رنا زكريا زيدان
مهندسة معمارية- سوريا

العمارة الإسلامية

في عهد الدولة الأموية

مسجد بني أمية بدمشق أنموذجاً

يُعد الجامع الأموي في دمشق من أقدم الجوامع الإسلامية التي بُنيت بطراز إسلامي صرف، ولم يفتأ أن صارت عمارته مثالاً أثَّرَ في كل الجوامع والمساجد التي بُنيت بعده في شرقي العالم الإسلامي وغربيه، وقد تم البدء ببناء المسجد سنة 86هـ/ 705م، واستمر البناء فيه عشرة أعوام حتى 95هـ /715م، وقد تم الحفاظ على التخطيط الأموي نفسه دون أي تغيير منذ أن بناه الوليد بن عبدالملك.

عندما ازداد عدد سكان دمشق، وازداد عدد المسلمين فيها، وضاق بهم المسجد الأول (مسجد الصحابة)، وهو المسجد الكائن فوق الجزء الشرقي لهيكل كنيسة يوحنا المعمدان في قلب مدينة دمشق، حيث اقتسم المسلمون مع المسيحيين المكان، فتركوا

الجامع الأموي بدمشق – صحن الجامع

لهم القسم الغربي الذي عليه كنيستهم، أما القسم الشرقي فقد فُتح حرباً مع نصف مدينة دمشق على يد خالد بن الوليد، عندما تم تحرير دمشق من الحكم البيزنطي عام 14هـ/ 635م، وظلت الحال هكذا قرابة 70 عاماً حتى تسلم الوليد بن عبدالملك الخلافة، وتذكر النصوص التاريخية أن المسلمين والمسيحيين كانوا يدخلون من البوابة الجنوبية للمعبد، ويتفرعون بعدها، فيذهب المسيحيون يساراً نحو الغرب إلى كنيستهم، ويلتف المسلمون يميناً نحو الشرق إلى مسجدهم.

وأغلب الظن أيضاً أن المسلمين قد استعملوا بقايا برج المعبد الجنوبي الشرقي لينادوا منه للصلاة، تماماً كما استعمل النصارى البرج الجنوبي الغربي لناقوس كنيستهم.

ومع ازدياد عدد المسلمين في المدينة، قرر الوليد تنفيذ مشروعه المعماري المهم، ففاوض المسيحيين على أن يتخلوا عن النصف الغربي للهيكل، وكان اتفاقاً منصفاً لم تعترض عليه أي سلطة دينية أو مدنية، حيث إنه تم تعويضهم عنها بكنائس عدة في دمشق وغوطتها.

الجامع الأموي في دمشق – مسقط توضيحي

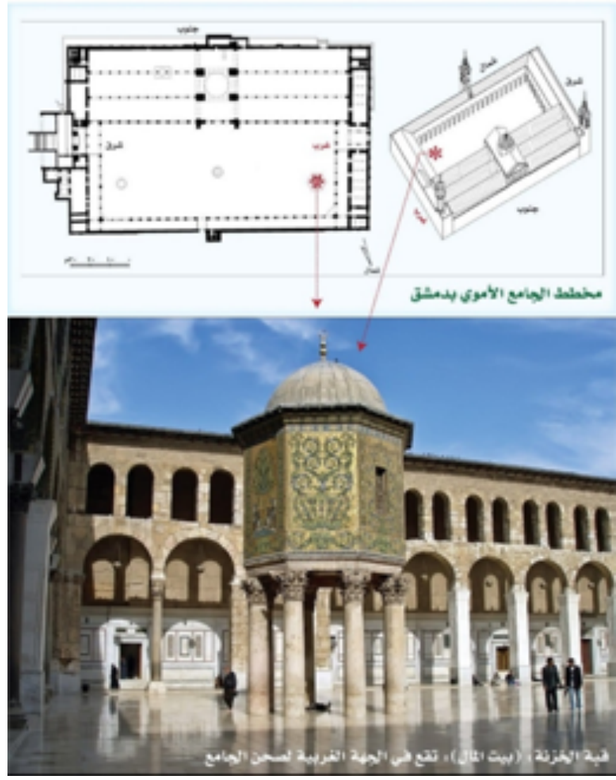

المآذن الثلاث للجامع الأموي في دمشق.

لقد شيّد الوليد جامعه الجديد وفق مخطط جديد ومبتكر، يتجاوب مع شعائر الدين الإسلامي، فجاء فريداً بهندسته لم يُبنَ على نسقه أي بناء آخر، ووضع به مبادئ إنشاء الجوامع الكبرى التي شُيدت بعده في العالم الإسلامي، وظل المعماريون قروناً عدة يستوحون منه وينسجون على منواله، ولم يضْنُ الوليد بالجهد والمال لكي يكون هذا الجامع آيةً في الفن المعماري، فقد كان جامع دمشق ثورةً على البساطة والتقشف.

اتخذ الوليد قرار بناء الجامع في هذا الموقع الذي فرضته المعايير العمرانية والتاريخية في قلب مدينة دمشق، وتعد أرضه من أقدم الأجزاء التي عُمرت فيها، فهي أرض أوقفت للعبادة منذ آلاف السنين، حيث أُقيم فيها معبد للإله (هدد) الآرامي في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، ثم شُيد على أنقاض المعبد الآرامي معبد للإله (جوبيتير) بعد دخول الرومان لسورية سنة 64 ق.م، ثم شُيدت في عهد الإمبرطور ثيودوسيس بعد إعلان المسيحية ديناً رسمياً للبلاد عام 392م كنيسة حملت اسم القديس يوحنا المعمدان، ويُرجح أنها كانت تحتل الجانب الغربي من الهيكل، وقد بادر الوليد إلى هدم كل ما كان داخل الهيكل، ولم يبق سوى الجدران الخارجية لساحة الهيكل وبقايا أبراج الزوايا الأربع التابعة للمعبد الوثني القديم والبوابتين الشرقية والغربية مع الطريق الواصلة بينهما، وهي امتداد للطريق التي أُحدثت أيام البيزنطيين، وازدادت أهميتها في العهد العربي الإسلامي.

والجدير بالذكر أن المؤرخ المسعودي سنة 332هـ/ 944م، أرّخَ ما رآه على جدار المسجد الأموي، وهو عبارة عن نص مكتوب بالذهب على اللازورد، وقد أمر الخليفة الوليد بكتابته، ويوثق هذا اللوح أنه أمر ببناء المسجد وهدم الكنيسة، إذاً، هذه النصوص تثبت أن المسجد بُنيَ من جديد، بعد تعويض المسيحيين، وتنفي ما تداوله بعض المستشرقين، وادّعوا أن الوليد حوّل الكنيسة إلى جامع، وتنقض نظريات واتسينغر ودوسو ولامانس ومن لفَّ لفهم أنّ الوليد لم يبن من المسجد غير القبة والمئذنة، إذ إنَّ بناء الجامع الأموي لا يشابه أي كنيسة، والبناء بصورة عامة يخالف تقاليد سورية النصرانية في فن العمارة، فإن تخطيط المسجد شيء مبتكر ولا يشبه هندسة الكنائس البيزنطية.

إذاً، فإن تخطيط المسجد الأموي في دمشق قد خطَّ السمات الرئيسة لما يُسمى بالهندسة المعمارية الإسلامية، وهذا ما أقره كريزول، واعترف به في كتابه. كما يجدر ذكره أنه تم إجراء العديد من أعمال التجديد والترميم والتوسع، بحيث أضافت لمسات فنية لمدارس معمارية لاحقة، ولكنَّ ذلك لم يؤثر في جوهر التخطيط الأموي لعمارتها، ويؤكد أنها مدرسة معمارية متفردة بفنها الرفيع.

والجدير بالذكر أنَّ الطراز الأموي ما لبث أن انتقل

أبواب المسجد الأموي الثلاثة

مع الأمويين إلى الأندلس، ويُعتبر جامع قرطبة في الأندلس من أكثر العمائر الوثيقة الصلة مع الطراز الأموي الذي بدأ تشييده سنة 169هـ/786م.

لقد جاء الفن الأموي في بدايته متأثراً بما وجد من تراث معماري في بلاد الشام، ونرى أن الفنّان المسلم عمد إلى المزج بين العناصر المختارة، واستبعاد ما لا يتناسب مع جوهر العقيدة، والتعويض عنها بموضوعات لائقة، وأدى هذا إلى ابتكار الفن الجديد، وأسَّسَ للمدرسة المعمارية الأموية، وكانت من أكثر المدارس تأثيراً في الفن المعماري الإسلامي.

ويمكن القول إن فن العمارة الإسلامية وُلد في عصر بني أُمية، ونما وترعرع سريعاً، وبدأ بامتلاك خصوصيته ووحدته الإسلامية، فكان ركيزة قوية لمدارس وطُرُز رائعة، لم تلبث أن ظهرت في العمارة الإسلامية.

جامع قرطبة في الأندلس

المراجع

موسوعة الآثار في سورية – المجلد الثاني (هيئة الموسوعة العربية) – الطبعة الأولى 2015.

حِرف تشكيل الأخشاب

«حرفتا خرط الخشب وتطعيمه»

محمد صابر الكردي
باحث في التراث الشعبي - مصر

إن الحرف التراثية هي حرف تعتمد في المقام الأول على الأدوات البسيطة، والأيدي العاملة التي منحها الله، سبحانه وتعالى، للإنسان، ولقد بدأت بها كهواية تملأ بداخلي طاقة إيجابية من الفن والإبداع والجمال، كما أنها حركت بداخلي دافع الابتكار، وصنع المزيد من المنتجات الدالة على الهوية الثقافية، وذلك من خلال الاستعانة ببعض الأدوات البسيطة لإخراج منتج من خامة الخشب، مع استخدام بعض أساليب زخرفة وتشكيل الخشب وتطعيمه، مثل الأخشاب المطعمة بالصدف، والأخشاب المطعمة بالنحاس، والحفر على الخشب، ورسم وتلوين الأخشاب بالزخارف الشعبية.

وما يميز هذه الحرفة أنها من أكثر الحرف التراثية التي تعتمد على الخامات الطبيعية الموجودة في البيئة، ومن خلال دراستي في مرحلة الماجستير، وقراءتي في هذه المرحلة، تبين لي أهمية الحرف التراثية، وبالأخص حرفة الأخشاب، وذلك لكونها من الحرف التي ترتبط بعناصر التراث الشعبي المختلفة، كما أنها حرفة تعود إلى آلاف السنين، كما أنني تعمقت في هذه الحرفة من خلال ممارستها، وهذه الحرفة أكسبتني العديد من الصفات، على سبيل المثال الصبر والتفكير العميق قبل تنفيذ أي عمل أو منتج فني، وفي النهاية أود أن أنوه بأن أصحاب الحرف اليدوية التراثية، هم إرث ثقافي ووجهة مشرفة لبلادنا في جميع المحافل المحلية والدولية والعالمية.

1- حرفة خرط الخشب

الخرط فن تاريخي قديم، ترجع آثاره الأولى الموجودة في المتاحف إلى الحضارة الفرعونية، وما تلاها من حضارات في مصر، فاشتهر الفراعنة بصناعة الأخشاب واستخدامها في العديد من الأشكال المختلفة، حيث نرى لمقعد توت عنخ آمون قوائم محلاة بحلقات تشبه الحلقات المصنوعة بالخراطة الحديثة، ولقد ورث القبط المهارة في خراطة الخشب، ولكنهم لم يكتفوا باستخدام الأنواع المحلية من الخشب، بل لجؤوا إلى استيراد أجود أنواع الأخشاب من الخارج، مثل خشب «الأبنوس، وخشب الجوز، والبلوط»، حتى الحضارة الإسلامية التي اتخذ فن الخرط من خلالها مكانة متميزة ارتبطت بالعقيدة والعادات والمناخ الجغرافي والقيمة الجمالية.

وقامت هذه الحرفة على تشكيل الأخشاب بخرطها يدوياً إلى قطع مختلفة الأحجام والأشكال، منفصلة أو متصلة في عمود، ويتم تجميع هذه القطع بتعشيقها في بعضها بعضاً من دون مواد لاصقة، حتى تصبح مساحات تصلح للتوظيف في أغراض مختلفة، مثل عمل قطع الأثاث، وتتفاوت الوحدات في قيمتها تبعاً لحجم قطع الخشب المخروطة، فكلما كانت صغيرة ودقيقة اكتسبت قيمة فنية أكبر، كذلك تتفاوت القيمة باختلاف أنواع الخشب المستخدمة، وذلك للتنوع الكبير في أشكاله وألوانه.

وقد ظهرت الخراطة على الخشب بشكل واضح في المنشآت السكنية، لاستخدامها في تنفيذ المشربيات التي حل محلها الشبابيك الخشبية، فمن خلال هذه المشربية كانت المرأة صاحب المنزل تستطيع أن ترى من بالخارج دون أن يراها، بالإضافة إلى أن هذه المشربيات كانت تسمح بدخول الهواء منقى من الأتربة. كما ظهرت أشغال الخرط في المنشآت الدينية أيضاً، ولكن بشكل أقل من مثيلتها في العمائر السكنية، وتوجد على شكل كوابيل وقوائم وكراسي.

أ- الأدوات والآلات المستخدمة في خرط الخشب

- المخرطة البلدي

هي عبارة عن لوحة (قاعدة) من الخشب، مثبتة عليها قطعة خشب كبيرة، تتحرك إلى جانبها قطعة خشب أخرى مثبت بها عمود من الحديد لاستخدامه في الاستدارة، يطلق عليه «قوس»، وبطرف كلا القطعتين يثبت قضيب من الحديد مدبب الأطراف المواجهة يسمى «غربان»، توضع بينهما قطعة الخشب المراد خرطها، وتتم مراحل العمل بدءاً من قياس الشكل المطلوب بوساطة أدوات القياس المسماة «سندو»، ويثبت الخشب بين الغربان في المخرطة، وأثناء الاستدارة بالقوس يتحكم الخراط بيده اليمنى ويقوم بالضغط على الخشب لخرطه بيده اليسرى، مستخدماً الأزاميل حسب المقاس والشكل الفني المطلوب مرتكزاً على قدميه، وينتج من هذا التشكيل أنواع عدة حسب رغبة الخراط وأنماط من الخرط المختلفة بطريقة التعشيق (العاشق والمعشوق).

- المخرطة الكهربائية

هي تحديث للمخرطة البلدي، حيث يضاف إليها موتور كهربائي بسير من المطاط، يدير العابر أمام الخراط ليتفرغ ذهنياً وجسدياً لإبداعه باستخدام الأزاميل المختلفة.

- المثقاب

هو آلة التثقيب اليدوية، حيث يقوم الحرفي بلف مقبضها ليدير المسمار الحلزوني المثبت في نهايتها حتى يثقب الخشب حسب المقاس المطلوب، وكذلك قبل استبدال هذه الآلة بـ«الشنيور».

- المحز

يقوم الحرفي بتحديد الشكل المطلوب من خلال وضع قطعة الخشب في المخرطة، ويقوم بتمرير المحز على قطعة الخشب وذلك طبقاً لعدد أسنان المحز.

- الجفت

يقوم الحرفي بتركيب القطعة الصغيرة وتعشيقها بالجفت.

المخرطة الكهربائية

- السندو

هو الذي يتم القياس بوساطته على العابر كي يحصل الحرفي على الشكل المطلوب خرطه.

الإزميلهو ما يستخدم في تشكيل العابر أثناء دورانه للحصول على الشكل المطلوب.

- الملفاف

هو الذي يستخدم حالياً في عملية تثقيب العمود المخرز بدلاً من المثقاب اليدوي لإعداده كي يستقبل نتوءات قطع الفراخ، والتي يسمى كل منها «لسان» حتى يتم التعشيق على الوجه الأمثل.

ب- المراحل التقنية لحرفة خرط الخشب

تقوم هذه الحرفة على تشكيل الأخشاب إلى قطع صغيرة يتم تعشيقها وكأنها نسيج خشبي كمصفاة للضوء، وتمر حرفة الخرط بعدة مراحل كالآتي:

- المرحلة الأولى: صناعة العمود المخرز

يتم وضع التصميمات والرسومات للأجزاء المطلوب خرطها،

صناعة العمود الخرز

استخدام الإزميل في الزخرفة

ثم تأتي مرحلة اختيار أنواع وأحجام الأخشاب الملائمة لمثل تلك الرسومات، ويقوم الحرفي بتهذيب الشكل المراد خرطه بتنظيفه من الشوائب وتنعيمه، وإعداد الطول والسمك المطلوبين، ويسمى «عابر»، ويتم تشكيل القطعة بالمخرطة مع تحديد مركزي القطعة الخشبية اللذين سيتم من خلالهما التثبيت على ما يسمى «بذنبة المخرطة»، ثم يتم تثبيت القطعة الخشبية وصنفرتها بصنفرة خشنة، ثم صنفرة ناعمة على المخرطة.

- المرحلة الثانية: عملية التثقيب

هي التي تتم بعد تجهيز العمود المخرز، حيث يتم التنقيب في الخرزات الناتجة عن الخرط، بحيث تكون الثقوب مناسبة لحجم اللسان لإتمام عملية تعشيق الوحدات.

- المرحلة الثالثة: عملية التجميع

فيها يتم تجميع الوحدات وتربيطها بوحدات الفراخ لعمل وحدات تشكيلية مسدسة أو مثمنة، وتثبت بالفتلة إلى حين استخدامها في المنتج المطلوب.

وبعد أن يتم الانتهاء من تشكيل القطعة الخشبية، تحتاج هذه القطعة للدهان، ويتم الدهان بنوع واحد من الدهانات الآتية: «دهانات الأستر –الجملاكة، وهو دهان شفاف له ملمس زجاجي لامع يساعد على إظهار جمال أليياف الخشب - دهانات البلاستيك أو الورنيش وهي سوائل سريعة الجفاف ذات تغطية عالية لامعة».

2- تطعيم الخشب بالصدف

برع النجار في تجميل المنشآت الدينية والمدنية والأدوات اللازمة للحياة، سواء بالخرط وحده، أو بالخرط مع التطعيم بالخامات المختلفة، وفن تطعيم الخشب هو تثبيت قطع الصدف في مكان يتم تحديده بحفر

كرسي من الصدف

على سطح القطعة الخشبية مع عمل المعالجات اللازمة، وذلك لتجميله بوحدات زخرفية مختلفة الأشكال، ويوجد أسلوب آخر لتطعيم الخشب بالصدف، وهو التجميع أو الترصيع والذي كان يحتاج إلى عناية وجهد كبيرين، حيث يتم نظم «ترصيص» مربعات صغيرة من الصدف جنباً إلى جنب في أشكال هندسية مختلفة، ثم يتم لصقها على أرضية خشبية للتصميم المراد.

وتوجد أنواع عدة من التصديف تختلف حسب أحجام الصدف أو أشكاله أو طريقة تزيينه، فهناك التصديف العربي والتصديف المشجر الذي يستخدم في تزيين القطع الكبيرة، مثل الصناديق، ويقصر استعماله عليها فقط؛ أي تزيين الكراسي والقطع الخشبية الكبيرة، والتصديف الهندسي الذي يتميز بصغر أحجام القطع الصدفية التي تزين العلب.

والصدف المستخدم في تطعيم الخشب هو عبارة عن الغطاء الخارجي الصلب الذي يفرزه الحيوان المائي،

صناعة العمود الخرز

وكذلك الأصداف الجيرية لكثير من أنواع الرخويات، وينطبق هذا على الهيكل الخارجي للسرطان والقشريات الأخرى، وقد استعمل الإنسان قديماً الصدف في حياته اليومية فصنع منه أوعية مختلفة للطعام والماء، ولشدة صلابته استخدمه أيضاً في تذويب الملح عن طريق دعك الملح بقطعة من حجر الديوريت الأسود أو البازلت داخل الغطاء الصدفي الأجوف.

ومن أنواع المستخدمة في تطعيم الخشب؛ الصدف الأبيض والصدف المحار والصدف الصناعي والأسترالي.

أ- الأدوات المستخدمة في التطعيم بالصدف:

- الشوكة

هي التي تقوم بتثبيت الصدف فوق الغراء، وهي عبارة عن عصا خشبية طولية، يراوح مقاسها بين 15 و20سم.

- المبرد

يتنوع بين العريض والمثلث والمبروم «ديل الفار».

- السنبك

مصنوع من الحديد على هيئة مخروطية الشكل.

- السراق

هو عبارة عن منشار «ساحقة» صغير يصنع بمعرفة الصدفجي، من أجل تقطيع الصدف إلى أجزاء صغيرة لها زوايا.

- المنشار الصيني

هو الذي يقوم بشق العرضات التي تقطع فيما بعد إلى قطع الصدف.

- الإزميل

مصنوع من الحديد وتختلف مقاساته تبعاً لمتطلبات العمل من 15 إلى 20 سم.

السراق

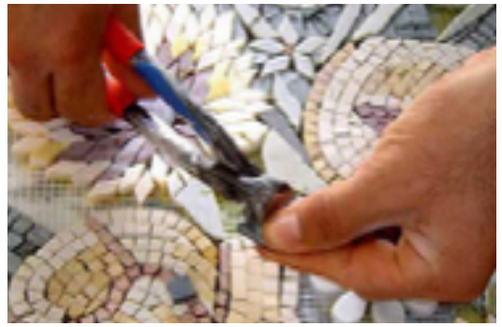

قصافة الصدف

تحليق الخشب بعيدان الصدف

- القصافة
مصنوعة من الحديد وتقوم بتهذيب الصدف حتى ينسجم مع الشكل المطلوب في عملية التطعيم.
- الصاروخ
يستخدم في إزالة الزوائد، وكانت تلك العملية تتم من قبل بشكل يدوي بوساطة منشار بسيط يقوم الصدفجي بصناعته بنفسه.

ب- المراحل التقنية في التطعيم:

- المرحلة الأولى: تقطيع الصدف
العمل في التطعيم بالصدف يبدأ بعد تقطيع الصدف إلى وحدات صغيرة يتم قطعها إلى أجزاء دقيقة وتعشيقها مع بعضها بعضاً حسب الأشكال التي يتم قطعها، وهنا يجب الأخذ بعين الاعتبار، نوع القطعة وحجمها.
ويتم عمل الزخارف وأخذ المقاسات على القطعة الخشبية التي يستخدمها الصدفجي بالمسطرة، كذلك يتم عمل التحليق على الخشب أو الجزء المراد تطعيمه بوساطة عيدان الصدف، إضافة إلى تشطيب الزيقات على آلة التقطيع بوساطة المنشار.
- المرحلة الثانية: تثبيت الصدف على الخشب
يتم تثبيت كل قطعة صدف بمادة لاصقة، ويراعى عدم الخروج عن التصميم، ويضغط الحرفي بالشوكة الخشبية على الصدف، بغرض لصقها على الخشب، وبعد انتهاء عملية اللصق تملأ الفراغات التي قد توجد على السطح المطعم بمعجون.
ويمكن إنزال هذه القطع على الخشب، وتشكل القطعة كالعلبة المطعمة بالصدف، حيث يصبح الصدف بالمنتصف في وجه العلبة، فيعطي رسماً هندسياً، حيث لا يتم تحديد الرسمة، وإنما يتم تحديد المنتصف فقط ثم يتم تدريجها، وحسبما يأتي في ذهن الحرفي تنتج القطعة.
- المرحلة الثالثة: مرحلة التسوية
بعد أن يجف اللصق تأتي مرحلة التسوية، من خلال برد الصدف بالمبرد حتى يصبح بمستوى واحد، ويصبح سطحه أملس.
ومن خلال مشاركتي في المعارض الحرف اليدوية، قدمت العديد من الحرف مثل النجارة العربية والتطعيم بالصدف والنحاس والخراطة الخشبية، كل هذه الحرف تمتهنها أياد مصرية، وكل حرفة لها خصوصية في الحياة اليومية، تعتمد على وحدات ورموز مستلهمة من المجتمع والبيئة الطبيعة، وإنني أكون في غاية السعادة لمشاركتي في هذه المعارض، للتعرف والاطلاع على الثقافات الأخرى، حيث إنني أعتمد على دراسة الحرف اليدوية لتأهيل حرفيين من الشباب، وذلك لحفظها من الاندثار.

تطعيم الخشب بالصدف باستخدام الشوكة

غوص في التاريخ العربي الإسلامي

أساطير قرطاجنّة في عيون المؤرخين العرب

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

ينطلق كتاب «أساطير قرطاجنّة في عيون المؤرخين العرب» من فكرة ندرة تناول المصادر لتاريخ قرطاج أو «قرطاجنة» في الفترة العربية والإسلامية، مقارنة بما كتب عنها في الفترات القديمة، فيقول الكاتب فوزي محفوظ في مقدمة كتابه: «لقد حاولنا، سواء على مستوى الفهم التّاريخي للرّوايات أو في مستوى التّعرف إلى طبوغرافيا الموضع (قرطاجنة)، ومعالمها التي ذُكرت في الفترة العربية الإسلامية في نصوص الجغرافيين العرب. وقد ركزنا البحث على القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الميلاديين؛ ولكنّنا لم نهمل القرون السّابقة واللاحقة؛ حتّى تكتمل الصّورة، وحتّى نفهم التّطور التّاريخي».

هـذا الكتـاب الـذي صـدر في 2022م عـن معهـد الشـارقة للـتراث، كان حافـزه الأول الحملـة العالميـة التـي أطلقتهـا منظمـة الأمـم المتّحـدة للتّربيـة والعلـم والثّقافـة (اليونسـكو) لحمايـة مدينـة قرطـاج (قرطاجنـة) التّاريخيـة في سـنة 1972م، واسـتمرت حتـى سـنة 1992م، وشـارك فيهـا عـدد مـن البعثـات العلميـة مـن جُـلّ دول أوروبـا الغربيـة وأمريـكا الشّـمالية. وقـد أفضـت الأشـغال الأثريـة إلى طفـرة غـير مسـبوقة في الدّراسـات التّاريخيـة والأثريـة، غـيّرت بشـكل جـذري الكثـير مـن المعطيـات عـن المدينـة في مختلـف حِقَبهـا التّاريخيـة الرئيسـة؛ من العصر البـوني إلى العصـور الرّومانيـة والونداليـة والبيزنطيـة؛ غـير أن هـذا الكـم الهائـل مـن الدّراسـات وتقاريـر الحفريـات الأثريـة لم يشـمل الفـترة العربيـة الإسـلامية بمختلـف مراحلهـا؛ فأهملـت إهـمالاً صريحـاً جملـةً وتفصيـلاً، حتّـى إنـه لم يُنشر عـن الحقبـة الإسـلامية سـوى كتيّـب محـدود اعتنـى بالخـزف الـذي تـمّ العثـور عليـه فيهـا.

ويحلـل الكاتـب أسـباب إغفـال الفـترة العربيـة الإسـلامية إلى شـقين رئيسـين، الأول هـو أن الآثـار الأكـثر بـروزاً للعيـان التـي اسـتدعت التدخـل السريـع لإنقاذهـا كانـت بالفعـل الآثـار البونيـة والرّومانيـة والونداليـة والبيزنطيـة، والثـاني هـو أن الآثـار القديمـة لقيـت اهتمامـاً كبـيراً مـن طـرف الباحثـين منـذ القـرن التّاسـع عـشر الميـلادي، وربمـا قبـل ذلـك، وقـد دُعـم هـذا الاهتـمام خصوصـاً في الفـترة الاسـتعمارية؛ إذ كانـت قرطاجنـة تُعتـبر وقتئـذٍ جـزءاً مـن تاريـخ الغـرب المسـيحي، ورمـزاً مـن رمـوزه، ومنطلقـاً صلبـاً لتبريـر الحضـور الاسـتعماري وهيمنتـه عـلى البـلاد التّونسـية، لاعتبـار أنهـا كانـت مـن أهـم مراكـز الرّوْمَنـة، وقطبـاً أساسـياً مـن أقطـاب المسـيحية والثّقافـة اللاتينيـة عمومـاً؛ ولذلـك، ونظـراً لوجـود تقاليـد علميـة راسـخة في دراسـة قرطاجنّـة القديمـة، اكتفـت أغلـب الفـرق المشـاركة بالتّعاطـي مـع العصـور القديمـة دون سـواها.

مضيفـاً أن الإشـكالات التـي طرحـت عـن الموقـع في الفـترة الإسـلامية؛ والتّسـاؤلات العلميـة المتّصلـة بالمدينـة القديمـة كانـت محـل جـدل علمـي متواصـل، ولا ينفـي أن مـا رسّـخ ذلـك غيـاب فريـق وطنـي تونسـي أو عـربي لـه هاجـس معـرفي شـامل، أو مـن المختصـين بالآثـار العربيـة الإسـلامية، كـما أنـه يعـزو ذلـك إلى تقلّـص دورهـا في الفـترة الإسـلامية؛ فقـد كانـت أشـبه بالقريـة الصغـيرة التي عمّهـا الخـراب، ولم تُنشأ فيهـا معـالم تُذكَـر؛ بـل يبـدو أنّ قرطاجنّـة كانـت مـن المواقـع الريفيـة الزراعيـة المتصلـة بمدينـة تونـس، والتـي يَخـرج إليهـا سُـكّان الحـاضرة للنّزهـة والتّرويـح عـن النّفـس، كل هـذا يفـسر ضآلـة الاهتـمام بقرطاجنّـة في الفـترة الإسـلامية، ومحدوديـة الكتابـة عنهـا، ولم يغفـل الكاتـب ذكـر جهـود العديـد مـن الكتّـاب العـرب والأجانـب لتلـك الفـترة رغـم محدوديتهـم.

قسـم الكاتـب كتابـه لقسـمين كبيريـن، الأول هـو بحـث تمهيـدي تحليـلي للتعريـف بالمصـادر العربيـة التـي تعرّضـت لقرطاجنّـة، وقـراءة نقديـة لهـا، وإفادتهـا في معرفـة تاريـخ فتـوح قرطاجنّـة وتسـميتها، ونظـرة العـرب إلى تاريخهـا، وكيفيـة وصفهـم معالمهـا القديمـة. والتقريـب والربـط بـين العصريـن القديـم والإسـلامي، وتبيـان مواضـع التواصـل والانقطـاع. والقسـم الثّـاني يسـتعرض النّصـوص المصدريـة التـي اسـتخدمت ولم تسـتخدم في التّحليـل، وإيـراد النّصـوص المختلفـة والمتشـابهة؛ وعرضهـا حسـب التواتـر الزّمنـي لأهميتـه في التعامـل مـع المصـادر العربيـة.

ويتنـاول القسـم الأول مـن الكتـاب العديـد مـن التفصيـلات المعنيـة بمصـادر تاريـخ قرطاجنـة، وتاريـخ الاسـم، قرطاجنّـة ريـف لمدينـة تونـس، الفتوحـات والعـودة للحضـارة السـامية، الحمـلات الأولى: طـور الاستكشـاف، حمـلات حسّـان بـن النّعـمان واسـتكمال فتـح المدينـة، نظـرة الكُتّـاب العـرب القدامـى لتاريـخ قرطاجنّـة قبـل الإسـلام، قرطاجنّـة في الأدب المتأثـر بالكتابـات التاريخيـة الغربيـة، قرطاجنّـة في الأساطير العربيـة الجديـدة، وغيرهـا، كالمواقـع، مثـل: قـصر المعلقـة ، الملعـب، قـصر قومـش، مواجـل الشـيطان، السـجن، الميناء، قـصر ربـاط، القنـاة العظيمـة، قـصري الأختـين، القبـة المفروشـة بالفسيفسـاء، مدينـة الرخـام. وفي القسـم الثّـاني مـن الكتـاب تنـاول الكاتـب مقتطفـات مـن نصـوص المصـادر العربيـة حـول قرطاجنّـة، مـن بينهـم نصـوص لـكل مـن خليفـة بـن الخيـاط 240هـ/854م، ابـن عبـد الحكـم 257هـ/871م، ابـن الفقيـه 290هـ/902م، ابـن خرداذبـة 299هـ/912م، وغيرهـم.

وخلـص الكاتـب في خاتمـة كتابـه إلى العديـد مـن النتائـج، خاصـة مـن المصـادر العربيـة، مـن بينهـا أن جـل الكُتّـاب العـرب لم يكونـوا عـلى معرفـة ودرايـة تامـة بالمؤلفـات التاريخيـة القديمـة، مـع اسـتثناء بعـض الكتابـات الأندلسـية، بمـا في ذلـك المؤلفـات الإفريقيـة، فقـد كانـت في قطيعـة تامـة مـع المـوروث التاريخـي الغـربي، وحـاول المؤرخـون المسـلمون إيجـاد بديـل تاريخـي عـن البديـل الغـربي، ولذلـك أدمـج المؤرخـون العرب قرطاجنّـة في كثير مـن القَصـص القرآني، وجعلـوا الشـخصيات التاريخيـة التـي أثـرت فيهـا شـخصيات عربيـة يمنيـة، وهـذه المواءمـة كان القصـد منهـا هـو اسـتيعاب تاريـخ إفريقيـا وقرطاجنّـة؛ حتـى يكـون متناسـقاً مـع الرؤيـة العربيـة الإسـلامية للتاريـخ الإنسـاني.

ومـن بـين النتائـج أن النصـوص الوصفيـة التـي وصلـت عـن قرطاجنـة - بحسـب الكاتـب - هـي في جُلّهـا متعلقـة بالخرائـب والمعـالم الرّومانيـة البيزنطيـة، وهـي أوصـاف دقيقـة نسـبياً، مكّنـت بعـض المشـتغلين بالآثـار القديمـة مـن التعويـل عليهـا، واسـتغلالها في فهـم الحليـة المعماريـة لقرطاجنّـة في العصـور القديمـة. والـشيء المؤكـد هـو أن قرطاجنـة لم تكـن بُعيـد الفتـح؛ أي إثـر حمـلات حسّـان بـن النّعـمان، عـلى حالـة كبـيرة مـن الخـراب والدمـار، وأن الوضعيـة العمرانيـة كانـت أحسـن مـما يمكـن أن نفهمـه مـمّا جـاء في المصـادر التـي تقـول إن حسّـان هـدَّم المدينـة وأحرقهـا وهـدَّم القنـاة، فكثـير مـن المعـالم بقيـت قائمـة؛ ولكـن الـضرر كان يلحقهـا باسـتمرار نتيجـة الاسـتغلال المفـرط للحجـارة والرخـام، وبسـبب انتصـاب القبائـل العربيـة بالمنطقـة في القـرن الحـادي عـشر الميـلادي، وردة فعـل أهـل مدينـة تونـس الذيـن كانـوا يعاقبـون الهلاليـين بتدمـير مجالهـم. ولا شـك في أن الدمـار النهـائي كان مـع الحفصيـين بعـد الحملـة الصليبيـة عـلى تونـس، كـما عايـن ذلـك ابـن خلـدون.

كـما اسـتنتج الكاتـب أن الكثـير مـن تاريـخ قرطاجنّـة وجهتهـا لم يُكتـب بعـد، خاصـة تاريـخ المنطقـة في العصر الحفـصي؛ وأن الفـترة العثمانيـة كانـت فـترة مهمـة بالنسـبة لتونـس عمومـاً، والمنطقـة خصوصـاً؛ فمنـذ القـرن السـادس عـشر الميـلادي بـدأت الناحيـة الممتـدة مـن غـار الملـح إلى حـدود جهـة حلـق الـوادي تتغـير مـن النواحـي السياسـية والطبوغرافيـة والأثريـة والبشريـة، وأهـم مـؤشر إلى التغـيرات الجوهريـة التـي بـدأت تحصـل في المنطقـة هـو المكانـة المتميـزة التـي كانـت عليهـا بعـض القـرى القرطاجنيّـة مثـل قريـة حلـق الـوادي، التـي صـارت مـن أهـم حصـون البـلاد التونسـية؛ وقريـة المرسـى التـي صـارت مقـر سـكن كبـار أعيـان الدولـة ووجهائهـا؛ وقرطاجنّـة التـي اسـتقر فيهـا البايـات.

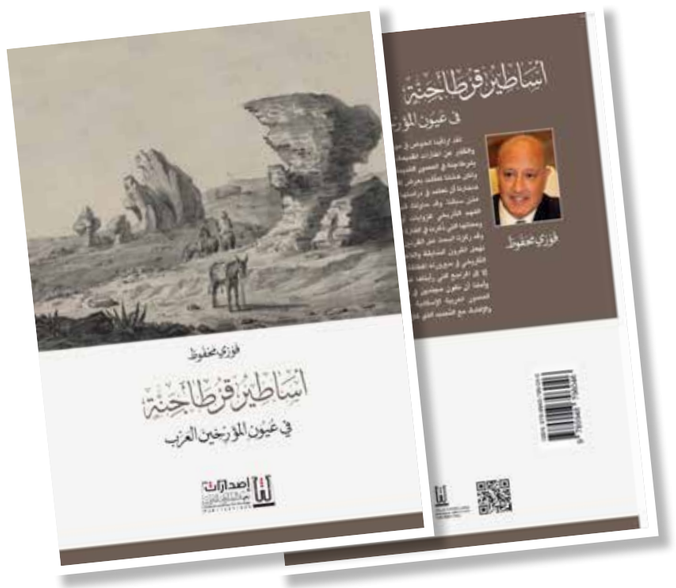

ساحة حصن الشارقة في كتاب «سرد الذات»

الزبير مهداد
كاتب وباحث ـ المغرب

إن الساحات العامة هي أكثر الفضاءات التي يجد فيها كل واحد ذاته، فهي التي يلتئم فيها الناس، كبارا وصغارا، أغنياء وفقراء، تجارا وحرفيين، ويتفاعلون فيها بحرية وتلقائية مع بعضهم البعض، فعلى الرغم من الاختلافات بينهم، فإن الساحات تجمعهم، وتشعرهم بالانتماء إلى مدينتهم، وبذلك تعزز لديهم الشعور بالهوية المشتركة، ورابطة المواطنة.

وعلى الرغم من أن المدن العربية القديمة كانت تفتقد إلى مخطط مسبق لإنشائها، فإن تكوينها الشكلي كان يستجيب لتفاعل الناس مع وسطهم، ويلبي حاجاتهم المادية والروحية والاجتماعية، بتوفير الحماية ومراكز العبادة، والترويح، والتسوق، وغيرها، وكانت الساحات تحظى فيها بأهمية خاصة.

الساحة قلب المدينة النابض

إن الناظر للمدينة من الخارج يراها وكأنها كتلة واحدة كبيرة بفعل تراص بناياتها، فهي كتلة كثيفة متماسكة ومتجانسة، في ظل شروط مرعية بدقة، تضمن الأمن والتعايش والتواصل والاستقرار؛ فكل الوحدات مترابطة مع بعضها، ومنفصلة في مهامها.

في قلب كل مدينة، نجد ساحات واسعة تتوسطها، تنبض بالحياة والحركة، وتنطق بالتاريخ والثقافة والفن والتجارة أيضا، ومثال ذلك ساحة "جامع الفنا" المغربية الشهيرة، التي تقع في القلب التاريخي لمدينة مراكش، التي تضج دوما بالنشاط التجاري، والسياحي والثقافي والفني والاجتماعي، حتى تحولت إلى رمز شهير للمدينة، فلا تذكر مدينة مراكش، إلا وتذكر ساحة جامع الفنا.

الساحات في مدن الخليج أيضا لها وظائف متعددة، فهي تحتضن التجمعات القبلية لاختيار شيخ القبيلة، أو الاحتفال بموسم، أو عيد كبير، أو التعبئة لحدث هام، أو تستقبل الجمالة الوافدين على المدينة، لذلك يطلق على هذه الساحات أسماء دالة على هذه الوظائف، مثل "المناخ" في الكويت، أو "العرصة" في الإمارات العربية المتحدة. ومواقعها تدل على أهميتها في حياة المدينة، فهي تحتل أماكن استراتيجية، في المداخل الرئيسة، أو بجوار المسجد الرئيسي، أو بجانب حصن الحاكم، وتتصل غالبا بالأسواق وتشكل محاور تنتظم حولها البيوت وتتفرع عنها الشوارع.

في الإمارات

كانت مدن الإمارات تزخر بعدد من الساحات، حيث يلتقي الناس فيها للبيع والشراء والمسامرة، هذه الساحات أو "العرصات" بعضها كان يتحول إلى أسواق خلال أيام معلومة من كل أسبوع، مثل يومي الخميس والجمعة، حيث كان يعقد سوق الإبل في مدينة العين، الذي كان مناسبة تجارية هامة، يمارس الناس فيها البيع والشراء، كما كانوا يمارسون فيها هواياتهم ورياضاتهم التراثية الأصيلة.

وفي الشارقة كان هناك "سوق العرصة" من أقدم الأسواق الشعبية في الإمارات. كان يضم الدكاكين التي تعرض المنتجات التقليدية الفنية، والحلي البديعة، وفيه مقهى شعبية قديمة، كان الزوار الوافدون من مناطق بعيدة يروحون فيها عن أنفسهم، بشرب القهوة والشاي، والتواصل فيما بينهم، والمسامرة والحكايات، وممارسة هواياتهم وألعابهم الذهنية، كالورق والدومينو.

وكانت جل الساحات المهمة في الخليج، تقع أمام الحصون، تحت إشرافها وحمايتها، لمراقبة التحركات والتحرشات التي تستهدف المدن، ولضمان أمن وسلامة السكان النازلين بالساحة، ومثال ذلك حصن الشارقة الذي كان يشرف على ساحة واسعة، ومهمة، وقد حظيت هذه الساحة بلفتة كريمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، في كتابه الثمين "سرد الذات"، فساحة الحصن، يرتبط بها عدد من الوقائع؛ أحداث وحكايات كثيرة، تبرز قيمة الساحة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية الإماراتية، عامة، وإمارة الشارقة بالخصوص.

وظائف ساحة حصن الشارقة

نستخلص من كتاب "سرد الذات" عددا من الوظائف والمهام التي كانت تتولاها ساحة الحصن، والأنشطة والفعاليات التي كانت تقام فيها. فقد لعبت هذه الساحة دورا هاما في حفظ تراث الإمارات العربية المتحدة، وفي عمليات التواصل والتبادل الثقافي، إلى جانب أدوارها الاقتصادية التنموية، والتعبوية السياسية أيضا.

1. حفظ التراث

كانت الساحة فضاء للفرجة والترويح عن النفس، من خلال الهوايات أو الألعاب التي كانت تمارس فيها،

أو بسماع الحكايات الشعبية التي كانت تروى فيها. وتستحضر ذاكرة الدكتور سلطان القاسمي في الكتاب مشاهد طفولية مؤثرة ومهمة في دلالاتها، مثل "صندوق الفرجة"، حيث كان الناس، كبارا وصغارا، يشاهدون عروضا مصورة، تقدم القصص الشعبية التراثية عن عنترة بن شداد، أو أبي زيد الهلالي، في شكل مشوق، يقرن بين الصورة والتعليق (ص38).

كما يحكي الدكتور سلطان القاسمي أنه في العيد كانت مجموعة الحرس التابعة للشيخ وهم من أصل عُماني، أُسكنوا بالقرب من محطة الطيران في مكان يقال له "المناخ"، فإذا كانوا في ساحة الحصن، أخذوا يغنون، وهم يرقصون، ويبرز من بينهم اثنان في أياديهم سيوف وتروس، ويقومان بتمثيل مشهد مبارزة، والأولاد متحلقون حول المشهد (ص33).

كما كانت تقام في الساحة نفسها، خلال العيد، رقصة "العيالة"، أمام شيخ الشارقة خلال تلقيه التهنئة بالعيد، بحضور حاشيته، وأعيان البلد (ص33).

2. التواصل الاجتماعي

يستحضر صاحب السمو، صورة الساحة الأمامية للحصن، التي لعبت دورا هاما في إشباع نهم الناس إلى الأخبار المتعلقة بالحرب العالمية الثانية، إذ كان كل مساء، يتجمع الرجال المولعون بتتبع الأخبار في ساحة الحصن، لسماع النشرات الإخبارية من الراديو الوحيد بالشارقة، وكان صوت المذياع يأتي من إحدى نوافذ الغرفة بالطابق العلوي للحصن.

ويصف المؤلف المستمعين الذين كانوا ينقسمون إلى فئتين، فئة تؤيد المحور، وأخرى تؤيد الحلفاء، وكان النقاش العنيف يندلع بين الفريقين، فور الاستماع إلى الأخبار من الإذاعتين الألمانية والبريطانية (ص22).

وكانت الساحة حاضرة دوما في قلب الأحداث السياسية الكبرى، حيث يذكر صاحب السمو الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في كتابه، أنه بعد وفاة الشيخ سلطان بن صقر رحمه الله، يوم 25 مارس 1951م، خلفه في الحكم الشيخ محمد بن سلطان، ولما اتُفق على توليته الحكم، خرج منسوبو المدرسة القاسمية، يوم 21 مايو، واتجهوا نحو الساحة الأمامية للحصن، وكان في مقدمتهم مدير المدرسة والمدرسون، فقاموا برفع علم الشارقة فيها، إيذانا ببدء مراسم إقرار الشيخ محمد بن سلطان حاكما على الشارقة (ص63).

وفي الساحة نفسها، واليوم نفسه، أقيمت احتفالات تولية الشيخ محمد بن سلطان إمارة الشارقة، بحضور الأعيان، وممثلي الإمارات الأخرى، ومندوبي الحكومة الإنجليزية، وجمهور غفير من المواطنين.

3. الترفيه

الساحات التي كانت تحتضن الأحداث الكبرى، لم تكن تخلو من أسباب الترفيه عن النفس أيضا؛ فقد كانت شجرة الرولة بالساحة، وارفة الظل، تباع تحتها الحلويات والمكسرات، يتوافد إليها الرجال والفتية والأطفال. وكانت الفتيات تتخذ منها أرجوحة للتسلية "مرجيحة"، بتثبيت حبال على فروعها، والتأرجح بها، بمساعدة الفتيان الذين يقومون بشطها، أي بإبعادها إلى أعلى، كلما عادت إلى أسفل (ص33).

كما أن الشارقة، كانت فيها عدة ساحات أخرى أصغر، تتوزع على أحيائها بين البيوت، تسمى "البراحة"، تكون ملتقى لأطفال الحي، يتسامرون فيها، ويمارسون ألعابهم الفردية والجماعية. ومن بين هذه "البراحات" كانت واحدة، تنفتح عليها البوابة الشرقية للمسكن الذي كان يقطنه المؤلف، وكان يحلو للصبيان أن يلعبوا فيها، وكان يتواصل لعبهم حتى ساعات متأخرة من الليل، مستمتعين بالأمن الذي كانت تنعم به الشارقة (ص18).

4. التنمية الاقتصادية وتطوير الحرف

كانت ساحة الحصن أيضا بمثابة سوق تجارية، وفضاءات للتبادل التجاري بيعا وشراء ومقايضة؛ فشجرة "الرولة" كان بعض التجار يعرضون للبيع تحتها، وفي ظلها، على المستظلين بها، الحلوى والمكسرات، كما كان البدو الوافدون على الشارقة، يتجمعون تحت شجرة الرولة أيضا، ويعرضون بضاعتهم للبيع هناك.

إنقاذ الحصن والساحة

ظل الحصن عبر تاريخه الطويل الركيزة الأولى للدفاع عن المدينة، ومقرا للحكم وسكن الأسرة الحاكمة في الإمارة حتى مطلع الخمسينات، حيث تحول الحاكم للسكن في بيت بناه قرب الحصن، وفي يناير 1970، بينما كان الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، منهمكا في دراسته بكلية الزراعة في مصر، اتصل به أحد أصدقائه من الشارقة هاتفيا، ليخبره بأن العمال قد شرعوا في هدم الحصن، فما كان من الشيخ سلطان إلا أن غادر مقاعد الدراسة، وسافر إلى الشارقة لإيقاف ذلك الهدم، فوصل إلى الشارقة ليلا، وأصبح على موقع الحصن، ولم يبق من الحصن إلا البرج الدائري المسمى برج "الكبس"، وجدار طوله بضعة أمتار كان متصلا بالبرج (ص248). فأوقف عملية الهدم، وقابل الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، وشرح له ما يمثله ذلك الحصن بالنسبة لأهالي الشارقة، باعتباره أثرا تاريخيا عزيزا للأجداد الذين قامت الإمارة على أكتافهم وبجهودهم، فأقنعه بقبول قراره إيقاف الهدم (ص248).

أوقف الشيخ أشغال هدم الحصن، وأخذ تفاصيل مقاسات المباني التي يتكون منها الحصن، وما سهل عملية نقل المقاسات، وجود الأساسات ظاهرة للعيان، كما جمع بعض الأبواب والشبابيك الخشبية، مثل باب الحصن، وباب الصباح، وباب الخزنة، وعالجها، واحتفظ بها على أمل إعادة بناء الحصن (ص248)، وتحقق له ذلك، بعد ثمانية وعشرين عاما، فأعاد بناء الحصن كما كان سابقا، بأبوابه وشبابيكه، وكل تفاصيله، بإشرافه الفعلي المباشر، وبمعرفته، مستعينا بالصور، وكان أجمل هدية لأبناء الشارقة خاصة، ولدولة الإمارات العربية المتحدة عامة، ولكل الأمة العربية، حفاظا على ذاكرتها الجمعية.

واليوم، أصبح الحصن متحفا يحكي تاريخ سكان المنطقة، وكيف تفاعلوا مع بيئة قاسية، وحولوها إلى جنة خضراء، وكيف نشأت دولتهم، وسيرة حكامها، ونظام الحكم، ومظاهر الحياة المدنية، التجارية والتعليمية والثقافية والإدارية في الشارقة القديمة. وما زالت الساحة الرحبة تقابل القصر، وقد زينت بمدافع تاريخية، تذكر الزوار والسياح بتاريخ الإمارات، وذلك كله تحقق بفضل حكمة سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، وبعد نظره، وحسن تخطيطه، وتدبيره الموفق.

ظاهرة تبادل الهبات
لدى هنود أمريكا

خليل السعداني
جامعة محمد الخامس بالرباط ـ المغرب

شكّلت الهبة إحدى القضايا الكبرى التي أثارت أعمال باحثين كبار في حقل الأنثروبيولوجيا. وكان الباحث الفرنسي مارسيل موس Marcel Mauss من بين الأوائل الذين اهتموا بمكانتها داخل المجتمعات الإنسانية، في مقالة اعتبرها كثير من الدارسين أفضل أعماله.

طرح موس في بداية دراسته تساؤلاً أراد أن يفهم من خلاله الدوافع التي تجعل الناس في كثير من المجتمعات ملزمين ليس بالوهب فحسب، ولكن كذلك بقبول الهبة والرد عليها. ولا يخص هذا التبادل الأشياء المادية من عقارات ومنقولات فقط، بل يمتد إلى تبادل التقدير والاحترام والولائم والطقوس والخدمات العسكرية والنساء والأطفال والشتائم والانتقامات، وينبغي على كل شخص أن يكون جواداً في منح الخير أو الشر معاً.

يرى موس أن الهبة تمثل ترابطاً لالتزامات ثلاثة: هي العطاء وقبول العطاء والرد عليه بإعادة الغرض نفسه أو ما يوازيه أو ما هو أثمن منه. وهذه الالتزامات المتحدة والمترابطة تدفع الهبات، أشياء كانت أم أشخاصاً، إن عاجلاً أو آجلاً إلى العودة إلى نقطة بدايتها. كما يرى أن الأشياء الممنوحة ترتبط بالأشخاص المانحين، بل يمكن اعتبارها امتداداً لهم. وتنشأ نتيجة لذلك علاقة مزدوجة بين المانح والمتلقي: علاقة تكافل وتضامن لأن الأول يتقاسم ما يملكه مع الثاني، وعلاقة تفوق وتمايز لأن المتلقي يصبح مديناً للواهب حتى يمنح الأول من جانبه هبة في وقت لاحق. وقد تنشأ تراتبية بين الواهب والموهوب له حتى وإن كانت العلاقات متكافئة قبل ذلك. أما إذا كانت التراتبية قائمة، فيأتي الوهب كتعبير عنها وتكريس لها. وبصيغة أخرى تخلق الهبة في الوقت ذاته تقارباً وتباعداً بين الواهب والموهوب له، فهي تجمع متضادين: السخاء والإكراه.

اطلع المعمرون ورجال الدين الفرنسيون عقب استقرارهم بكندا خلال القرن السابع عشر على الدور المعتبر الذي تلعبه الهبات في حياة الهنود. لقد كان على المعمرين أن يتقنوا أعداداً كبيرة من اللهجات المحلية من أجل التواصل مع الساكنة المحلية، هذا إذا علمنا أن الكلمة تمثل لدى هؤلاء السلطة، وأن على الزعيم أن يكون بليغاً. ومن أجل تجاوز هذه المشكلة، كان يتم اللجوء إلى المترجمين، وكذلك إلى الهدايا.

الباحث الفرنسي مارسيل موس

فالهبات تستطيع أن تتكلم أحسن من الرجال، وأن تربط علاقات صداقة ومودة بين عالمين مختلفين. واعتباراً لتعدد اللهجات المحلية، كان الهنود يلجؤون أنفسهم إلى الهدايا من أجل التخاطب. وعادة ما كنا نجد كل كلام مجسداً في هبة، وعلى المتلقي أن يعلم دلالتها ليجيب عنها. وهذا يعني أن لكل هدية دلالة رمزية في اللغة المجازية للهنود.

وتتميز حياة الهندي بارتباطها الشديد بالهبة، فالصداقات نفسها تُشترى بالأعطيات. وقد أقر العديد من الرحالة ورجال الدين الفرنسيين بحسن ضيافة الهنود وبكرمهم الكبير، حيث إنهم يتقاسمون ما لديهم مع من لا يملكون شيئاً. ولم يكن لدى سكان أمريكا الأوائل مفهوم الملكية الحصرية، فكل الممتلكات يتم تقاسمها كهدايا. ولا يتم الحصول على الأسبقية في المجتمع، وارتقاء المراتب العليا عن طريق الجمع، ولكن عن طريق السخاء. فقد يحصل أن يتم استقبال الغريب بحفاوة، ويتم نزع حذائه وتنظيف رجليه، ومنحه الغذاء والفراء والكثير من السلع. وكانت بعض القبائل بأمريكا الشمالية تتخلى عن كل ما تملك لكي تحظى باحترام الآخر. وكانت أخرى تتقاسم في نهاية الخريف، بعد عودتها من رحلة الصيد، الطرائد التي تم صيدها. وإذا كانت الصيد وفيراً تمت دعوة القبائل المجاورة للحصول على حصتها.

وتوضح الهبات محدودية سلطة الأب على أبنائه، والزعيم على أفراد قبيلته، ذلك أن الآباء لا يملكون

سلطة استبدادية داخل الأسرة، نظراً لسيادة روح الاستقلال. فعلى الوالد أن يكون متفهماً وسخياً. ويمكن إرجاع روح الحب والاحترام والتفاهم التي تميز السلطة الهندية جزئياً إلى الهبات المتبادلة. كما أن الهدايا توطد العلاقات بين القبائل المختلفة. وقليلاً ما كان يتم انتهاك مبدأ تبادل الهبات من طرف بعض القبائل.

وتختلف مراسيم الزواج بين هنود أمريكا، لكنها تتوحد في أنها لا تتم إلا بمنح الهبات. وترتفع قيمة الهدايا اعتباراً للوضعية الاجتماعية للأب، وجمال البنت. وعادة ما يصاحب هذا الزواج إعداد وليمة للضيوف. ويتم عقد مجلس لدى بعض القبائل لمعرفة رأي الفتاة، بعد أن يطلب الشاب يدها. وإذا ما وافقت هذه الأخيرة، أرسل إليها والدا الشاب هبات عدة. لكن في بعض المناطق، نجد أن زعماء القبيلة هم من يقررون في مسألة الزواج، وليس الآباء. وخلال الاحتفالات، يقدم الأب هدايا إلى ابنه، الذي يقدمها بدوره إلى أسرة عروسه. أما لدى بعض القبائل الأخرى، فعلى الراغب في الزواج أن يتوجه إلى أخ الفتاة من أجل الحصول على موافقته، وهذا التوجه يكون عبر الأعطيات.

وعندما يزداد الطفل عند بعض الساكنة الهندية، ويبلغ أربعة أو خمسة أشهر، يقوم الأبوان بإعداد وليمة، ويدعوان «الشامان» أو ساحر القبيلة مع خمسة أو ستة من أتباعه. ويتم آنذاك ثقب أنف وأذني المولود. ويأكل بعد ذلك المدعوون الطعام الممنوح، وتقدم لهم الأم الفراء والمراجل وأشياء أخرى ذات قيمة. كما يمنح الهنود الهدايا لأمواتهم؛ ويؤدي الموت إلى توقف حركة انتقال البضائع؛ لأن الشخص المتوفى لا يمكنه أن يمنح من جانبه هبات. وتقوم بعض القبائل بعقد أعياد للأموات كل عشر سنوات، ويصاحبها توزيع كبير للهدايا. وعندما يكون فرد في حالة احتضار عند بعض السكان المحليين، يتم تزيينه بأبهى ثيابه وحليه. ويتم طلاء وجهه وجسده باللون القرمزي، كما تتم إحاطته بقلادات من الخزف. وكان يتم دفن كل هذه الأشياء معه. وكان على أفراد القبيلة أن يبدوا جودهم وكرمهم في هذه الظروف الصعبة. وتقوم أسرة المتوفى بإعداد مأدبة كبيرة يحضرها السكان المحليون وبعض الأجانب.

كما تمكن الهدايا من عقد الصلح بين الهنود المتحاربين، ومن كف دموع من مات من أهاليهم، وإطلاق سراح الأسرى. وعندما يسأم الهنود من

خوض الحرب، أو لا يستطيعون خوضها بسبب قلة عدد المحاربين، يلجؤون إلى قبيلة محايدة، وفي الوقت ذاته محالفة للقبيلة المعادية لعقد السلم. وآنذاك يطلقون الأسرى، ويبعثون بالهدايا عن طريق السفراء. ويمكن للهبات كذلك أن تشكل تعويضاً عن عمليات القتل وعن السب والشتم. وينبغي حينئذ على كل أعضاء القبيلة أن يسهموا بممتلكاتهم لتقديم هدايا ثمينة. وعند وصول المبعوثين إلى قبيلة المتوفى، يلقي الزعيم خطاباً من أجل الاعتذار، وكف دموع أبوي وأصدقاء الضحية. وإذا تم رفض الأعطيات، يقوم أصدقاء القاتل بقتله، وتسليم رأسه إلى أبوي الضحية. لكن قد يحدث أن يصبح القاتل عبداً لأبوي الضحية، بل قد يتزوج بأرملة المقتول ويتكفل بأولاده.

ومؤدى القول، توضح وتشرح الهبات آليات المعاملات الاقتصادية والتبادل لدى قبائل الهنود، والتي يمتد أثرها إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية.

د. موزة غباش:
«كتاب التراث الشعبي لمجتمع الإمارات»

دراسة غير مسبوقة تؤرشف محطات هامة للتراث الشعبي

حوار ــ محمد هجرس

كشفت الدكتورة موزة غباش أستاذة علم الاجتماع ورئيسة رواق عوشة الثقافي في حوار خاص لمجلة مراود، عن نقص في عدد المؤسسات المعنية بحفظ التراث، وضعف في الميزانيات المخصصة للباحثين والمتخصصين، مطالبة بضرورة تجنيد المتخصصين في دراسة التراث الشعبي من خلال الدراسة الأكاديمية، والممارسة الفعلية وعمل استطلاعات الرأي والمسوحات، وإلى نص الحوار:

- صدر العام الجاري، عن معهد الشارقة للتراث، كتاب «التراث الشعبي لمجتمع الإمارات» في طبعته الثالثة، فما دور هذا العمل في توثيق مختلف مراحل التراث الشعبي الإماراتي؟.

كتاب التراث الشعبي لمجتمع الإمارات هو فعلا دراسة غير مسبوقة تؤرشف محطات هامة للتراث الشعبي في مجتمع الإمارات، وهي دراسة جاءت بناء على الحاجة الماسة لاستكشاف وإظهار وتوثيق أنماط التراث الشعبي، خاصة في المجالات الهامة والحيوية لدورة الحياة البشرية، كعادات الولادة والزواج وعاداته،وأعراف الموت، ودورة الحياة الزراعية والعادات العامة والمواسم، وكذلك العادت الإماراتية المتعلقة بالمرأة والنظام السياسي، وأنشطة الغوص، والصناعات والحرف، اليدوية والأعياد واحتفالاتها، إضافة إلى تنظيف المولود أو المولودة والتزين، والحلاقة وحمى النفاس والطب الشعبي، وتعرض الدراسة أيضا نماذج من أغاني الزار والفنون الشعبية، وكيفية حساب الحمل والإجهاض ومعرفة نوع الجنين، والمعتقدات المتصلة بالحمل ومحظورات الحمل والوحم وأعراضه وتفسيراته، والوضع الاجتماعي للمرأة، وغيرها من الموضوعات التي يكتنز بها المخزون الشعبي التراثي في مجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة.

- حدثينا عن دور هذا الكتاب في رفد المكتبة التراثية بالإمارات بأعمال أصبحت نافذة؟.

حسب النقاد والمختصين، وما وردنا من آراء عديدة حول كتاب التراث الشعبي لمجتمع الإمارات سواء في طبعته الأولى أو الثانية وأيضا الثالثة التي صدرت مؤخراً، فإن هذا الكتاب يعد المرجع الأول الذي تم إعداده بحرفية علمية عالية، وبحرص شديد ليكون في متناول أيدي الأجيال الجديدة لتعريفهم برموز التراث القديم في مجتمع الإمارات، وتعريفهم بكثير من الأشياء التي استخدمها الآباء والأجداد، والتي لم يستمر بعضها إلى وقتنا الحاضر

وحياتنا المعاصرة؛ بسبب التغيرات الحادة التي تشهدها المجتمعات عموما، في مختلف نواحي الحياة، لا سيما الأساليب الحياتية، وأنماط المعيشة، والاهتمامات والشؤون المختلفة على مستوى الأفراد والجماعات. ما هي المشاريع القادمة التي تعملين عليها، ويمكن أن تغطي جانبا من الجوانب التراثية؟.

المشاريع كثيرة ومتعددة، وهناك العديد من الأفكار لإنتاج دراسات وأبحاث متخصصة في المجالات الاجتماعية عموما، وفي مجال التراث الشعبي في دولة الإمارات سواء لاستكمال كافة أوجه التراث الشعبي لحفظه من الضياع أو لمزيد من الغوص والبحث في موضوعات محددة كالأمثال والحكايات وجميع المعارف، والمعتقدات، والآداب، والعادات والتقاليد والممارسات التي اكتسبناها من جيل الآباء والأجداد ولا نزال نمارسها في دولة الإمارات.

- ما هي التحديات المطروحة الآن للبحث الإماراتي في مسألة التراث؟.

التحديات كثيرة، فالمؤسسات المعنية بحفظ التراث قليلة نسبياً، وأعتقد أن الميزانيات المخصصة للباحثين والمتخصصين غير كافية، وحيث يترك التراث الشعبي لدراسات الماجستير والدكتوراه في الجامعات وعلى نطاق ضيق جدا، فإنه من المحتمل أن يضيع شيء من التراث الشعبي خلال عمليات التغيير المجتمعي ومن التحديات، أيضاً، ما يحدث في الواقع الحالي والتطور التكنولوجي ووسائل التواصل الاجتماعي الذي يحتم علينا إيجاد الوسائل لإيصال الرسالة إلى الأجيال الجديدة، فمثلا نتساءل: كيف يمكننا أن نضع كتاب التراث الشعبي لمجتمع الإمارات في يد كل طفل وشاب وفتاة ورجل وامرأة في دولة الإمارات العربية المتحدة؛ ونحفزهم على قراءته والاستفادة منه، وليكون بمقدورهم جميعا توريثه للأجيال القادمة بعدهم؟ هل يمكن عمل تطبيق مثلا؟ أو إنتاج منهج دراسي؟ وغير ذلك من الأفكار التي نتدارسها حاليا ونحاول وضع خطط لتنفيذها.

- هل هذا فقط كل ما نحتاجه؟

لا، نحن نحتاج أيضا إلى تجنيد المتخصصين في دراسة التراث الشعبي من خلال الدراسة الأكاديمية، وأيضا الممارسة الفعلية، وعمل استطلاعات الرأي والمسوحات وغيرها، تنفيذا لما قاله المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه، وأسكنه فسيح جنانه يوم قال: إننا نحرص على الاحتفاظ بتقاليدنا العربية الأصيلة وتراثنا القومي، وهي تقاليد نحبها وتوارثناها عن الأجداد عبر أجيال طويلة، إنها منقوشة في الصدور وسنحرص عليها دائماً مهما خطونا في ميادين الحضارة.

- ما هو الأفق المستقبلي الاستشرافي للبحث في مسألة التراث الإماراتي؟

كما ذكرت في مقدمة الكتاب، فإنه مع مرور الزمان وتسارع إيقاع التغيير في المجتمعات، تأكدت الحاجة الماسة والضرورية لإنشاء إدارات متخصصة تعنى بالتراث، وما يثار حوله من قضايا ودراسات، مع التركيز على محاولة إبراز دور

المكون التراثي في تغذية روافد الثقافة الشعبية وأنماط البشرية، بصورة علمية وموضوعية، وذلك من خلال إجراء مقاربات ووضع أسس قوية، يمكن للأجيال القادمة أن ترتكز عليها في محاولة بناء أنماط جديدة من الحياة الاجتماعية

والثقافية وغيرها، بحيث تكون جديدة فقط في إطارها العام، ولكنها مستوحاة في جوهرها وأصلها من ممارسات وأنماط اجتماعية قديمة وراسخة وقويمة.

- هل من الأهمية بمكان الاقتصار على الجمع والدراسة والتوثيق للتراث الثقافي، أم إن هناك دعامةً أخرى لابد منها.

العناية الكاملة بالتراث كالعناية بالإنسان نفسه من جميع النواحي، فالاقتصار على الجمع والدراسة والتوثيق للتراث الثقافي لا يعني شيئاً إذا لم يكن هناك الاعتناء بالنشر والتوزيع والترويج وإيصال الرسالة، خاصة في ظل التطور التكنولوجي السريع الذي قد يعمل أحياناً على مسح بعض أجزاء ومحطات التراث الشعبي، وكلما تطور جيل، وتطورت حياته بشكل سريع، سيفقد بلا شك أشياء تراثية تبدو صغيرة في حينها لكنها كبيرة جداً في موسوعة التراث، مثلا كنا نردد في الأعياد واحتفالاتها باكراً "العيد بنذبح لبقره.. وبنعشي خماس طويل المنخره"، فكم من الأجيال الجديدة، التي تحمل الجوّالات صباح يوم العيد وتنشغل في تصوير مقاطع لنشرها على تطبيق إنستغرام وتيك توك وغيرها، هل ما زالت تردد هذه الأغنية التراثية الشعبية؟ أليست مهددة بالاندثار؟

- ما هي نظرتك للواقع الحالي الآن، بمعني أين وصلنا الآن في مجال توثيق التراث الإماراتي من حيث التصنيف والدراسة، ومن حيث النشر؟

أعتقد أننا ما زلنا في بداية الطريق، وأن ما تم تغطيته لغاية الآن لا يشكل أكثرمن 5% من المخزون التراثي لمجتمع الإمارات، فالموروث الشعبي لمجتمع الإمارات يعود لقرون عديدة لجميع الأنظمة الاجتماعية التي عاشت هنا،على هذه الأرض، سواء النظام الاجتماعي كالأسرة والقبيلة، ونظام الزواج والعلاقات الاجتماعية، وكذلك جميع عناصر البنية الاجتماعية، إضافة إلى النظم الاقتصادية، ولحصر كافة جوانب الثقافة الشعبية والعادات والتقاليد والمعتقداتوالأمثال الشعبية والقصص الشعبية، للبحر والصحراء، في دولة الإمارات العربية المتحدة، فإنني أعتقد أننا سنحتاج الكثير من العمل والوقت والجهود والميزانيات التي يمكن تخصيصها لهذا العمل الجليل.

- حدثينا عن الرواق؟

ـ مركز رواق عوشة بنت حسين الثقافي، مؤسسة ثقافية

فكرية اجتماعية، تجسد قيم الأسرة المتماسكة، من خلال تبني مجموعة من الأنشطة الثقافية والخيرية والإنسانية والاجتماعية، وتحقق أهدافها عبر المحاضرات والندوات الفكرية والاجتماعية والتثقيفية وكذلك الجوائز التشجيعية السنوية، وذلك سعياً لنشر المعرفة ويقوم الرواق سنوياً بتوزيع جوائز مختلفة ذات قيمة معنوية ومالية عالية على أفراد من المجتمع، ضمن احتفال سنوي كبير، تحفيزاً وتشجيعا لعدد من الفئات الهامة في المجتمع، وهذه الجوائز تشمل جائزة الأم المثالية، جائزة الأب المثالي، جائزة أصحاب الهمم وجائزة الشباب المبتكرين.

الفنون الاستعراضية
تتألق في «اليونسكو»

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

لطالما كانت الفنون الاستعراضية طريقة للتعبير عن حالة ما، كالقوة والفرح والتفاخر والترابط الاجتماعي، تندمج بعضها حتماً مع الموسيقى والغناء، وأخرى مع الأهازيج والشعر، ولأهميتها وتعبيرها الشديد عن حالة ما وتاريخها، تألقت في «اليونسكو» وتمت الموافقة على إدراجها على قائمة التراث الثقافي غير المادي، من بينها رقصات استعراضية من مشرق الوطن العربي ومغربه، فتميزت هناك وأبهجتنا هنا.

العرضة والرزفة

من أبرز الاستعراضات في منطقة الخليج العربية، العرضة النجدية، التي تعود إلى المملكة العربية السعودية، سجلت في 2015م على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، التي تعود إلى المملكة العربية السعودية، سجلت في 2015م على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، والعرضة هي استعراض تقليدي يجمع بين الرقص والطبول، وترديد الشعر الذي يشير إلى بداية المناسبات البارزة ونهايتها، مثل الأعياد الدينية وحفلات الزفاف، المواليد، مراسم التخرج، أو الأحداث ذات الأهمية الوطنية أو المحلية، وكأي من فنون الاستعراض هو تعبير ثقافي للمجتمعات.

تتكون العرضة من عازفي الطبول والاستعراضيين والشعراء، يحمل الرجال الذين يؤدون العرضة سيوفاً خفيفة، ويقفون جنباً إلى جنب في مجموعتين من الصفوف المتقابلة، تاركين مسافة بينهم لاستيعاب العازفين، أحد الاستعراضيين يرتدي زياً كاملاً يحمل علماً، وشاعر يردد أبياتاً خاصة بالمناسبة بصوت عالٍ، يتناوبها المشاركون.

وتكاد لا تخلو مناسبة ثقافية وتراثية في الدولة هنا من «الرزفة»، فهي تعبير جلي عن الفرح والفخر والاعتزاز، سجل هذا الفن الأدائي الاستعراضي التقليدي لمصلحة كل من الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان في 2015م على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، يقوم أداء الرزفة على اصطفاف الرجال في صفين متقابلين، وبفاصل يراوح بين 10 و20 متراً، وهي المسافة التي يقف فيها حملة الطبول والرزيفة والمزافنين، وهم رجال ينتمون إلى فئات عمرية مختلفة، ويقومون بأداء الحركات بسيوفهم وخناجرهم، كما تشارك الفتيات بالرقص بتحريك شعورهن ويسمينَ «النعاشات»، ويرافق الرزفة إلقاء مقاطع شعرية يتم تبادلها بين الصفين، وتمنح تلك مع الموسيقى المشهد الأدائي الانسجام والتناغم.

وتتولى العديد من الجمعيات المعنية بالحفاظ على التراث في كلتا الدولتين بتدريب الأطفال والمستجدين على هذا الفن الشعبي، وتأخذ بعض المحطات التلفزيونية المتخصصة والمؤسسات الثقافية على عاتقها التعريف بهذا الفن وغيره من الفنون الشعبية، ولإدراج عروض فرق الفنون التقليدية ضمن فقرات المهرجانات والاحتفالات، والمناسبات الاجتماعية، وقد أثمرت هذه الجهود زيادة عدد فرق الرزفة وجموع من يؤدونها من الأفراد.

الدبكة والسامر

وسجل «عيد خضر إلياس ونذوره» لمصلحة العراق كإحدى المناسبات الدينية والاجتماعية التي تترافق مع عدد من الفنون الأدائية، في 2016م على القائمة

التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، ففي كل عام من شهر فبراير/ شباط، تكرم المجتمعات العراقية «الخضر إلياس»، وهو شخصية مقدسة وفقاً للمعتقدات الدينية، وتمنح المصلين رغباتهم، وخاصة المحتاجين، وفي شمال العراق، خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من الشهر تتجمع العائلات على تل، حيث يُعتقد أنه ملاذ الخضر، يرتدون ملابس تقليدية، يستمتعون بأطباق معدة خصيصاً، ويؤدون رقصة شعبية تسمى الدبكة. وفي وسط العراق، ينضم أفراد المجتمع على ضفة دجلة، التي يعتقدون أنها ملاذ الخضر، ويرسلون شموعاً مضاءة على الخشب على طول النهر، ويطلقون العنان لكل رغباتهم على أمل تحقيقها مباركة بهذا اليوم.

ونجح الأردن في إدراج فن السامر بوصفه فنّاً أدائيّاً على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي العالمي غير المادي للبشرية في عام 2018م، ويُمارس السامر في مناطق عديدة من الأردن، ويتألف أساساً من الرقص والغناء، ويؤدى في مناسبات مختلفة، وغالباً خلال مراسم الزواج، يمارس السامر من قبل الشباب حتى الأفراد الأكبر سناً، مع تشجيع الأطفال على المشاركة أثناء العروض. في يوم الزفاف، يوجه والد العريس الحاضرين ليصطفوا ويبدؤوا بالتصفيق والغناء. ثم ينادي أحد المشاركين على الحاشي (وهي امرأة ترتدي عباءة تغطي جسمها وغطاء للوجه يبرز فقط عينيها) التي تؤدي بدورها رقصتها أمام صف الحاضرين (السامرين)، وعندما تنتهي يخرجها أحدهم من الساحة. ثم ينتقل السامرون لرقصة «السحجة»، وتعود الحاشي للرقص بينهم. وتعرب أبيات الشعر التي تلقى أثناء الرقصة عن مشاعر الفرح والسلام والتعاطف. ويمكن لجميع الأعمار المشاركة في هذه الرقصة، ويؤدي السامر وظيفته في ترسيخ الروابط الاجتماعية وتعزيز التماسك، ويتم تشجيع الحضور من جميع الأعمار على المشاركة بشكل عفوي في محاولة لنقل المهارات والمعرفة ذات الصلة إلى الأجيال القادمة.

«التحطيب».. رقصة العصي

يعد فن «التحطيب» من الفنون التي أدرجت على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية في 2016م لمصلحة مصر، والتحطيب أو الرقص بالعصا هو أحد الفنون التي عرفت في مصر القديمة كأحد أشكال الفنون القتاليّة، وبات اليوم من الفنون الاحتفاليّة التي حافظت على جزء من الرموز والقيم المرتبطة بممارستها، وتؤدّى هذه المبارزة أمام جمهور من المشاهدين، حيث يقدّم المتبارزون، على أنغام الموسيقى الشعبيّة، عرضاً قصيراً للحركات غير العنيفة باستخدام عصي طويلة، تتم بين شخصين في الحلبة، وتمارس هذه من قبل الرجال الذين غالباً

ما يكونون من سكان محافظات الصعيد في مصر العليا، وتقوم قواعد المبارزة على الاحترام المتبادل والصداقة والشجاعة والفروسيّة والفخر، ويتم تناقل فنون هذه المبارزة في العائلات والمجتمعات والبيئة المحيطة.

«التاسكوين».. بحاجة إلى صون عاجل

تعد «التاسكوين»، رقصة الدفاع عن النفس في الأطلس الكبير الغربي، من الفنون الأدائية التي سجلت في 2017م على قائمة التراث الثقافي غير المادي الذي يحتاج إلى صون عاجل لمصلحة المغرب، التاسكوين هي رقصة قتالية خاصة بسلسلة جبال الأطلس الكبير الغربية، ويتضمن الفن هز أكتاف المرء على إيقاع الدفوف والمزامير، تعزز الممارسة التماسك الاجتماعي والوئام، وتوفر وسيلة أساسية للتنشئة الاجتماعية للشباب. يحدث انتقال هذا الفن إلى الأجيال الشابة بشكل غير رسمي، من خلال التعلم المباشر. لكن بسبب عوامل عدة، أصبحت الرقصة الآن محصورة في عدد صغير من القرى، وهي معرضة لخطر الاختفاء. لقد دفعتها العولمة إلى الاقتراب من النسيان، كما يتضح من ازدراء الشباب المتزايد للتراث التقليدي لمصلحة الممارسات الفنية الحديثة. لم تعد تمارس الرقصة من قبل العديد من المجتمعات، ولا يستطيع المتحمسون المتبقون والحاملون العثور على الطامحين الذين يمكنهم نقل معرفتهم إليهم. كما أن الحرفية المتعلقة بالأدوات والملحقات آخذة في التدهور. ومع ذلك، فقد شهد العقدان الماضيان زيادة الوعي الجماعي بالحاجة إلى ضمان بقاء هذا الفن بين بعض المجتمعات؛ ولهذه الغاية تم إنشاء أول جمعية متخصصة في المنطقة في عام 1993م، وهي مبادرة تبعتها قرى عدة أخرى، ويتم الآن إنشاء العديد من الجمعيات المحلية.

في: علم الحرف وسر الحرفة

محمد عبدالله عبدالرحمن
كاتب ـ الإمارات

ماذا نعرف عن عمق تلك الأحرف الثلاثة المكونة لمسمى الحرف، والناحتة لمباني الحِرَف أياً كانت؟ وكيف ترى القطع الدقيق في ذؤابة سيف كل حرف ليحدث كلاماً ناطقاً بالمنطوق، وسيطاً بين المعنوي والمحسوس، وذلك (الانحراف) الإبداعي المميز لكل فردية إبداعية متجلية في صنعة متقنة تقول ما لا تقوله كل مصنوعة أخرى، وإن تشابهت المخرجات، وتوحدت المعايير؟

وهل قوة الحرف الدفينة في مسالك بحر الخيال ودهاليز الكتاب المكنون فينا هي ما تحدث حقيقة ذلك الفرق الجوهري بين احتراف المحترف وامتهان الممتهن؟ أم أن تضارب الدلالات هو ما جنح بالحرفة عن أصلها وسرها المتميز؟

أسئلة تواردت إلى ذهني عند تأملي في الاشتقاق الدلالي والفيلولوجي لكلمة حرف، وعند نظري إلى واقعنا المتلهف إلى الاحتراف والمهمش للحرفة في الوقت ذاته في كل وجوه هذه الكلمة الجذرية، فإن الحرف يحتوي الدقة، حدّاً وانحرافاً وتأثيراً، فحتى إن أمال فحرف عن المسار، فإن تلك الإمالة جاءت عن تدبير دقيق، فلن يُعرَفَ انحرافٌ إلا إذا عُرِف المسار، فالحرف هو الناحت للمسار الوجودي بكل تجلياته في العالمين الإنساني والكوني، وهو القلب الذي عبره تسري القوى إلى غاياتها، ولا عجب، فأمر الحق بين حرفين هما الكاف والنون.

وإذا كانت حروف الهجاء، أو ما اصطلح عليه بظاهرة اللغة هو المحدد للمعنى الحرفي للإنسانية، والمصور لدقة التأثير الإنساني في رسم وإدراك معالم هذين العالمين المتوازيين، فإن حديثنا عن الحرفة والاحتراف قد يتباين مع تصنيف ما بعد الثورة الصناعية، أو تعريف ما بعد المهنية للحرفة والحرفية.

إن الدقائق روح قد سمت وعلت
عن سعيها فسعت للمجد تمجيدا
ليس المريد لإصلاح كمن مُلئت
أقتابه بحبال الخوف تقييدا
في كل شهد مصفى مهجة سلكت
طريق حرف فلاقت منه تأييدا
إرثي حروف وليس الكم بغيتها
بل سبر كنزي، أنا من فيه تحديدا
إذا رأيت فلاناً متقناً عملاً
وجاعلاً في الحشا إنجازه عيدا
فاعلم بأن لقلب الحرف سطوته
وإنَّ سَعْيَ شكور كان محمودا
إن الحروف برازخٌ فاصعد بها
نحو اصطياد الكنز، كن موجودا

إن الحرفة والاحتراف ما هي إلا تجليات لذلك الـ«ثقب الدودي» بين التكوين والكينونة، والمُفَرِّد لكل ما هو منفرد في هذا الوجود. فالحرفة، في روح ماهيتها ليست هي امتهان الهواية، ولا اصطناع المنفعة، ولا

معاناة يومية من أجل كسب القوت، وإنما هي ذلك المشهد المستغرق للكيان في الإبداع المُتفرِّد الناتج عن شغف وحرص على الإتقان.

يُشبه المفكر الأمريكي روبرت غرين، في كتابه «Mastery» عملية اكتشاف الإنسان لحَرْفِهِ التكويني الذاتي المتفرد، أو مهارته الأسمى بعملية «الحفر»، فنحن في طفولتنا لطالما اجتذبتنا صنوف محددة من المعارف، أو أنماط معينة للألعاب، أو أدوار وشخصيات معينة، كنا أقدرَ على تقمصها، أو هوس إبداعي أو استكشافي ما، وإذ دخلنا أو أُدْخِلنا في السبيل العام لسير المجتمعات، من نظام تعليمي وهرمية اقتصادية وتراتب اجتماعي، فإن ذلك الهوس المتفرد النابع عن حب يتوازن تدريجياً، بل قد يقترب من الانطفاء، حين تطغى الاعتبارات المادية، والبراغماتية، والتشعبات التي تفرضها الدائرة المتسعة للمعرفة، على قرارنا باحتضان ذلك الهوس، وتُطوى تلك المهارة الخفية، لكن ذلك المسمى بـ«المُتْقِن»، بحسب تعبير جرين، هو من سار في تلك الرحلة، وتشبع بما أعطته من مهارات ومعارف وعلاقات ومدارك، ثم عاد إلى ما صبا إليه صغيراً، فذلك هو من يمكن تسميته بـ«المحترف».

في مجتمعاتنا الحديثة، تطغى المهنية على الاحتراف، فالعملية التعليمية بما تفرضه علينا من نمط معين لا محيد عنه في أسلوب التفكير، وقرارات قائمة على «خيارات المهنة» و«متطلبات السوق» قد قلّلت ذلك الوهج الإبداعي والطابع الشخصي ذا التواصل المباشر والاتصال الحي بالمنتج. فصار النتاج نتاج مهنة منضبطة، ومؤسسات قائمة في ذوات أفرادها ملاكاً وموظفين على تلك القاعدة التي درسناها في مساق الاقتصاد الأول في الجامعات (الغرض النهائي لأي نشاط اقتصادي هو زيادة الربحية والقيمة).

في طفولتي كنت أراقب أمي، تلك المرأة المخلصة المتفانية، بل الفانية في عملها، كانت تنسى نفسها في المطبخ، ولساعات طوال من ضحى وظهر كل يوم كانت تسعى، عبر مزيج الإتقان وعشق الكمال والحب، لإعداد وجبة أفضل كل يوم، لم تكن تنتظر إطراء، أو ترنو لأي كسب مادي أو معنوي، كانت أمي في المطبخ تمثل حق التمثيل حَرْفَها الحاد المحدِد لكيانها، ومهارتها ذات العطاء المتجدد والمتقن، كان طبخ «أم محمد» لا يحتاج إلى وصف، بل كان يصف نفسه بنفسه.

عندما اهتمت الإمارات والشارقة بالحِرَف، وعرّفتها بأنها الإرث المنقول كابراً عن كابر عبر الأجيال، فإنها قد أضاءت لأجيالها القادمة مسلكاً جديداً في النظر إلى مسارها الحياتي، مسلكاً يعتمد في أساسه على الشغف والتعلم المباشر، وارتباط يفوق الكم مع كل ما نصنع ونرسم ونكتب ونزرع، ارتباط روحي وقلبي يجعل مما نصنع قطعة منا نهديها للوجود، وأمانة فينا لنا نسلمها متقنة للوفاء، بذلك الميثاق السامي المعَرِّف لكل معاملة بشرية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها). فالإبداع أمانتنا المخفية فينا، وحرفنا التكويني الذي لا يفتأ مناديا لنا نحو حرفتنا الموهوبة المكتسبة.

لولاكِ يا أحرف التكوين ما كنا
فمنكِ جئنا إلى شيئية المعنى
في كل ذات حروف السر مبهمة
فما ميم ذاتي مثل ميم بها أعنى
أنا الشغوف، أَجُد السير في قدري
لكي أرى الكنز مصقولاً به أفنى
في كل ضربة مسمار أرى أملي
بل في توهج مخيالي أرى عينا
ليس السبيل بأن أسعى إلى مهن
بل إرثي الصامت المطواع قد غنى
إن احترافي لحرفي قد يكون غدا
لكنني اليوم إنسان ولي معنى

فن تشكيل
الزجاج المنفوخ

د. خالد متولي
مدير مركز دراسات الفنون الشعبية - مصر

إن حرفة تشكيل الزجاج المنفوخ تزخر بالعديد من الإنتاجات التي توازن بين القيم المهنية والاقتصادية والقيم الجمالية، كما لها دور كبير ومؤثر في تنمية الذوق الاجتماعي العام، بالإضافة إلى تشكيل عقل جمعي يهدف إلى إيجاد شكل جميل من أشكال التعبير الفني، وهي تعرف بتقاليدها النمطية في وسائل الإنتاج، إلى جانب تميزها بالتشكيل والزخرفة، ما يضيف نوعاً من الثراء الجمالي لحرفة الزجاجيين، وتؤكد من جديد مفهوم النفع والجمال.

وعاء زجاجي متعدد الألوان من الأسرة الثامنة عشرة.

وإذا كان لكل حرفة أصول ومواصفات خاصة، فإن حرفة الزجاج تتطلب براعة خاصة ومعرفة عالية باستخدام أدوات وطرق الإنتاج، بالإضافة إلى أنها من الحرف القليلة في مجال الإبداع التي تتطلب دقة في معالجة الخامة باستخدام الطاقة النارية والهواء الساخن بدرجات عالية جداً.

وحرفة تشكيل الزجاج هي حرفة تقع في نطاق الجانب التطبيقي، الذي يستغلّ الخامة بتقنية عالية، ولها خبرة وتخصص، وتحتاج إلى معرفة كاملة ببعض قواعد التشكيل والتعامل مع الخامة ومقاديرها العلمية، وإن الرؤية الشعبية فيها تقع في موقع ميل الإنسان، واقترابه من الإنتاج كنوع من الألفة لطبيعتها اليدوية. ومن خلال الرموز والأشكال التي يستخدمها الفنان الشعبي في تعبيراته ورسومه، إنما نتعرف إلى بعض التقاليد والظروف التي تحكمت في أساليب الفن الشعبي فيما مضى، ومازالت تحركه بالكيفية نفسها حتى اليوم، فكأننا ننقب وسط عالم من الخرافة والخيال عن معانٍ مجازية مستترة وراءها، فنراه يستعين في حالات كثيرة بأشكال مبسطة أو وحدات زخرفية يرتبها ويكررها، وفقاً لنمط معين كأنها لغة إشارات يحدثنا بوساطتها.

نبذة تاريخية عن حرفة تشكيل الزجاج المنفوخ

ظهر فن صناعة الزجاج منذ العصر الفرعوني حتى العصر الحديث، حيث اخترعت طريقة نفخ الأنبوبة نحو عام 30 ق.م في شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ما أدى إلى شطب اسم الزجاج من قائمة الأشياء التي تدل على الترف والرفاهية، وفي عام 1291م ظهر في البندقية نظام نقابي لعمال الزجاج.

وفي العصر القبطي، تأثرت المنتجات الزجاجية بالنظرة الجديدة التي جاءت مع الديانة المسيحية وميولها إلى الزخرفة والتصوير بالرموز التوضيحية للدين، ورسوم الأحداث الدينية.

أما في العصر الإسلامي، فاستمرت صناعة الزجاج حتى النهوض، واتخذ المسلمون من الزجاج الأواني المختلفة الأشكال، منها ما هو للزينة، ومنها ما استخدم في عمل الوحدات القياسية العيارية الوزنية. وقد تقدم فن صناعة الزجاج في العصرين العباسي والمملوكي. وقد توصل الصانع المسلم إلى ابتكار مادة المينا التي تتكون من مسحوق الزجاج الذي يخلط ببعض الأكاسيد، ثم يذاب المخلوط في مادة زيتية، ويتحول إلى سائل بالتسخين إلى درجة حرارة عالية، ويصبح الزجاج صالحاً لتجميله.

وقد ازدهر الزجاج في العصر الفاطمي بقيام الصناع بإنتاج مصنوعات بلورية تزدان برسوم الطيور والأشكال النباتية والذي ساعد على ذلك حياة الترف التي عاشها الفاطميون ورجال دولتهم حتى أنهم خصصوا خزانة البلور. وفي العصر الأيوبي كان التركيز على الصناعات النافعة مثل صناعة الحفر على الأخشاب والخزف والضروري من الزجاج للحياة اليومية.

صورة رقم (4)
شمعدان يرتكز على قاعدة مثلثة الشكل

صورة رقم (8)
ويعد من أقدم المكاييل الزجاجية تستخدم كمكيال ويحمل تاريخ سنة 88 هـ/ (706م).

وفي العصر المملوكي ازدهرت مرة أخرى الصناعات، ومنها الزجاج الذي تميز في ذلك العصر بطلاء المينا. وكان أهم ما يميز هذا العصر مشكاواته التي تفنن فيها الحرفي المصري، والتي كان بعضها مطلياً بالمينا وعليه زخارف قوامها أشرطة تملؤها كتابات وجامات وفروع نباتية، وبعضها مغطى بالكامل برسوم من الزهور والنباتات، كما وردت أسماء سلاطين المماليك على المشكاوات. وفي العصر العثماني أنشأ محمد علي معملاً للزجاج بالإسكندرية، ولكن كثر الإنتاج وقل البيع؛ لكثرة الزجاج المستورد، حيث استورد العثمانيون الزجاج من مدينة البندقية وبوهيميا، وكذلك مدينة بيكوز.

ونجد أن حرفة تشكيل الزجاج بعد سنة 1890م ازداد تطويرها وصناعتها واستعمالها، ففي هذا العصر تطورت آلات الإنتاج، وظهرت طرق جديدة لتصنيعه لتفي بالغرض المطلوب بالضبط، حيث أصبح علم الزجاج وهندسته مادة مفهومة أكثر من أي وقت مضى. وقد أدت الطرق الجديدة إلى إجادة قطع الزجاج ولحامه وقفله قفلاً محكماً، وتطويعه، إضافة إلى قلة تكلفته عند استعماله في ميادين أخرى جديدة، وتتضمن هذه الميادين استعمال الزجاج لخطوط الأنابيب وأواني الطبخ وعزل الحرارة. ولكن عندما اتجهت الطبقة الحاكمة إلى استيراد الزجاج، فقد المبدع المصري جانباً كبيراً من الهمة في الإبداع، فظهرت ملامح التدهور للحرفة بداية من القرن الثامن عشر.

صناعة المشكاوات

تعتبر صناعة المشكاوات من المنتجات العريقة التي ورثتها الأجيال جيلاً بعد جيل، حتى هذا العصر، وقد شهدت هذه الحرفة تطوراً كبيراً وملحوظاً في العصر المملوكي، حيث تتميز هذه الصناعة بالدقة والبراعة، بالإضافة إلى تنوع أشكالها وجمال زخرفتها، كما تعد من أجمل منتجات الإضاءة في عصر المماليك، فكانت إنارة المساجد والأضرحة من الأمور المهمة التي أولاها سلاطين المماليك عناية فائقة.

فن صناعة المشكاوات الزجاجية

أبدع ما وصل إليه صناع الزجاج المسلمون يتجلى في صناعة المشكاوات الزجاجية المزخرفة بالمينا والمموهة بالذهب، وتعد صناعة المشكاوات إحدى الصناعات الصعبة التي برع فيها المصريين.

مشكاة من الزجاج المموه بالمينا والتذهيب وتتألف زخارفها على الرقبة من نقوش كتابية من سورة النور، بالإضافة إلى ألرنوك الكتابية للسلطان حسن أما البدن فيه زخارف نباتية من اللفائف الدقيقة والأشجار المحملة بالأزهار.

وقد أطلق علماء الفنون والآثار الإسلامية ومؤرخوها مصطلح مشكاة على القناديل المموهة بالمينا المستخدمة للإنارة لتمييزها عن بقية المنتجات الزجاجية.

المراحل التقنية للحرفة

جمع الزجاج: يجمع الزجاج المنصهر من الفرن على صفارة التشكيل للنفخ، ويسخن طرف البوليين حتى اللون الأحمر المعتم قبل الجمع، ويجب ألا تغمر صفارة التشكيل في الزجاج المنصهر ولكن الأفضل أن تسحب فوق سطح الزجاج نحو الباب، بعد ذلك يتم دفع صفارة التشكيل عن سطح الزجاج باستخدام الحافة المعدنية للفرن، مع الاستمرار في إدارة الصفارة في الفرن إلى أن يتوقف خيط الزجاج المنصهر.

تشكيل ونفخ الفقاعة: حتى تتم الفقاعة الأولى يجب رفع صفارة التشكيل، إما أفقياً أو في الاتجاه إلى أسفل نحو الأرض.

حز الفقاعة: في أثناء سند صفارة التشكيل على المنضدة على نافخ الزجاج استخدام الرافعات، لتحدث حزاً على الفقاعة في مؤخرة رأس صفارة التشكيل تماماً.

الجمعات الإضافية: عند القيام بعملية الجمعة الثانية بعد أن يكون اللون الذي يدل على الحرارة في الفقاعة قد اختفى، تدفع الفقاعة إلى تحت سطح الزجاج المنصهر عند محيط الرقبة، وتدار صفارة التشكيل مرة واحدة، فإذا ذهب الزجاج فوق محيط الرقبة مصادفة

جمع الزجاج

تشكيل ونفخ الفقاعة

فإن الإناء في هذه الحالة يمكن أن يكون له رقبة.

التكوين على صفارة التشكيل: يمكن تشكيل الآنية بطرق شتى، وهي ما زالت على صفارة التشكيل أو النفخ، ويشكل على المارفر أيضاً بوساطة المحاريك والضغط بوساطة الرافعات أو يقطع بالمناشير.

التوصيل بالبونتيل: حينما تصل الآنية إلى الحد والشكل الذي يريده الحرفي يجب أن تلصق بالبونتيل، وبعد ذلك ترفع صفارة التشكيل أو النفخ.

وتتجلى قيمة الزجاج في القرآن الكريم، عندما وصف الله نوره بالمشكاة المضيئة، فاستلهم الصانع المسلم هذا التشبيه البليغ ليحقق ما وصفه الله لنوره، فأبدع المشكاة وزينها بأسماء الله الحسنى، وجعل لها الجامات والأشرطة المذهّبة، وحملت آيات الله، وكأنه ينفذ شكلاً أبدعته أسماء وأقرته الكتب السماوية ليضيء بها بيوت الله للذكر والصلاة.

وقد وردت لفظة مشكاة في سورة النور في الآية (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

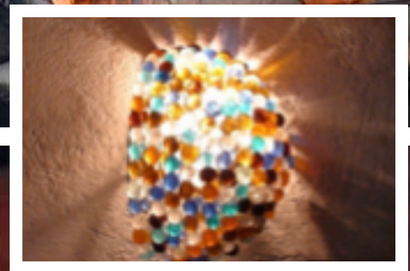

وحدة إضاءة من الزجاج المنفوخ

الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.[1] صدق الله العظيم.

كذلك أورد الله في كتابه قصة سيدنا سليمان، عليه السلام، حينما دعاه النبي سليمان أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فسخّر له قوى الطبيعة من رياح وطيور وجان ليحارب بها الشر، ولينصر كلمة الله في الدنيا، فتأتى قصة سليمان تحمل إبهاراً لمن يسمعها وتستقر في الوجدان ليستمد منها الإنسان أبهر الصناعات.

فعندما لما يجد سليمان الهدهد ضمن العرض العسكري لجنوده غضب وقرر ذبحه، إن لم يجده في التو واللحظة، ليظهر الهدهد حيث وقف غير بعيد خجلاً من غيابه، ولكنه أتى إلى النبي سليمان من سبأ بخبر يقين، وهو أنه وجد امرأة تحكم قوماً يسجدون للشمس من دون الله، وقد أوتيت من المال والثروة ما لم يؤت أحد في ذلك الوقت، فقال من يأتيني بعرشها، ولقد فكر في العرش لأنه أغلى ما عندها، حيث صنع من الذهب والأحجار الكريمة وبلغ دقة متناهية من الصنع والإتقان، فقال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وقال آخر أنا آتيك بعرشها قبل أن يرتد إليك طرفك، وقد نقل عرش بلقيس إلى مملكة سليمان بفلسطين قبل وصول بلقيس إليها، وكان سليمان قد أمر ببناء قصر يستقبل فيه الملكة بلقيس، ولقد بناه الجان من زجاج، واختار سليمان أن يكون القصر معظمه على ماء البحر.

وكانت المفاجأة عندما حضرت بلقيس، فقد اهتزت قواها النفسية والعقلية بعد رؤيتها عرشها، وعندما سألها سليمان أهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو. صنعت أرضية القصر من زجاج شديد الصلابة والشفافية، ليتمكن السائر على الأرض من رؤية ما تحته من أسماك ملونة وأعشاب متحركة، وكانت أرضية القصر من فرط الشفافية وكأنها قد تلاشت، وكأنه روعي في صنعه الخداع البصري، فلما تقدمت بلقيس في خطوات وئيدة قال لها سليمان: ادخلي الصرح، فلما نظرت إلى القصر لم تر الزجاج من فرط الشفافية والإتقان في الصنع، ورأت المياه، فكشفت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابها، فنبهها سليمان دون أن ينظر إليها ألا تخاف على ثيابها من البلل فتلك ليست مياهاً حقيقية، وإنما هي زجاج ناعم «إنه صرح ممرد من قوارير»، فاهتزت داخلها آلاف الأشياء، الشمس وقوة قومها وعلمهم وضيق أفقهم وغفلتهم، وأضاء نور الإيمان قلبها، لتسلم مع سليمان لله رب العالمين. وهكذا لعب الزجاج في إحدى قصص الأنبياء، قصة سيدنا سليمان، دوراً مهماً ليرجع الملكة بلقيس عن عبادة الشمس من دون الله، فكان للزجاج أثر خاص في نفوس المسلمين[2].

وعلى هذا، فإن الفنان الشعبي يقوم بخدمة إنسانية، وهي جمع المتخلف من ناتج الصناعة، وكسر الزجاج فينظف البيئة، ويمنع من ضرره، وأكثر من ذلك ويحول هذه الخامات الضارة بالبيئة والإنسان إلى منتج فني له قيمة عالية، وعلى هذا فهو يحقق أحد المبادئ الحضارية بتحويل الرخيص إلى نفيس.

قائمة المراجع

1- القرآن الكريم.

2- محمد حسين علي: سلسلة هن في حياة الأنبياء، ع22، القاهرة: شركة هن.

(1) قرآن كريم، سورة النور، آية 35.

(2) محمد حسين علي: سلسلة هن في حياة الأنبياء، ع22، القاهرة: شركة هن، ص22.

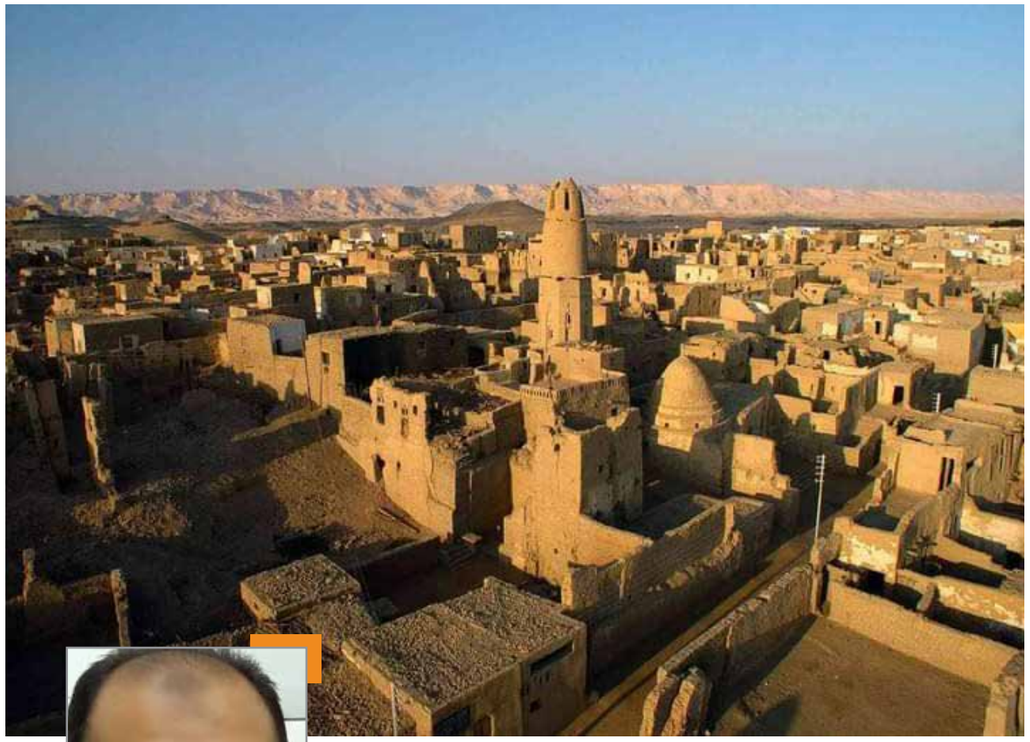

«القصر»

مدينة ذات تراث تاريخي وحضاري

أحمد سليم عوض
كاتب - مصر

مراود

رحلة طويلة في دروب الصحراء الغربية من القاهرة إلى محافظة الوادي الجديد أكثر من 600 كيلومتر لاكتشاف هذه المدينة الخلابة التي يحتضنها الجبل في منظر رائع، وهي تقع أسفله، ويحيطها النخيل من كل جانب، مع رمال الصحراء التي تزيدها الشمس ذهباً ولمعاناً مع أهلها الطيبين الذين اكتست ملامحهم بلون مدينتهم التي أطلق عليها «عروس الواحات المصرية»، إنها مدينة القصر الإسلامية.

مَن يزرها يشعر كما لو أنه في المدينة الفاضلة التي يتخيلها الشعراء؛ لأن زائرها يجد فيها كل ما يشتهيه من جمال وهدوء وشاعرية وبيئة نظيفة خالية من التلوث، ومازالت تحتفظ بآثار فريدة ينحني لها التاريخ، حيث تجمع بين كونها واحدة من أقدم المدن التاريخية في صحراء مصر الغربية، وكونها تعد متحفاً مفتوحاً يروي للزائرين جانباً من ملامح الحياة في الزمان السحيق؛ حيث يرجع تاريخ بنائها إلى أكثر من سبعمئة عام، وتقع في الجزء الجنوبي الغربي من مصر، الذي يمتد غرب وادي النيل إلى عمق الصحراء الغربية، وهي تقع ضمن الواحة الداخلة عند التقاء دروب قديمة عدة، كانت بمثابة الطرق الخاصة بالقوافل التجارية وللغزاة والفاتحين، وقد شيدت القصر على تل مرتفع، ما هيأ لها موقعاً جغرافياً متميزاً، وهذا المرتفع حدد مساحتها، وبالتالي امتدادها، وهيأ لها ميزات عديدة، حيث حدّ من زحف الرمال عليها، وساعد على اعتدال مناخها؛ كذلك ساعد الارتفاع الذي يبلغ عشرين متراً من الجهة الجنوبية على مراقبة القادمين إليها من مسافات بعيدة، ووفر لها ميزة التحصن والاستعداد للدفاع عن المدينة ضد الأعداء، والأراضي المحيطة بها عبارة عن تلال وهضاب وكثبان رملية. وحولها تل رسوبي من الطمي المترسب منذ آلاف السنين وإلى الغرب والجنوب منها أراض زراعية خصبة، وكان السهل الرسوبي يوفر المادة الطينية

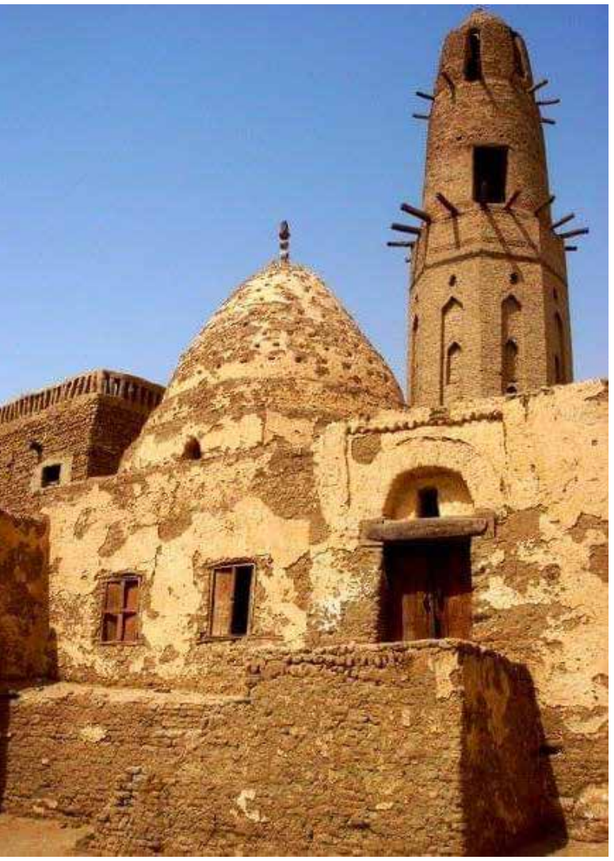

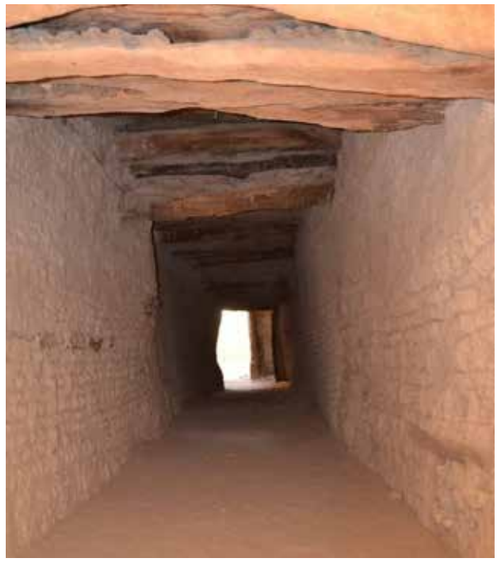

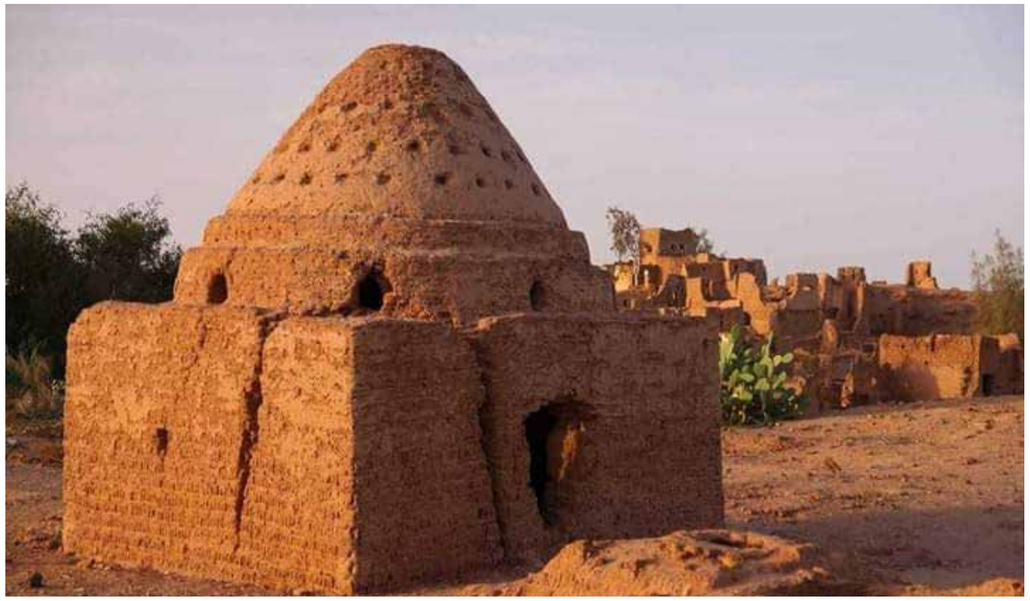

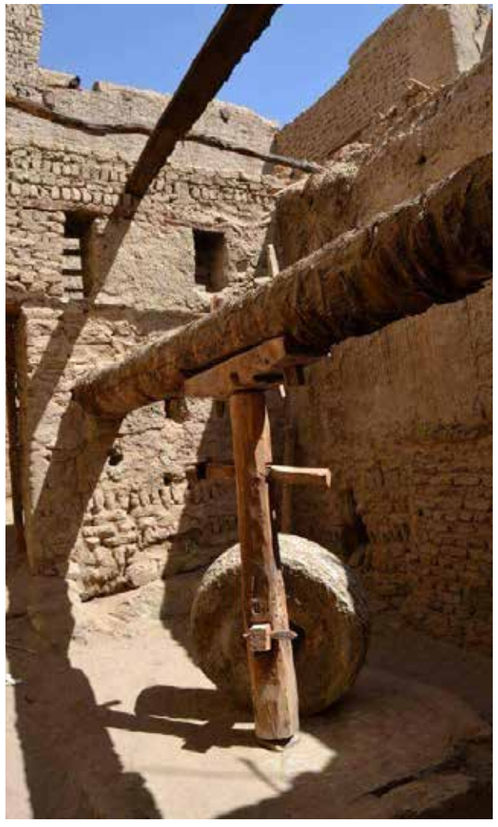

لصناعة قوالب اللبن التي تعجن بالماء مع التبن، وهي أعواد القمح التي تساعد على تماسك وصلابة المادة الطينية؛ لذلك صمدت كثيراً في مواجهة الدهر، لا ينافسها في ذلك سوى بعض أطلال لآثار ترجع إلى التاريخ المصري القديم، لاتزال صامدة هي الأخرى على مشارف المدينة وما يميزها من غيرها أنها لاتزال عامرة بالسكان، ويحرص أهلها على ممارسة حياتهم اليومية، بشكل يحافظ على تاريخ المدينة، ويراعي قيمة ما تضمه من مبانٍ تدخل في قائمة الآثار والتراث الإنساني في مصر. ويعيشون على زراعة النخيل، وهو يعد أشهر الزراعات في منطقة الوادي الجديد، وتضم القرية نحو 200 بيت، تجاورها بعض المواقع الأثرية التي كانت تستخدم في العصور السابقة، كالطاحونة ومبنى المحكمة، إضافة إلى العديد من مآذن المساجد الأثرية، التي لاتزال تحتفظ بنضارة تاريخها، ولا تتجاوز ارتفاعات البيوت في القرية الثلاثة طوابق، تتضمن أماكن للمعيشة، وأخرى للنوم، وثالثة لتخزين الثمار والغلال.

ويقول كثير من المؤرخين، إن قرية القصر كانت واحدة من القرى التي استقبلت القبائل الإسلامية التي وفدت إلى الواحات في عام 50 هجرية، وهم يدللون على ذلك بالمسجد العتيق الذي لاتزال مئذنته قائمة حتى اليوم، وهي مبنية من الخشب، وتتكوّن من ثلاثة طوابق بارتفاع يصل إلى 21 متراً، وتتميز بالأعتاب الخشبية المنقوش عليها آيات من القرآن الكريم، وتمتد المدينة على مساحة تصل إلى 10 أفدنة، ويحدها من الشمال تل مرتفع، ومن الشرق بئر لعين الحامية الجاف، ومن الجنوب مسجد نصر الدين، ومن الغرب مقام الشيخ حمام، وفي طرفه الشمالي ضريح الشيخ أبو بكر. ويرجع كثير من المؤرخين تسمية القرية بهذا الاسم، نظراً لوجود بقايا قصر روماني قديم، لاتزال آثاره متبقية تحت القرية، وهو يعكس روعة التخطيط الهندسي للقرية، التي جرى تقسيمها إلى دروب وأحياء وحارات.

وتشتهر القرية بالعديد من الحرف، التي سميت على اسمها بعض الحارات والدروب، وأهم ما يميز هذه الحارات هو منازلها المتلاصقة التي تعبّر عن روح الأسرة الواحدة، حتى إن أسطح المنازل كلها مفتوحة على بعضها لا يفصلها سوى بقايا سعف النخيل. وهي تعد نموذجاً فريداً للمدن الإسلامية وأغناها، حيث إنها مدينة إسلامية متكاملة بكل شوارعها ودروبها وأزقتها وعمائرها الدينية، مثل المساجد والأضرحة، وعمائر مدنية مثل المنازل والعصارت والطواحين، وقد ذكرت في المصادر التاريخية القديمة منذ القرون الأولى الهجرية، كما ذكرت فى كتاب الأرض لابن القصبي

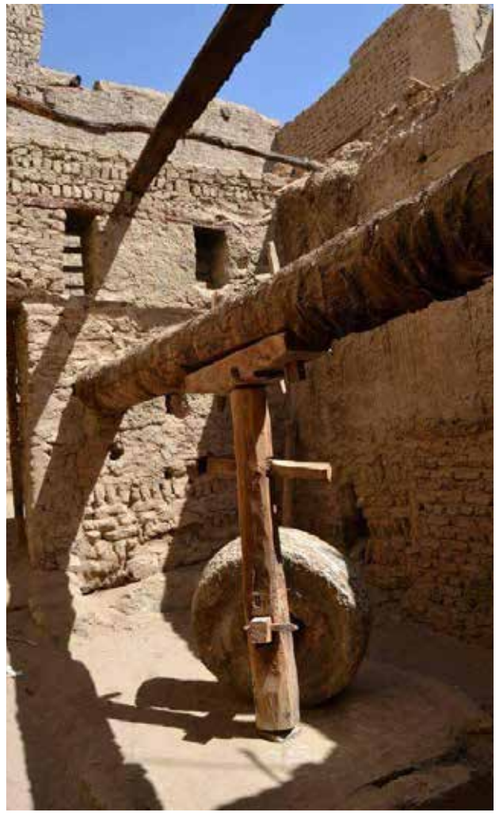

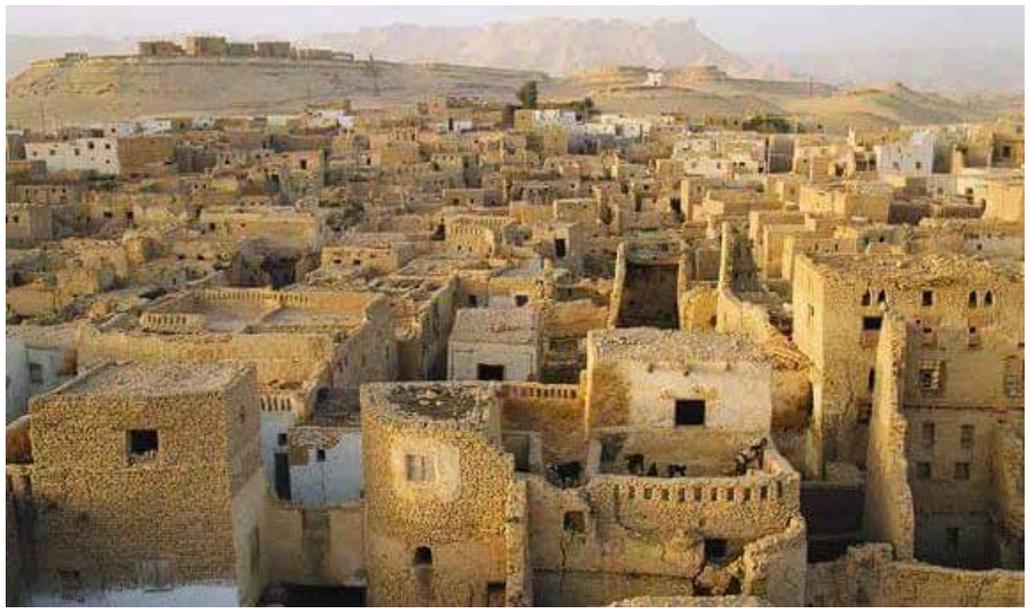

سنة 367 هجري أوائل العصر الفاطمي، حيث ذكر أن القصر ناحية بالداخلة، وأن بها قصر لآل عبدون، حكام الواحات في ذلك العصر وملوكها وحول القصر مساكن لآل عبدون وحاشيتهم، كما ذكرت أيضاً مدينة القصر الأثرية في كتاب المعرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكري، حيث جاء أن القصر حصن بالداخلة في وسطه عين ماء ثرثار تتشعب فيه الأنهار، كما جاء ذكرها في كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط، جاء فيه أن الداخلة حيزان قبلي وبحري، وأن القصر هي عاصمة الحيز القبلي والهنداو، وهي عاصمة الحيز البحري، وأقدم نص تأسيسي بالمدينة يحمل تاريخ 906 هجرية، أواخر العصر المملوكي الجركسي، ومعظم آثار المدينة تعود إلى العصر العثماني.

وللمدينة الأثرية تخطيط معماري هندسي رائع، حيث تم تقسيمها إلى دروب وأحياء وحارات، يغلق عليها بابان كبيران على طرف كل حارة، وذلك خوفاً من غارات العدو ليلاً، وللمدينة الأثرية عشر بوابات تغلق على الحارات ليلاً، وكان بالمدينة العديد من الحرف الصناعية التي سميت على اسمها الحارات والدروب مثل حارة النجارين والحدادين وصناع الفخار والجزامين والحبانية؛ أي تجار الحبوب، فنلاحظ أن الشوارع والحارات سميت على أسماء الصنّاع وأسماء أصحاب الحرف.. ومن أهم العائلات التي أسست المدينة هم أربع عائلات، وهي: عائلة القرشيين والدينارية وعائلة خلف الله وعائلة الأشراف والشهابية، وتتميز بأنها غنية بوجود العديد من الآثار المتبقية التي تحمل العديد من الأعتاب الخشبية أو النصوص التأسيسية التي ميزت المدينة من غيرها، وجعلتها الفريدة من نوعها، كانت تصنع من خشب السنط، ومكتوب عليها بالحفر البارز، وتبدأ أحياناً بالبسملة، وبعض الأبيات الشعرية، وأحياناً بعض الأدعية، وأخيراً اسم الصانع أو النجار، وكان يحمل تاريخ الصنع، وهو ما جعل لها أهمية تاريخية وأثرية، حيث إنها تحمل تاريخ الأثر، ويرجع أقدم تاريخ موجود على النص التأسيسي إلى عام 906 هجرية، يليه عتب آخر يحمل تاريخ 924 هجرية.

ويوجد في مدينة القصر خمسة مساجد، تتركز في

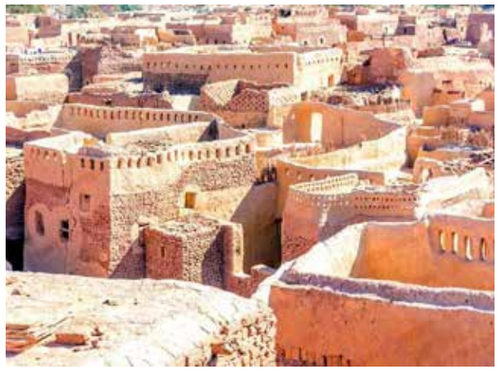

الجانب الجنوبي في المدينة، وتتمثل في جامع الجمعية القرشية، وجامع نصر الدين، وجامع وضاح، الذي يجاور حارة الجزارين، وهو مندثر في الجانب الجهة الشمالية من المدينة، ومن اللافت للنظر أن هذه الجوامع لها مآذن أشبه بمآذن أسوان القديمة، من حيث الشكل، وأشبه بمآذن سمرقند وبخارى وخيوة بآسيا الوسطى، من حيث انفصال المئذنة عن المسجد.. وقد تعددت الحرف التقليدية التي ارتبطت بالحياة داخل المدينة، وبأنشطتها الاقتصادية، ومنها السعفيات، حيث تعتمد في مادتها الخام على الجريد وسعفه، ويصنعون منها القفاف والمشنات، وهي أوانٍ خوصية تستخدم في حفظ الخبز، وحمل الغلال والتمور، وتعمل بعض الأسر في القصر في صناعة الحصر من السمار، والذي ينبت منه بصورة طبيعية بالقرب من المدينة.. ومن الحرف التقليدية بالقصر الحدادة التي لاتزال تمارس بها إلى اليوم. إنها مدينة تراثية مجهولة وسط الصحراء جميلة وخلابة، وأهلها يكتبون تاريخاً عظيماً لها، بالحفاظ على تاريخهم وتراثهم العامر بكل الحضارات والحكايات.

«أيام الشارقة التراثية»

إبداع مستمر

سلامة الرقيعي
كاتب - مصر

بدأت فعاليات أيام الشارقة التراثية هذا العام في الأول من مارس 2023 تحت عنوان «التراث والإبداع»، لتضيف في فقراتها المتنوعة إبداعاً في التنظيم، واستحداثاً في عرض التراث، وتنوع البيئات، وتوافد الثقافات في قلب الشارقة، حتى يكاد من تعود رؤيتها والمشاركة في فعالياتها، يشعر كأنه يلجها للمرة الأولى، ويسبر أغوارها، فيستخرج كل جديد، ويقترب له من التراث كل غائب وبعيد.

محققة بذلك الريادة في إدارة مشروعاً، يعكس الدور الثقافي والحضاري الذاخر والنابض بمفردات التراث الشعبي الإماراتي بكل صوره وأشكاله وبيئاته المختلفة، محافظاً على خصوصيته، ومعبراً عن الهوية الوطنية التي تتميز بها الشارقة خاصة، والإمارات عامة، ومع تلك الخصوصية والانفراد تأتي ثقافات العالم وتراثه من كل حدب وصوب؛ لتنقل صورة حيّة يشاهدها عن قرب كل مهتم، مختلطة بعبق المكان وإبداع الإنسان.

وأبسط مثال تجده وأنت تتفقد هذا التراث «حارة الخبازين»، وقد تنوعت فنون الطهي والخبز من بلدان عدة، تجعلك تكتفي بتلك الحارة، ولا تخرج منها إلا وقد تذوقت عبق الماضي، بلقيمات يقمن صلبك، وتسد بهن جوعك، هذا بخلاف دكاكين الأطعمة والمنتجات من كل العالم في مكان واحد.

ولقد أحسنوا الصنع في جعل التراث والإبداع عنواناً للأيام في نسختها العشرين، حيث تميزت باستضافة إبداعات متنوعة في البيئات المختلفة، سواء الجبلية أو الزراعية أو البحرية أو الصحراوية، ممثلة للحياة في تلك البيئات محلياً، بل عالمياً، فضلاً عن المقهى الثقافي الذي ترشف منه كل جديد، وكذلك البرنامج الأكاديمي الذي يؤصل بمنهج علمي كامل المحتوى الثقافي والتراثي، وغيرها من الأنشطة المصاحبة والموزعة على «أيام الشارقة التراثية.

ويأتي ذلك من حسن صناعة القائمين على تلك «الأيام»، وعلى رأسهم سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقه للتراث رئيس اللجنة العلياالمنظمة للأيام، الذي يبذل الجهد في الوصول بالتراث بشقيه المادي وغير المادي إلى أعلى مستوى من الحرفية والعالمية، وكل ذلك برعاية كريمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، حفظه الله ورعاه، الذي يرعى كل جهد يبذل في تحقيق أهداف سامية نحو الحفاظ على التراث، ونشر الثقافة التي تؤسس للأجيال تواصلها الدائم مع مجتمعاتها.

واختيار الإبداع ليأتي متسقاً مع التراث، فإن التراث ما كان له أن يستمر، ويكون تراثاً لولا إبداع من قاموا بتكوينه، وإنشاء معالمه التي تتوارثها الأجيال، واحتفظت بها المجتمعات، وإن كان قد تم توظيف بعضها ليكون مواكباً للعصور المتعاقبة التي تعيش فيها تلك المجتمعات، ولكن بمزيد من الإبداع مازالت تحافظ على رونقها وبهجتها.

وما نراه في تلك الأيام من استدعاء ذلك التراث يمثل أحد الشواهد الحية على دقة الإبداع.

لمحة عن الإبداع:

الإبداع لغة: هو بدع الشيء يبدعه بدعاً، وابتدعه؛ أي أنشأه وبدأه.

وبدع الركية: استنبطها وأحدثها.

وركي بديع: حديثة الحفر.

والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولاً، وفي التنزيل «قل ماكنت بدعاً من الرسل»، أي ماكنت أول من أرسل قد أرسل قبلي رسل كثير.

والبدعة: هي كل شيء محدث، والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول قبل كل شيء سبحانه «بديع السماوات والأرض».

ويقال أبدع الشاعر: جاء بالبديع.

وفلان بِدعٌ في هذا الأمر؛ أي أول لم يسبقه أحد.

وبدع الشيء أنشأه على غير مثال.

الخليفة اللَّقْلق(*)

شهرزاد العربي
كاتبة - الجزائر

يُحْكى أنه كان في بغداد خليفة اسمه يزيد، اعتاد بعد أن يفيق من قيلولته أن يجلس ليحتسي قهوته ويدخّن، وقد عرف عنه أنه في هذا التوقيت يكون حسن المزاج؛ لذا كان على من يريده في أمر، الدخول عليه في هذا الوقت، حتى إن وزيره لم يكن يفوت فترة الصفاء هذه، ليحمل له كل أخبار وأمور البلاد.

ذات يوم دخل الوزير على الخليفة، وبدا متكّدراً بعض الشيء، فسأله:

ـ لماذا وجهك متجهم أيها الوزير؟

فانحنى الوزير، واعتذر منه قائلاً:

ـ معذرة يا مولاي، رأيت قبل أن أدخل عليك بائعاً متجوّلاً يحمل أشياءَ جميلةً، أردت شراء بعضها، لكنني نسيت كيس نقودي في البيت، وخشيت أن يرحل الرجل دون أن اشتري شيئاً.

طلب منه الخليفة أن يستدعي هذا البائع، وعندما دخل هذا الأخير بدأ يعرض بضاعته أمام الخليفة، فكانت عبارة عن خواتم وعقود لؤلؤ، وأمشاط من العاج مزينة بحجارة كريمة، وكذلك خناجر بحلية ذهبية ثمينة، وسيوف.

بعد أن تأمل الخليفة ووزيره هذه الأشياء، اشترى الخليفة خنجراً وسيفاً مزيّنين بالذهب والفضة أهداهما إلى وزيره، كما اشترى مشطاً هدية لزوجة الوزير.

بعد أن تم كل هذا، أخرج البائع، علبة صغيرة ـ كانت معه ـ فيها مسحوق أسود، ومعه ورقة مكتوب عليها بلغة غريبة، وقال للخليفة:

ـ لقد أعطاني رجل هذه الأشياء، التي وجدها في مكة عندما ذهب إلى الحج، وأنا لم أجد أحداً يشتريها مني، وأنا مستعد أن أبيعك إيّاها بأيّ ثمن.

أثارت المخطوطة اهتمام الخليفة، فاشتراها مع علبة المسحوق الأسود، ثم صرف البائع المتجول، وأراد أن يعرف ماذا يوجد بالمخطوطة، ونقل رغبته هذه إلى وزيره، فقال له هذا الأخير:

ـ أعرف رجلاً يسمى سليم العالم، يجيد العديد من اللغات، ربما استطاع أن يفك رموز هذه المخطوطة.

فأمر الخليفة بإحضار سليم العالم، وعندما مَثُل بين يديه، قال له:

ـ إن استطعت أن تفكّ هذه الرموز كَافَأْتُك، وإذا فشلت فستعاقب لحملك اسم العالم، وأنت لست أهلاً له.

فرد الرجل:

ـ موافق أيها الخليفة.

وما إن نظر في المخطوطة حتى صاح:

ـ إني أعرف هذه اللغة.. إنها اللغة اللاتينية.

تحمّس الخليفة والوزير، وسألاه:

ـ ماذا يوجد فيها؟

قرأ سليم العالم عليهما، مترجماً ما جاء فيها:

ـ على كل من وجد هذه المخطوطة أن يحمد الله على نِعَمِه، وإن كل من يستنشق هذا المسحوق الأسود، ويتلفظ بكلمة «موتابور»، يستطيع أن يتحول إلى أيّ حيوان شاء، ويعرف لغته، وعندما يريد أن يعود إلى بشريّتِه عليه أن يتجه إلى الشرق، وينحني ثلاث مرات، ثم يقول: «موتابور» مرة أخرى، فيعود كما كان، لكن هناك شرط، وهو أنّ عليه عدم الضحك مطلقاً، وإلا نسي العبارة السحرية، وبقي طول حياته في هيئته الحيوانيّة.

بانتهاء سليم العالم من القراءة، كانت عينا الخليفة تشعّان نوراً، وظهرت الحماسة على وجهه، فطلب من سليم العالم كتمان ما عرف، ثم كافأه، وصرفه.

نظر الخليفة إلى وزيره، وقال له:

ـ هل فهمت يا منصور ماذا قال؟ كم سأكونُ سعيداً لمعرفة كيف سأشعر وأنا في هيئة حيوان! لذا سنذهب إلى الحقول، ونستنشق المسحوق الأسود، وسنعرف عندها ماذا تقول الحيوانات والطيور والأسماك والحشرات.

في صباح الغد تهيأ الاثنان لهذه المغامرة، وخرجا مُتَّجِهيْن إلى حقلٍ اعتاد الوزير أن يرى فيه كثيراً من اللَّقَالِق، التي كانت تثير اهتمامه بأصواتها وحركاتها. عندما وصلا إلى الحقل وجدا لقلقة تبحث عن غذائها وسط المستنقع، ثم لاح في الأفق طائر لقلق آخر كان يتجه حيث وقفت الأولى، فقال الوزير منصور للخليفة:

ـ إنني أراهن على أن هذه الطيور الطويلة الأرجل ستقوم بمحادثة شائقة، فماذا لو تحولنا إلى لَقْلَقيْن، واستمعنا إلى حديثهما؟!

ردّ الخليفة، قائلاً:

ـ أجل سيكون الأمر جميلاً.

فقال له الوزير:

ـ لكن علينا ألا ننْسى كيف نعود إلى حالتنا الأولى.

وذكّره بعدم الضحك، وبينما هما يتحدثان، إذ حطت اللقلق على الأرض، وهنا سحب الخليفة العلبة من زنّاره، واستنشق الاثنان المسحوق، وتلفّظا بالكلمة السحرية، فتحوّلا إلى لقلقيْن جميلين، وسعدا بهذا التحول، ثم اقتربا من اللقلقيْن، وأصاخا السمع لهما. اتجهت القادمة نحو اللقلقة الموجودة في المستنقع، وقالت لها:

ـ صباح الخير يا عزيزتي ذات الأرجل الطويلة.. لماذا أتيت باكراً اليوم؟

ـ صباح الخير يا صديقتي ذات العنق الجميل، لقد خرجت لأستمتع بتناول فطوري طالما الجو هادئاً، فهلا شاركتني، لديّ بعض الضفادع و..

قاطعتها اللقلقة الأخرى قائلة:

ـ شكراً يا عزيزتي، لا أشعر بالرغبة في الأكل الآن، إنما خرجت مبكرة لأتدرَّب على الرقص؛ لأنني سارقص اليوم أمام ضيوف والدي.

وما أن أكملت حديثها حتى بدأت تقوم بحركات غريبة، تذهب هنا وهناك، وتفرد أجنحتها ثم تطويها كأنها مروحة، وتمدّ إحدى رجليْها عالياً، وتقف على الأخرى، وتقفز هنا وهناك، بحيث يكون رأسها إلى الأسفل.

كل هذا والخليفة ووزيره ينظران إليها، ودون سابق إنذار انفجر الخليفة في الضحك وحذَا وزيره حذوه، ثم

* مترجم بتصرف، عن النص الفرنسي: Le tailleur fou et le calife cigogne par M Latappy

قـال الخليفـة:

ـ إن ما يحدث لنا لا يُقدر بمال.

أخافـت ضحكتهـما اللقلقـين فطارتـا بعيـداً.. عندهـا تذكّـر الوزيـر الـشرط، وانتبـه إلى أنـه ممنـوع عليهـما الضحـك، وإلا نَسِـيَا الكلمـة السـحرية، وفعـلاً حـاولا التذكـر مـرات عـدة لكـن دون جـدوى.

بعـد أن يئسَـا مـن تلـك المحـاولات هَامَـا عـلى وجهيهـما في الحقـول لا يدريـان مـاذا يفعـلان في حالتهـما تلـك، فهـما لا يسـتطيعان الخـروج مـن هيئـة اللقلـق والعـودة الى القـصر، وإذا عـادَا وهـما عـلى تلـك الحـال، فمـن سـيصدق قصتهـما، وإن صدقوهـما فهـل سـيقبل أهـل بغـداد أن يكـون خليفتهـم لقلقـاً؟

بَقيَا لأيّام عـدة يحصلان عـلى طعامهـما بصعوبـة بالغـة، وكل مـا كانـا يسـتمتعان بـه هـو الطـيران، حيـث كانـا يحلّقـان في سـماء بغـداد، ويتفرَّجَـان عـلى النـاس مـن الأعـلى.

وذات يـوم، بينـما كانـا واقفـين عـلى سـطح القـصر، لاحظـا هرجـاً ومرجـاً في الشـارع، إذْ تقـدم موكـب ضخـم، ظهـر فيـه رجـل حسـن الثيـاب يمتطـي حصانـاً، وأحاطـت بـه حاشـيته بأجمـل حلـة، والنـاس تهـرول خلفـه، تحييـه، وتهتـف قائلـة:

ـ عاش «ميرزا» حامي بغداد.

نظـرا لبعضهـما بعضـاً مُسـتغرْبيْن مـا يحـدث، ثـم قـال الخليفـة لوزيـره:

ـ الآن عرفـت لمـاذا سـحرتُ، إن هـذا الميـرزا هـو ابـن ألـد أعـدائي السـاحر الكبـير «كشـنور»، الـذي أقسـم بعـد مشـادة كلاميّـة بيننـا أن ينتقـم منـي، لكنـي لـن أفقـد الأمـل.

غـادرَا المدينـة وطـارَا بعيـداً، وظـلا يفكـران في الأمـر، وعندما تعبا اختارا قرية مهجورة مكاناً للمبيت، وبينما كانـا هنـاك سـمعا صـوت بـكاء، فتقـدم الخليفـة ليعـرف مصـدر الصـوت ودفـع أحـد الأبـواب ليجـد بومـة كبـيرة واقفـة هنـاك تبـكي، ومـا أن رأتهـما حتـى هللـت فرحـة وقالـت لهـما:

ـ أهـلاً أيّهـا اللقلقـان، أنتـما نجْـدتي، لقـد قيـل لي إن نجـاتي لـن تكـون إلا عـلى يـد لقلـق.

اعتذر منها الخليفة، وقال لها:

ـ يبدو أن أمَلَك سيخيب إذا ما عرفتِ قصَّتنا.

ونـزولاً عنـد رغبتهـا، بـدأ يحـكي قصتهـما، وبعـد أن انتهـى مـن حديثـه قالـت لـه:

ـ اسـمع قصتـي الآن.. لقـد كان أبي ملـك الهنـد، وأنـا ابنتـه الوحيـدة، وإن السـاحر كشـنور الـذي سـحرك هـو أيضـاً سـبب تعاسـتي وآلامـي، فقـد جـاء ذات يـوم وخطبنـي لابنـه ميـرزا لكـن أبي غضـب منـه، وألقـى بـه خارجـاً، فانتقـم منـي، وبعدهـا جـاءني ذات يـوم كنـتُ فيـه جالسـةً في حديقـة القـصر أنعـم بالهـدوء، في صـورة خادمـي، وقـدَّم لي شرابـاً عندمـا شربتـه تحوّلـت إلى بومـة، ثـم أحـضرني إلى هنـا، وقـال لي: سـتظلين هنـا وحيـدة مكروهـة مـن الجميـع، ومنـذ ذلـك الوقـت وأنـا هنـا وحـدي.

كانـت البومـة تـروي حكايتهـا وعيناهـا تنهمـران بالدمـع، ولاحـظ الخليفـة الشـبه بـين قصتهـا وقصتـه، لكنـه رأى نفسـه عاجـزاً عـن مسـاعدتها.

فقالت له:

ـ أذكـر أننـي عندمـا كنـتُ صغـيرةً، أن عرَّافَـة قالـت لي: إن خلاصـك سـيكون عـلى يـد لقلـق.

سألها الخليفة:

ـ هل لديك فكرة عن كيفيّة الخلاص؟

فأجابته:

ـ إن السـاحر يجتمـع مـرة كل شـهر مـع أعوانـه، ويتحدثـون عـن كل جرائمهـم، ربمـا ذكـروك، وذكـروا الكلمـة السـحرية التـي سـتخلصك مـن سـحره.

فطلـب منهـا أن تخبـره بالمكان واليـوم، لكنهـا كانـت حذرة، وتريـد هـي الأخـرى الخـلاص مـما هـي فيـه، فقالـت له:

ـ سأخبرك بشرط أن يتزوّجني أحدكما.

فوجـئ الخليفـة ووزيـره بطلـب البومـة، فأسـتذنا منهـا للحديـث عـلى انفـراد، وحـاول الخليفـة إقنـاع وزيـره بالـزواج منهـا، لكـن هـذا الأخـير كان خائفـاً مـن زوجتـه، فقـال للخليفـة:

ـ إنـك أنسـب لهـا منّـي، فأنـت شـاب وغـير متـزوج، ومـن المؤكـد أنهـا أميـرة جميلـة.

وبعـد نقـاش طويـل بينهـما قبـل الخليفـة بـشرط البومـة، عندهـا قادتهـما إلى مـكان هيـأت فيـه غرفـة فسـيحة، فرشـت بأحسـن فـرش، ووضعـت فيهـا مائـدة عليهـا كل مـا تشـتهي الأنفـس مـن طعـام، ثـم أقبـل كشـنور مـع أصحابـه للسَّـمر.

هنـاك رأى الخليفـةُ كشـنور، كـما تعـرَّف أيضـاً إلى البائـع المتجـول، وكانـوا يتحدثـون عنـه، وسـأل أحـد الجلـوس:

ـ ما الكلمة السحرية التي كتبتها له؟

ضحك البائع، وقال له:

ـ لقد كتبْتُ له كلمة لاتينية هي «موتابور».

وهنـا هلـل كلٌّ مـن الخليفـة والوزيـر.. لقـد عرفـا الكلمـة السـحرية وركضـا خارجـاً والبومـة تتبعهـما ولا تـكاد تلحـق بهـما.

وعندما أصبحـا بَعِيديْـن عـن السـاحر، شـكرَا البومـة عـلى مسـاعدتها، ثـما توجهـا إلى الـشرق، وانحنيـا ثـلاث مـرات، وتلفظـا بكلمـة «موتابـور»، وكـم كانـت سـعادتهما كبـيرة وقـد عـادا بَشريْـن كـما كانـا، فسـلَّمَا عـلى بعضهـما بعضـاً بحـرارة، وعندمـا التفتـا كانـت هنـاك امـرأة جميلـة في حلـة بهيَّـة تقـف خلفهـما.

عندمـا رآهـا الخليفـة أعجـب بهـا، وبجمالهـا الأخـاذ، فقالـت لـه:

ـ هل تعرَّفْت إلى صديقتك البومة؟

كان الخليفـة سـعيداً بهـا، ونـدم عـلى أنـه رفـض في البدايـة الـزواج منهـا، ثـم ارتحـل ثلاثتهـم إلى بغـداد، حيـث قـصر الخليفـة، وأقيمـت الأفـراح، وعُوقـب كل مـن كشـنور ومـيرزا، وعـاش الزوجـان حيـاة سـعيدة.

أطباق تشجيانغ

الكاتبة: نوال هونغ يي
المترجم: عبد المجيد يو شنغو ون
المراجع: جمال بن علي آل سرحان

تقع مقاطعة تشجيانغ على الساحل الشرقي لبحر الصين، بجبالها الجميلة ومياهها الصافية ومنتجاتها الغنية، تُعرف بأرض الأسماك والأرز. الممرات المائية الشمالية مترابطة، والتلال الجنوبية الغربية متموجة ومتواصلة، مناطق الصيد الساحلية الشرقية مغطاة بكثافة، والموارد المائية غنية جداً، هناك أكثر من 500 نوع من الأسماك الاقتصادية والأصداف المائية، وتحتل قيمة الإنتاج الإجمالية المرتبة الأولى في البلاد، وتشتهر بخصائصها الفريدة وشهرتها الهائلة. أطباق تشجيانغ واحدة من ثمانية أطباق رئيسة من قومية الهان في الصين.

تقع مقاطعة تشجيانغ على الساحل الشرقي لبحر الصين، بجبالها الجميلة ومياهها الصافية ومنتجاتها الغنية، تُعرف بأرض الأسماك والأرز. الممرات المائية الشمالية مترابطة، والتلال الجنوبية الغربية متموجة ومتواصلة، مناطق الصيد الساحلية الشرقية مغطاة بكثافة، والموارد المائية غنية جداً، هناك أكثر من 500 نوع من الأسماك الاقتصادية والأصداف المائية، وتحتل قيمة الإنتاج الإجمالية المرتبة الأولى في البلاد، وتشتهر بخصائصها الفريدة وشهرتها الهائلة. أطباق تشجيانغ واحدة من ثمانية أطباق رئيسة من قومية الهان في الصين.

أطباق تشجيانغ غنية وتتمتع بخصائص جنوب الصين، ولها تاريخ طويل، وهي أطباق محلية مشهورة في الصين. نشأت أطباق تشجيانغ في العصر الحجري الحديث (قبل عشرة آلاف سنة تقريباً)، ومرت بمرحلة التراكم في عصر أسرة يواي (2032ق.م - 222ق.م)،

ومرحلة النضوج والاستواء في عصر أسرة هان وتانغ (202 ق.م - 907م)، ومرحلة الازدهار في عصر أسرة سونغ ويوان (960م - 1279م)، وأخيراً مرحلة التطور في عصر أسرة مينغ وتشينغ (1368م - 1912م)، بعد ذلك تم تشكيل النمط الأساسي لأطباق تشجيانغ.

تتميز أطباق تشجيانغ بأربع خصائص مشتركة: أولاً، الاختيار الرائع للمواد، فالمواد الخام لأطباق تشجيانغ تولي اهتماماً لتنوع الأصناف والمواسم، وتعكس تماماً نعومتها وطراوتها. ثانياً، فن الطبخ الفريد من نوعه، فأطباق تشجيانغ تشتهر غالباً في الصين والبلاد الأخرى بتقنيات الطهي الغنية والملونة. ثالثاً، الاهتمام بالمذاق والنكهة الأصلية، حيث تحرص أطباق تشجيانغ على الذوق الخفيف، وتحافظ على لون المواد الطبيعية والطعم الحقيقي للمواد الخام، ودائماً ما يُضاف إليها براعم الخيزران الطري ولحم الخنزير والفطر الشتوي والخضراوات الخضراء الموسمية التي تكمل بعضها بعضاً، ويبقى الطعام الشهي الناتج عن المزيج المعقول من المواد الخام السابقة بعيداً عن متناول التوابل. رابعاً، دقة التحضير، التي شكلت أطباق تشجيانغ الرائعة الشكل والحساسة للغاية والمتقنة.

تعد «أسماك الخل في البحيرة الغربية» ممثلة لأطباق تشجيانغ. يستخدم سمك خل البحيرة الغربية كارب الحشائش الحي والطازج، وبعد تجويعه لمدة يوم إلى يومين، يتم التخلص من الرائحة الترابية، ويُطبخ السمك

الحي من دون الزيت، فيظهر هذا الطبق باللون الأحمر الساطع، ويصبح طعمها مناسباً حلواً وحامضاً. وتتمتع لحوم السمك بالذوق الفريد لذيذة وطرية، أفضل من لحم السلطعون، ذو نكهة فريدة من نوعها.

يعد جمبري لونغ جينغ طبقاً مشهوراً آخر ذا نكهة محلية قوية. يتم طهي هذا الطبق مع شاي لونغجينغ الجديد، والقريدس النهري الطازج قبل مهرجان تشينغ مينغ (قبل أو بعد اليوم الخامس من إبريل كل سنة). لونه أبيض وأخضر، وطعمه طازج طري وناعم، ذو خصائص محلية قوية.

كرات الأرز اللزج في نينغبو هي وجبة خفيفة تقليدية متوارثة عن أسرة سونغ الجنوبية، والتي شكلت خصائصها الخاصة بعد التنمية طويلة المدى. بطحن الأرز اللزج وتحويله إلى ملاط مع الماء، ثم يتم وضعه في كيس من القماش، وتعليقه حتى يتم تصريف الماء منه، ثم يؤخذ عندما يتم تجفيفه، ويصبح غير جاف تماماً ولزج. هذا النوع من الطحين لونه أبيض لامع، رطب قليلاً وغير دبق، مناسب لصنع كرات الأرز

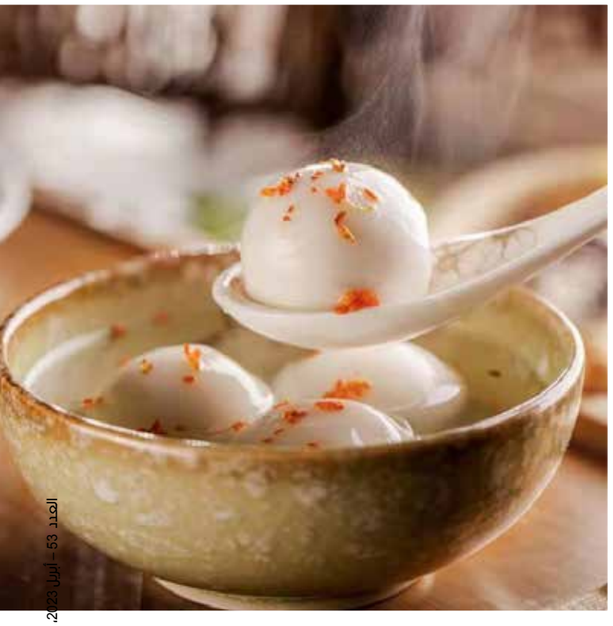

بالحساء الخفيفة الجلد، والكثيرة من الحشو واللذيذة الطعم.

إذا أتيحت الفرصة لك لتسافر إلى تشجيانغ، فمن الضروري أن تطأ قدماك هذه الأرض الجميلة، وأن تتذوق الأطعمة الشهية التي لا توصف.

نفحات رمضانية

د. منّي بونعامة
مدير التحرير

نفحـات روحانيـة حانيـة وأجـواء إيمانيـة تمتـزج فيهـا العبـادة بالعمـل والعطـاء تجتـاح النفـوس في شـهر رمضـان وتمنحهـا طاقـة إيجابيـة عاليـة تمتـد لتلامـس جوانـب مختلفـة مـن حياتنـا بكافـة تفاصيلهـا الدقيقـة، وهنـا تكمـن قيمـة استحضار صـورة رمضـان في المـوروث الشـعبي، تلـك الصـورة التـي تتناغـم وتنسـجم مـع الواقـع والحيـاة، حيـث يمثّـل رمضـان خيطـاً ناظمـاً للـتراث العـربي، وإن اختلفـت بعـض التفصيـلات المتعلقـة بجزئيـة مـن جزئياتـه.

لرمضـان ممارسـات تراثيـة وطقـوس دينيـة تـكاد تكـون متطابقـة ـ عربيـاً ـ أو متشـابهة عـلى الأقـل، انطلاقـاً مـن رؤيـة الهـلال، والأهازيـج الشـعبية المرافقـة لحلـول الشـهر، والألعـاب الشـعبية والأكلات التراثيـة التـي ارتبطـت في ذاكـرة هـذا المجتمـع أو ذاك بالشـهر الكريـم حتـى اسـتحالت إلى طقـس ثابـت مـن طقوسـه؛ لذلـك فـإن رمضـان ليـس دينـاً فقـط، فهـو تـراث وثقافـة وحيـاة.

ويقـترن رمضـان بالمجالـس الشـعبية التـي كانـت منتشرة في الكثـير مـن البيوتـات العريقة سـليلة العلـم والمعرفـة في الإمـارات، والتـي أسـهمت في إذكاء جـذوة الوعـي ونـشر القيـم الثقافيـة النبيلـة، وكانـت بمثابـة صالونـات ثقافيـة يلتقـي فيهـا نخبـة القـوم ومثقفوهـم، ويتبادلـون فيهـا أطـراف الحديـث، ويسـتعرضون مـا علـق في أذهانهـم مـن حكايـات وقصـص شـعبية، ويطلعـون مـن خلالهـا عـلى أوضـاع المنطقـة ومـا يـدور فيهـا . كـما كانـت منـبراً شـعرياً لقـراءة العديـد مـن دواويـن الشـعر القديمـة، كديـوان إمـرئ القيـس، وعنـترة بـن شـداد، وأبي الطيـب المتنبـي وغيرهـم، عاكسـة بذلـك ولـع الناس بالشـعر وتوقهـم لسـماعه وتفاعلهـم معـه، ولم تكـن هـذه السـمة الوحيـدة التـي تعكـس واقـع الحيـاة الثقافيـة في الإمـارات آنئـذٍ، بـل كانـت ثمـة كتـب أخـرى تتـداول بـين مثقفـي المجتمـع، وينهلـون منهـا مثـل كتـب قصـص الأنبيـاء وغيرهـا.

مجالـس كثـيرة توزّعـت في مختلـف أنحـاء الإمارات في أبوظبـي والعـين، ودبي، والشـارقة وغيرهـا، خـلال العقـود الماضيـة، واقترنـت بأسـماء قامـات علميـة فارعـة أسـهمت إسـهامات فاعلـة في الحيـاة الثقافيـة في الإمـارات، وهـي تعكـس ـ في مجملهـا ـ حرصـاً عـلى الـتراث ودفاعـاً عـن الوجـود، ومنافحـة عـن الهويـة والأصالـة، وتسـتعرض عـادات المجتمـع ونمـط حياتـه وأسـلوب معيشـته، وهـي ظاهـرة تراثيـة عريقـة، ولقـاء ثقـافي تفاعـلي يسـهم في بلـورة الوعـي الثقـافي وتوثيـق تحـولات المجتمـع وطـرح مشـكلاته ومناقشـة قضايـاه.

إن الـدور المحـوري الـذي لعبتـه تلـك المجالـس ـ ومـا تـزال ـ أسـهم في الحفـاظ عـلى ثقافـة المنطقـة وتراثهـا وقيمهـا وأصالتهـا، وهـي لذلـك تعـدّ مـن الدلائـل الواضحـة والعلامـات الناصعـة عـلى ثـراء تلـك الثقافـة وغناهـا، وعمقهـا الضـارب في القـدم، وهـي كذلـك مكـوّن أسـاسي مـن مكوّنـات الهويـة الثقافيـة الإماراتيـة، وتحتـاج إلى اهتـمام ثقـافي وجهـد بحثـي مـن أجـل توثيقهـا ودراسـتها بموضوعيـة وشـفافية لإبـراز مـدى أهميتهـا التاريخيـة وقيمتهـا الثقافيـة.

نفحـات رمضانيـة جميلـة وشـائقة تبعـث في النفـس الراحـة والسـرور، وتحفّـز عـلى الانغمـاس في عوالمهـا الروحانيـة والوجدانيـة والتراثيـة والنهـل مـن معينهـا، والاحتفـاء بمـا تقدّمـه مـن تـراث عريـق وعميـق.

and their spiritual behavior.

Ancient civilizations, ancient cultures, and previous religions knew different manifestations and various practices of fasting, which were similar at times, and differed at other times. It was known to the Hellenes, Colombians, Indians, Japanese, Hindus, Buddhists, and ancient Egyptians, and it was imposed by the heavenly religions in different varieties and similar forms.

Way of fasting depends on its purpose and goal. In some cultures, there was abstaining from talking, and others abstaining from food for hours a day, or on specific days in certain months. Fasting differed in Islam. It is fundamentally different from other cultures, as it mixes its apparent and esoteric, linguistic and legal meanings. It involves nurturing the soul and taming it against its desires. Fasting also carries sublime purposes and lofty values that urge contemplation, and deep thinking. It is not just abstaining from things that break the fast and spoilers of fasting.

The month of Ramadan comes every year to arouse in the souls nostalgia for the spiritual atmosphere, and the religious manifestations that ignite those higher values in the souls. Ramadan revives memories of the past through celebration of the holy month by cultural, social and recreational activities that are evoked every year.

This issue of «Marawed» presents Ramadan›s traditions in the Emirati folklore, which reflect celebrations of the holy month, and the accompanying rituals, customs and long-standing traditions that Emiratis have been accustomed to since long ago, and they vary according to place and time.

Old traditions of Ramadan in the memory

Fasting is one of the worships that mankind has known since ancient times. It may differ according to the reason, purpose, and rules. Fasting associated with many rituals and customs that were expressing the assimilation of past nations to the concept of fasting, and their awareness of its meaning and formation in their culture,